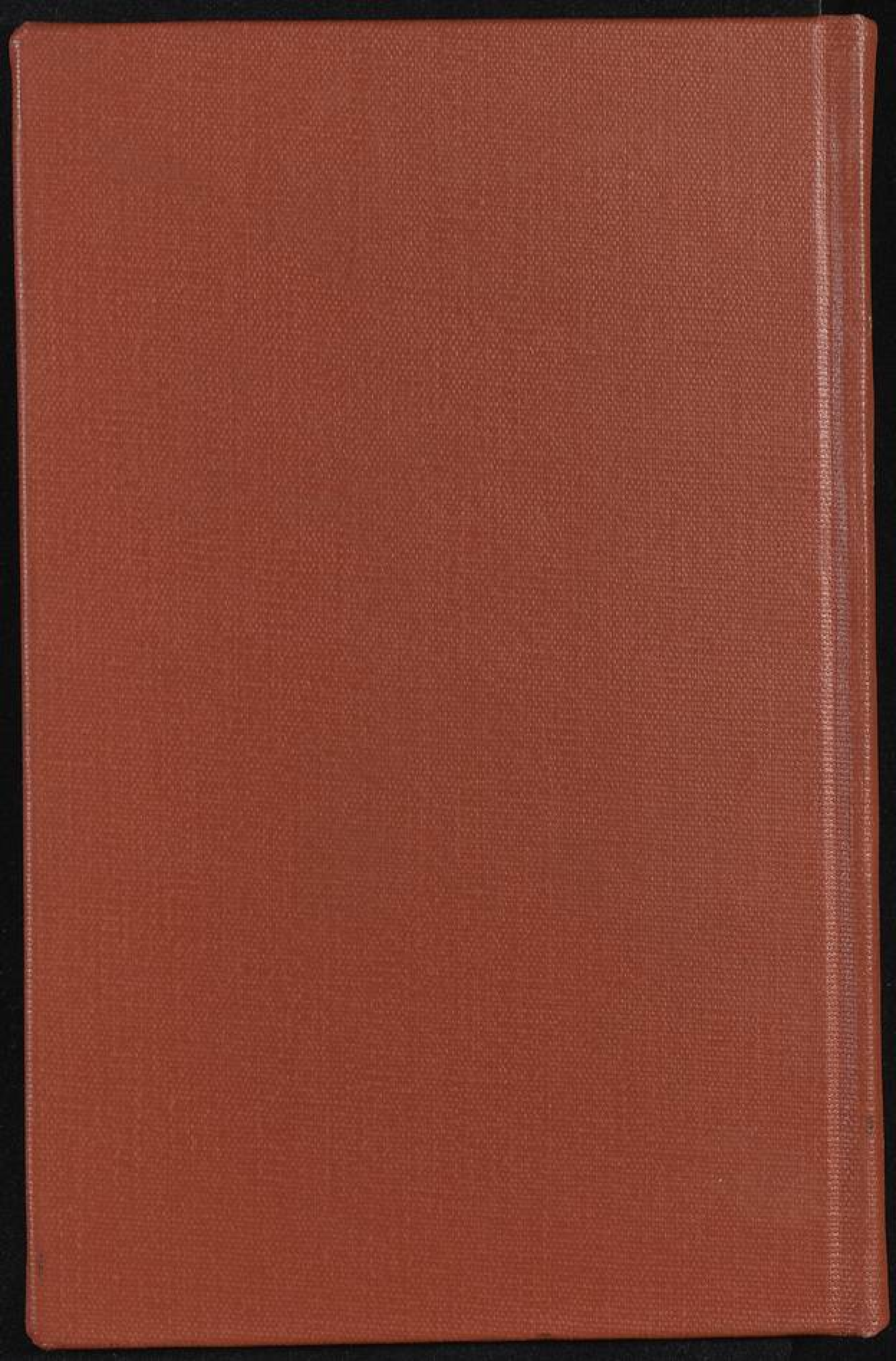
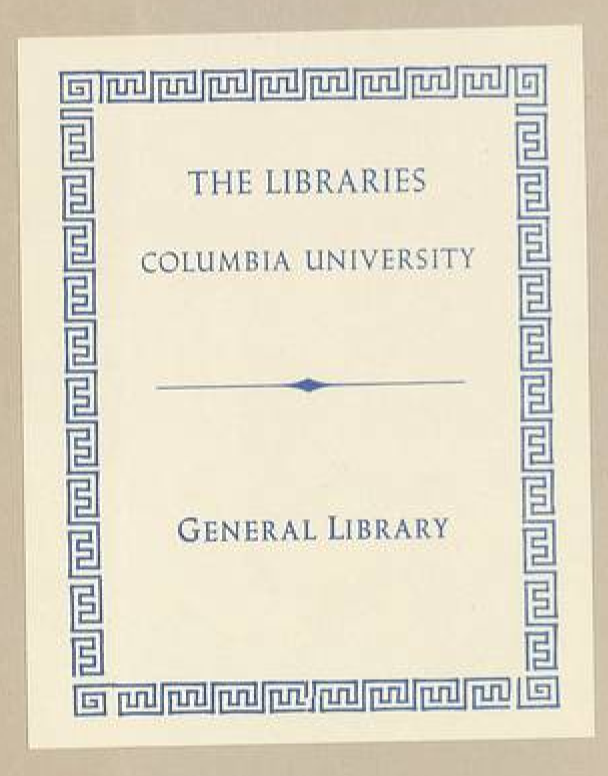
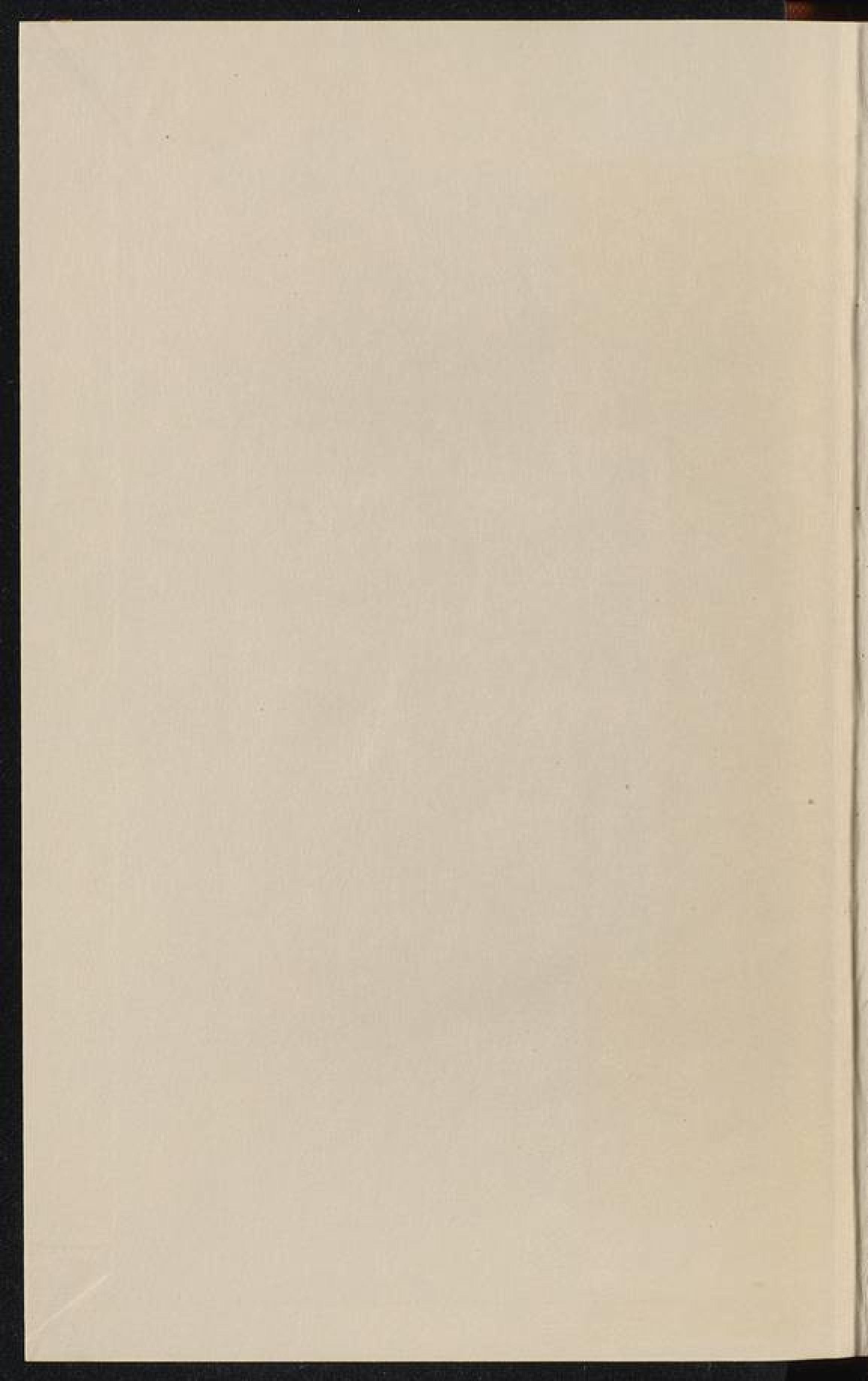
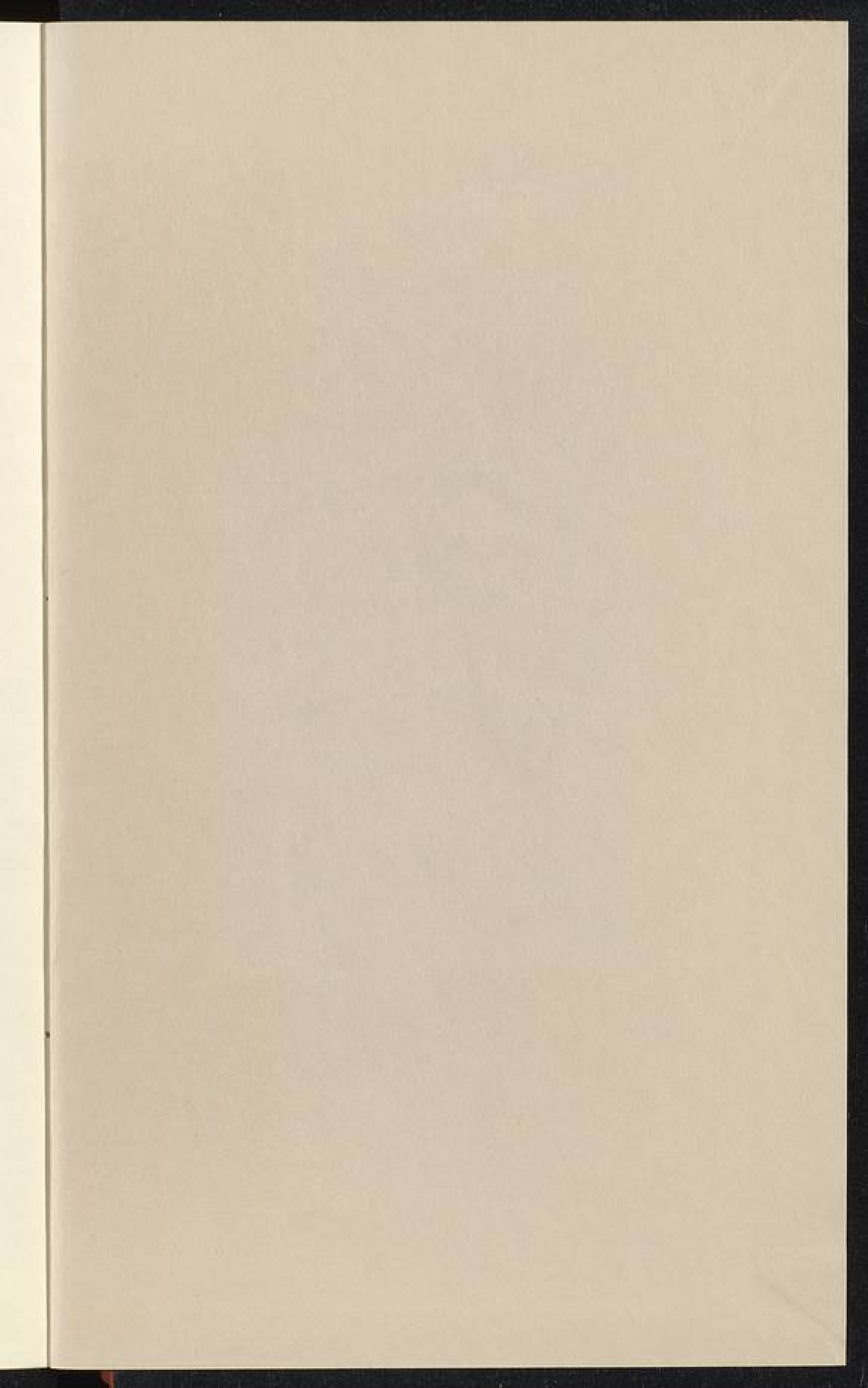
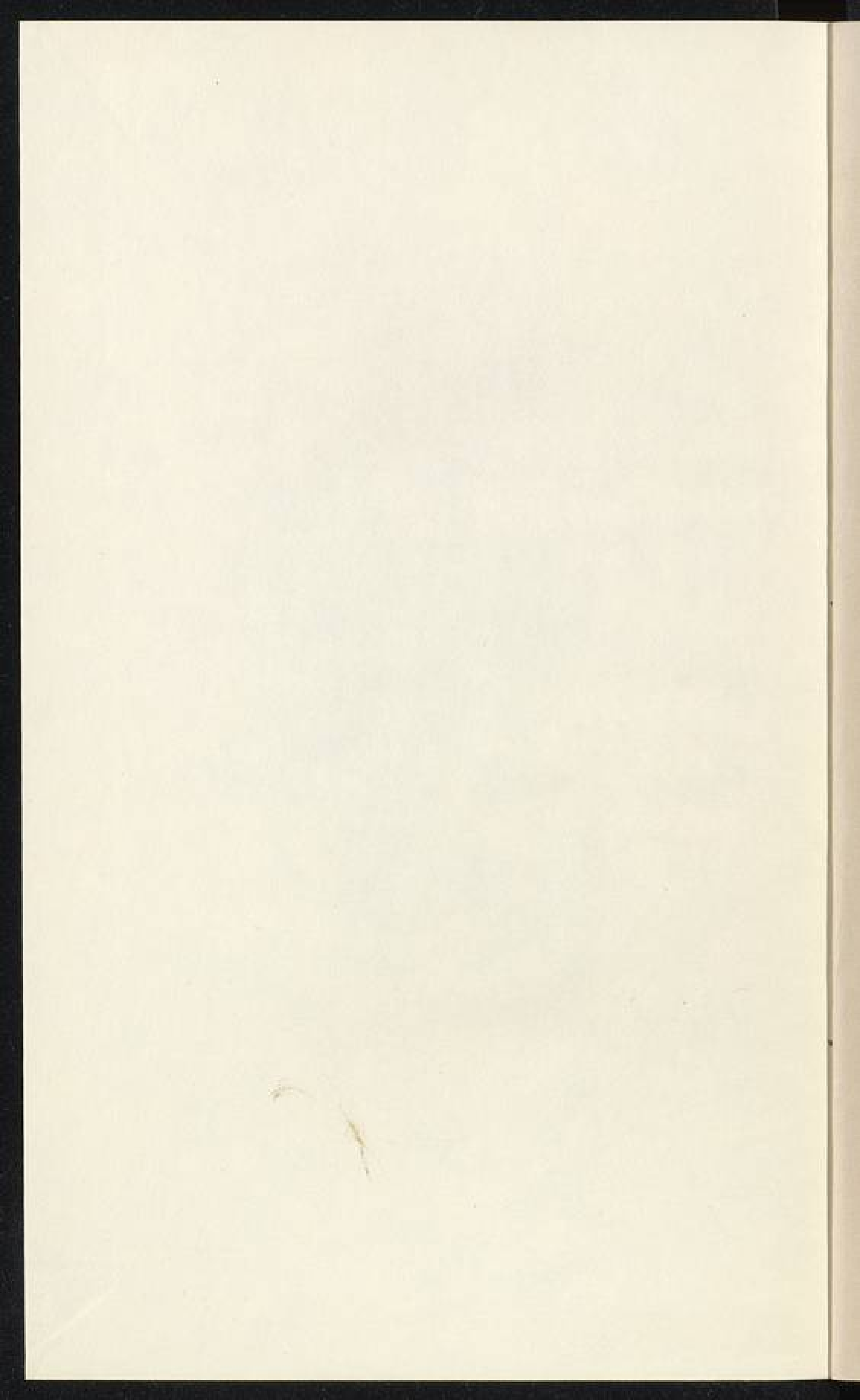
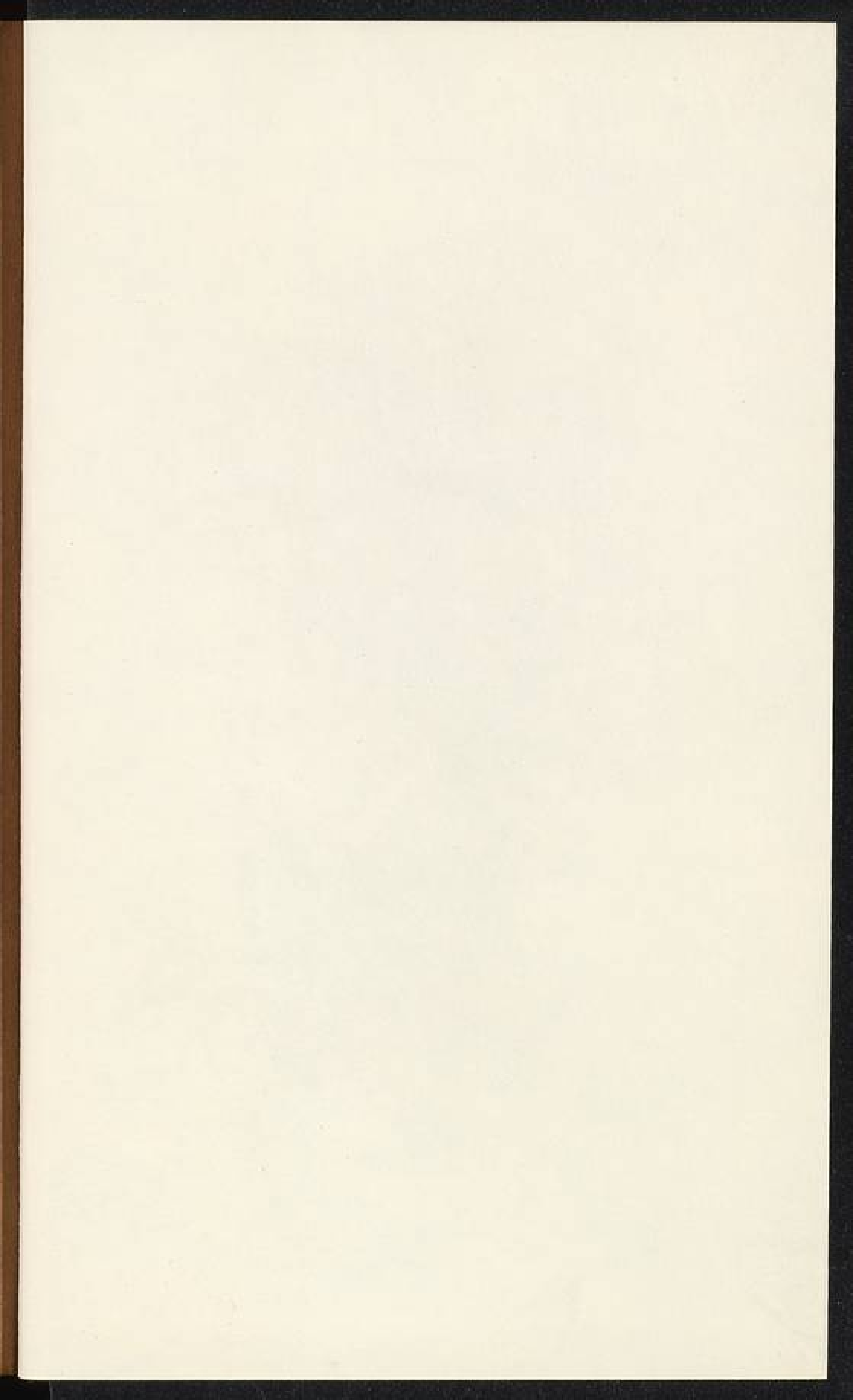



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY







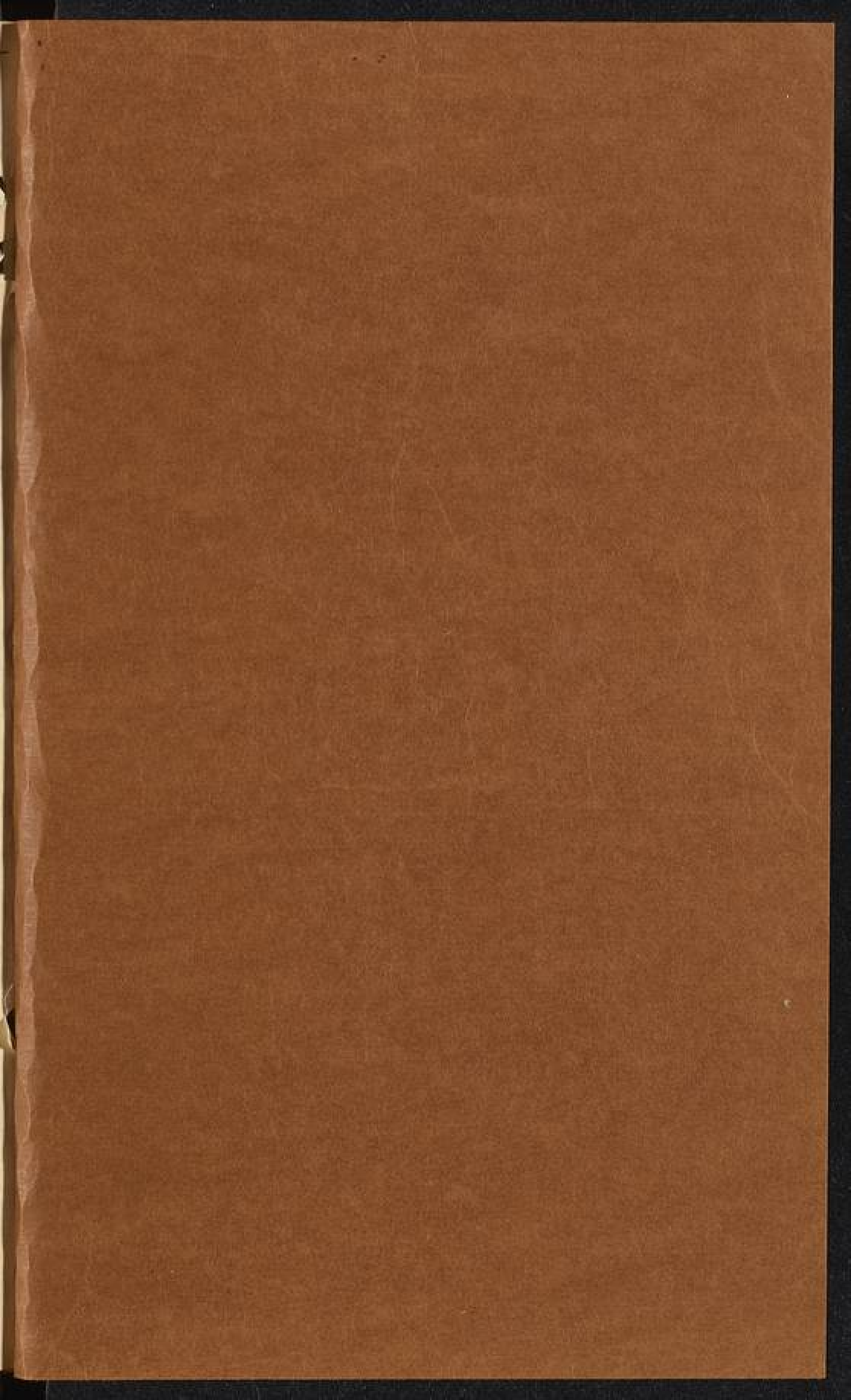


رحلة

من بلاد العرب الى بلاد اليونان

بقلم

الشيخ محمد سليمه



رسائل

من بلاد العرب الى بلاد اليونان

بقلم

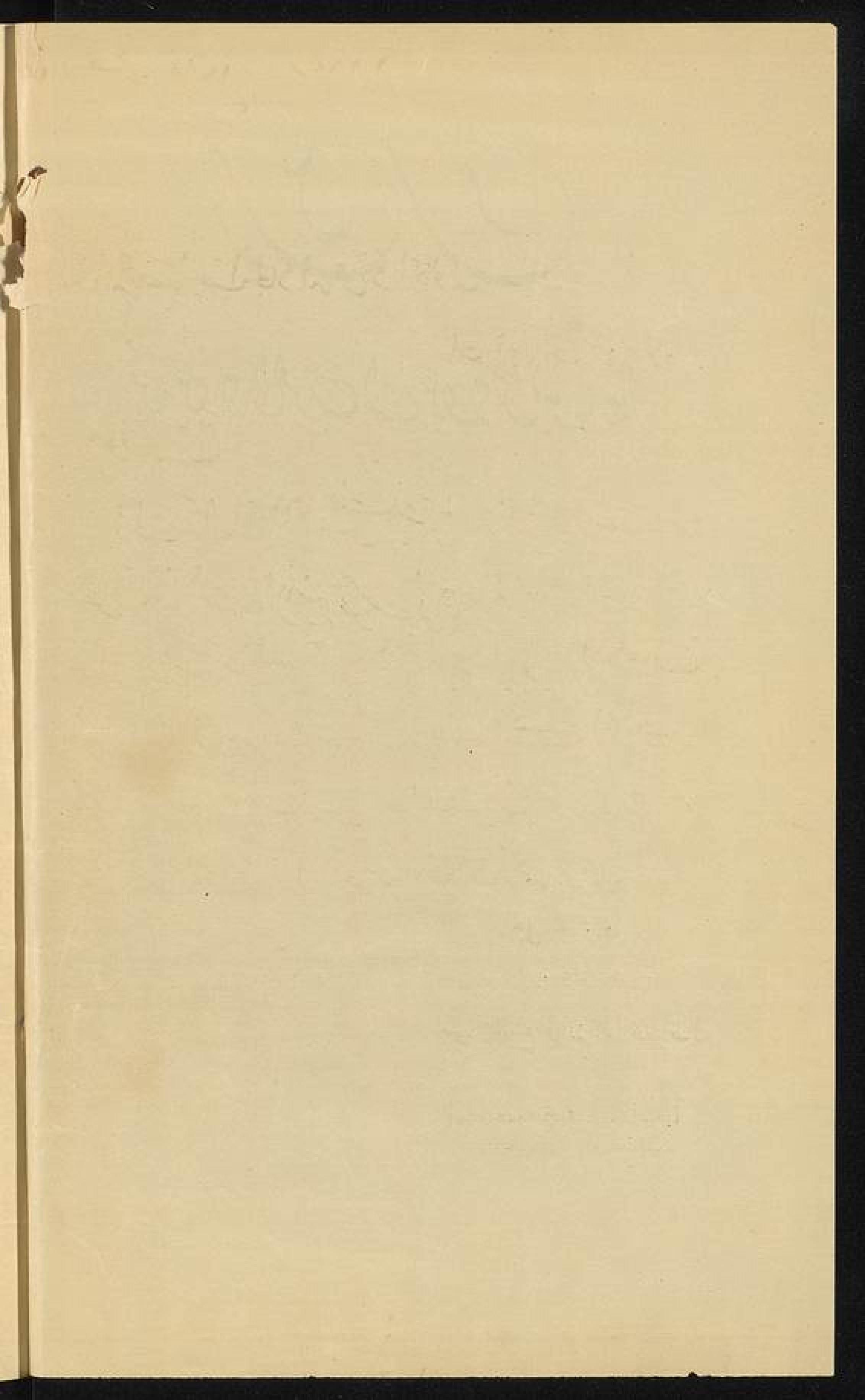
الشيخ محمد سليمان

جمعها ونشرها

علي محمد ندى

بسكرتيرية مجلس الشيوخ

المطبعة السلفية ـ ومكتبتها
لصاحبيهما محب الدين الخطيب



حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر المعظم

أعز الله نصره وعلاه

مولاى

إلى مقامك الأسنى أرفع رسائل سائر

طوف فى أرض الله من بلاد العرب الى بلاد اليونان

ورأى فى هذا المنفسح ذكرك وذكر آبائك الأكرمين

تردده آثاركم ومآثركم بلسان صدق فى الآخرين

فكان من حظ رسائلى أن أقبس فيها من نوركم

عز المصر وفخاراً للعرب والإسلام

الولى الأمين

محمد سليمان

القاهرة فى ذى الحجة سنة ١٣٥٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم الى يوم الدين

وبعد فانى دوّنت هذه الرسائل عن بعض أسفارى خدمة لوطنى وتحقيقاً لمعنى السياحة التى حثّ الله عليها عباده المؤمنين . وسيجد القرّاء فيها مع لذة المطالعة وجمال الوصف ، مواضع للعبرة وعظات بالمقارنة ، وتوضيح حقائق جلتها لى المشاهدة ، وأفادنيها السير فى الأرض حملتنى على مراجعة التاريخ ومقابلة الروايات ، واستخلاص لبّ الحق من غلق الأوهام

وتكاد الرسائل تكون مكتوبة بثلاثة أقلام . ولا عجب ، فتباعد مابين تواريخها ، وتغاير الظروف والمناسبات فى أوقات تحريرها ، وتوجّه النفس يوم كتبت وجهة ما كتبت فيه . كل هذا جدير – وقد جمعتها دفتان – أن يشتبه القارىء فى انشاء الاقلام . ولكنها مع هذا أشبه بحبّات العقد ينظمها سلك واحد هوهنا روح الاخلاص ، وأمانة الرواية ، وقصد الخير لهداية السبيل

فالله أرجو أن ينفع بها . لوجهه تعالى قصدت ، وعليه توكلت ، هو حسبي ونعم الوكيل

محمد سليمان

فى سوريا ولبنان

رسائل سائر (١)

لله هذا الزمن ! لكأنه أمس القريب ذلك العام العاشر للماضى الذاهب فى قبور الدهور وأنا أكتب هذه الرسائل (رسائل سائر) عن رحلتى فى فلسطين ، فأمسك القلم اليوم كأنى أتمم رحلتى الى «سوريا ولبنان» مثلما يتم الكاتب تحرير تقرير عن عمل له يتولاّه فى أجزاء النهار ... ! وتخلل تلك الأعوام حجّ الى بيت الله الحرام كتبت عنه « رسائل الحج » وكأن الرسائل عن القدس والحج فصلان من كتاب أنا أمضى فيه لأتمه للقراء على مكتبى وفنجان القهوة أمامى والسيجارة فى فمى ! لله هذا الزمن إنه يطوى العمر طيّا . وإن دلالة هذا الطىّ لتبين على الكاتبين والمحررين أكثر مما تبين على غيرهم . فان قارئهم يستطيع بلمحة أن يلم بآثارهم ولربما كان بين الأثر والأثر عمر إنسان . فى حين أن غيرهم من المغمورين يُطوى فى جوف القبر طىّ القفّة من الخوص ، ما خلف أثراً ولا ترك شاهداً ، وقريباً من طيّه تطوى العيون التى شاهدت جسده ونظرت حياته . فمن بعدها لا يسمع عنه سامع ولا يدرى بخبره حىّ

* * *

(رسائل سائر) عن فلسطين (٢) و (رسائل الحج (٣)) عن الحجاز

---

(١) كتبت هذه الرسائل سنة ١٩٣١ م

(٢) نشرت بعد هذه الرسائل (٣) ستجمع رسائل الحج فى كتاب وحدها

أثران أنا أغذّى روحى بقراءتهما ، وأجد لذّة فيهما تعلق بقرارة النفس ، لأن القدس والحرم أثرهما عالق بالقلب والعقيدة . فما هزّ فيهما من إحساس فانما يهزّه بايقاع الراحة والارتياح والسكون الى مبعث ذلك النور الذى نستضىء به فى حياتنا ليكون بصيرة لنا وهديا الى سبيل السعادة الدائمة والنعيم المقيم ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ﴾

فمن الطبيعى إذن أن تهتزّ النفس مرّة أخرى وتأرِز نواحيها لتفيض على القراء ببعض ما تأثرت به من سير صاحبها فى الشام ، وبلاد الشام ، ودخوله دمشق ، وحمص وحماه ، ومعرّة النعمان ، وحلب الشهباء ، وتعريجه على بيروت ، وصيدا ، وصور ، وطرابلس ، ثم تطويفه ببلاد الجبل ، وصعوده الى « أرز الرب » وتنشّقه أريج لبنان ، وسقياه من ماء العيون وهى مشاهد ومناظر طالما صكّت أسماؤها الآذان منذ قرأ الكتب ونظر الجرائد . وللتاريخ فيها منادح ومناوح . التاريخ المجنّح بعزتى الدين والوطنيّة ، والتاريخ الجارى مع الريق فى مخارج الحروف العربيّة حروف اللغة التى تتفاهم بها وأهلَ تلك الرقعة من الأرض مثلما تفاهم بها آباؤنا وأجدادنا وأسلافنا الغارقون فى الأزل . خلّ عنك روابط البشريّة من تجاور ، وتصاهر ، وتمازج وتجاذب ، ومدّ وجزر ، ورباط شدّه التاريخ المصرى شدّاً من لدن المعز الفاطمى الى صلاح الدين الأيوبى الى إبراهيم بن محمد على ، فكان هذا المجال كله مصريّاً ، وإن شئت فقل شامياً ، أو قل انه اسلامى وعربىّ ، حتى روى ابن بطوطة فى رحلته أن

البريد السريع كان يذهب من القاهرة ـ سُرّة العربيّة ـ الى حلب على حدود بلاد السلاجقة فى خمسة أيام وهي مسيرة شهر على ماقدّرها به ذلك الرحالة، أو مسيرة خمس وعشرين ساعة على ماتقارب بها الزمن فى هذه الأيام

وإن زدت بسطة فى روابط الحياة فهذه الأغذية التى تنسج بها أجسامنا، طيّبهامن الشام، وهذه النقود التى يتعامل بها أهل الشام يسمونها ـ المصارى ـ نسبة الى مصر السعيدة بلد النقد والغنى : وغذاء الأرواح من آثار الأدب فى هذا العصر أو لست تراه عصيدة أكثر عناصرها من جلب الشام وبلاد الجبل ؟؟ والكتب القيمة التى نقرؤها حديثاً وقديما ويقرؤها أبناء الشام قديما وحديثاً وهى التى ربّت أبناء مصر وأبناء الشام أوليست من نتاج هذه العربية المشتركة ؟ والدولة المنظَّمة الامويَّة التى ولدتْ أول ماولدت دولة فى حجر الاسلام، قامت آساسها واشمخرّ بنيانها فى دمشق الفيحاء . وفى دمشق وعن دمشق انتشر الاسلام وبلغ من بلاد الله فى مشارق الأرض ومغاربها مالم يبلغ مثله فى زمنها بعد أن ولّت، بل ماحوفظ عليه من بعدها حفاظها هى على الفتح والاستعمار ودعم قوة الاسلام بقوة عربية خالصة لفّت الأعجميات فى طيّها لفاً لم يشقّ عنها إلا بعد أن شقّت لها اللحود وتوارى أبناء العرب فى أطباق الثرى . والشعر الشعر الذى درسناه وبنى عقولنا، ترى كم فيه من قصائد ومقطَّعات قيلت فى الشام، وجنّات الشام، ومتنزَّهات الشام، وقصور الشام، ووقائع الشام ودول الشام ، ورجال الشام الخ الخ ثم جاءت بعد هذا رابطة العثمانية التى

حنّت لها القلوب الضعيفة بعد أن دبّ الضعف والوهن الى أبناء الاسلام فكان المتوثّقون بتلك العروة يحنّون الى حظائرها ويسكنون الى مساكنها مثلما يحنّ المحبّ المشوق الى آثار المحبوب وقد غيّره الزمن أو عدا عليه الزمان ، الى سنة ١٩١٤ قضت سياسة الغرب أن تبتّ باقى هذا الحبل وتقطع مافيه من ذماء ، ولكن سياسة الاجتماع وعوامله تأبى أن تبتّ بتّ السياسة أوتجارى تيار السياسة ، والسياسة وحكمها على الشعوب أشبه الأشياء بالزبد الرابى احتمله السيل لايلبث على ممرّ الزمن أن يكشطه الزمن فينجاب عن الوادى ويعود للوادى مظهره الذى يحجبه الزمن ، وهكذا دواليك الى أن يقف الفلك وتكوّر الشمس وتدكّ الارض ويأتى أمر الله

فالظواهر التى تبين بها بعض قِطَع الارض مما يسكنه الشعوب من أبناء الأرض ظواهر ستتبدل حتما ، لا آثار باقية من مصادر فيها ثابتة . وطغيان الغرب على الشرق الآن أشبه شيء بطغيان الشرق على الغرب فيما مضى ، وليس هذا ولا ذاك أول طغيان ولا آخره ، وإنما الطغيان سنّة من سنن العمران مثلما هو بين الغرب نفسه ، فان أبناءه يطغون فيما بينهم فتموت دول وتولد دول ، وتزول ممالك وتبنى ممالك . ومثلما هو بين الشرق مذ كان كالغرب ، كان فيما بينه متطاغياً بعضه على بعض الى أن جاءه الطغيان العام فتصاغر له وتطامن للغرب بمقدار الطور المقدّر له فتتبدل الآية ويعود الطاغى مطغيّا عليه والمطغيّ عليه طاغياً ؛ وهذه حال الاجتماع مصوّرة فى قوله تعالى «ولولا دفع الله الناس بعضهم

ببعض لفسدت الأرض » فلذلك كانت الشعوب ، وكانت أرض الشعوب وكانت مكوّنات الشعوب هى الأصول البواقى ،وماعداها ظواهر لاتُخفى الأصول ولا تبتّ مابين الأصول

فاليوم حين تسافر للشام تستجيز مصر ، وتستجيز انكلترا ،وتستجيز فرنسا . هذه الاجازات مظاهر أظهرت لك فرقا عما كان لأبيك إذيسافر فيها كلها وكأنه يتنقل بين غرف داره بلا جواز ولا براءة ، ولكنها ظاهرة لاتُخفى أنك المصرى القديم وأن أخاك الشامى هو الشامى القديم لم تتغير أصولكما ولاضاعت مكنوناتكما ، ونحن أبناء العربية وأبناء الاسلام وأقول أبناء الاسلام ، لأن الاسلام لايفترق عن العربية بل هو العربية إن أردت أن تحقق مطمحه الأسمى فى توحيد شعوبه ، لاجنسيات بينها ولا لغات مختلفات تقف تفاهمها ، ولا حوائل ولا حواجز إذ كان أبناؤه جميعاً من مسلمين ومعاهدين إخوة كالجسد الواحد،دارهم كلهم « دار إسلام »

بهذا الشعور ، شعور قارىء التاريخ والأدب ، وشعور العربىّ القرشىّ ، وشعور المسلم الاخوى انتقلت الى بلاد الشام ولا أقول ـ سافرت ـ لان السفر لايكون إلا للخارج وأنت فى الشام لم تخرج من مصر اللهم إلا أن ترى ما كنت تسمع عنه وما راءٍ كمن سمعا

مشاهد وعبر

من تسع سنوات دخلت فلسطين وزرت بئر سبع أو آبار شعيب فاذا بها بلدة قائمة في البر الأفيح ، متقاطعة الشوارع ، يجوز النظر فيها أجوازها الى الصحراء فلا تصدّه إلا آفاق السماء . هناك على شارع منصوص الى طورسيناء أشاروا عليه ، قالوا لى هذا شارع مصر . كذلك سماه جمال باشا فى أثناء الحملة التركية على مصر وأقام عليها بوّابة كتب فوقها هذا الاسم وقال لهم من هنا الى القنطرة ، فالقاهرة

وفى هذا العام قصدت الى سوريا ولبنان ، فبعد أن ركبت الاتومبيل خمس ساعات من حيفا على ساحل البحر الابيض واجتزت عكا وصور وصيدا ، لاحت لنا بيروت وشارفتنا ضواحيها حيث انبسط للاتومبيل طريق معبّد مُقمر على جانبيه الدور والقصور والحدائق والبساتين ، فاذا ما وصلنا نحو البلد استقبلنا شارعٌ مستقيم ، عريض أزهر الجوانب ، فى بدئه غابة الصنوبر التى تنسب الى ابراهيم باشا ، وعلى جانبيه دور العظماء والكبراء وقصر المندوب السامى . هنا قالوا لنا : هذا شارع الملك فؤاد ملك مصر . إذ ذاك عادت الى ذهنى ذكرى شارع مصر فى آبار شعيب ، وتقابل المعنيان على تضادّهما وتباعدُ ما بينهما ، ذاك شارع يحمل الإغارة على مصر ، أما هذا فشارع الترحيب بأهل مصر ، وشارع يتلقى الوافدين من هذه الناحية . ويشاء القدر المتصرّف أن يُسدّ شارع مصر فى آبار شعيب فلا تتجاوزه السابلة الى زمام البلدة ، أما شارع الملك فؤاد فقد

كتب له العزيز العليم أن يستقبل فى كل سنة من رعية الملك فؤاد بضعة آلاف نسمة يدخلون بيروت وسوريا مملوئى الأوطبة والجيوب بالأوراق والنقود ، فاذا ما أقاموا شهراً أو شهرين عادوا منه مملوئى الأوردة والشرايين بالدم والنشاط

***

ظاهرة هناك حقة لاريب فيها ولا شبهة ، هى محبة أهل الشام لأبناء مصر . على ماشئت فهذا الحب ظاهر ، وآثاره بيّنة ، ودلائله فى المعاملات والمسايرات لاتحتاج الى تحشية . سواء كان ذلك للارتباط التاريخى من أقدم الازمنة حينما ملك فراعنة مصر بلاد الشام ، أو حينما ملك عمالقة الشام بلاد مصر ، أو لأن الذين يجيئون من الشام الى مصر ويعملون فيها يرتدّ أغلبهم غنياً سعيداً ، أو لأن الذين يذهبون من المصريين الى الشام ينفقون فيها ما معهم ويعودون منه ببضائعه ، أو لأن اللغة واحدة ، والدين دين إسلام فى غالبه وأهل كتاب محبوبين فى بلاد لبنان ، أو لأىّ سبب آخر مما ذكرناه هنا أو فى مقالنا الماضى فالواقع أن المصريين محبوبون فى هذه الناحية من رقعة الشرق الأدنى . وبحثت ثم بحثت فلم أجد أىّ فرق لى أنا ابن الوجه البحرى بين الصعيد والشام . ثم بحثت ثانية فوجدت أن مصر وفلسطين ولبنان وسوريا لاحدود طبيعية ولا أشباه للطبيعة بينها ، وتكاد العوائد تستوى فيها ، واللهجات ان اختلفت فى الشاميّة فهى لاتقلّ اختلافاً فى أذن ابن الوجه البحرى عن اختلاف لهجات الصعيد مثلا ، وما هذه المسائح كلها إلا مساحة واحدة

يقوم لبنان فيها كما ينهد ثدى الفتاة على الصدر ثم تنبسط حوافّه من قمته الى جلدة الصدر رويداً رويدا . وصِفْه فى مصر بهرم مصر وان كان الهرم مذبباً والجبل هناك واسعاً معبَّداً [١]

والكاتب المصرى اذا كتب عن زيارته فى هذه البقعة من أرض الشرق العربى محمول على أن يكتب كتابة الغبطة لا كتابة الحسد . الغبطة لأهل لبنان وأهل سوريا بحيث يتمنَّى أن يكون أهل مصر حالهم كمثل حالهم . وللدقّة فى الرواية يجب أن نميّز أهل الجبل فى مقدار هذه الغبطة وفى رفعة حالهم عن حال أهل سوريا . أنا كاتب اجتماعى وكل همّى فى هذه الحياة أن أحمل قومى على انتهاج المثل الأعلى فى الحياة وأن يستمتعوا منها بأوفر قسط يحصّل لهم حظّهم من الدنيا من غير أن ينسوا نصيبهم فى الآخرة . أستطيع القول بأنى لم أر فى لبنان فقيراً ولا قذراً ، وان أهل لبنان على ضيق الجبل قد استمتعوا من الجبل وانتفعوا بما فى الجبل أتم متعة وانتفاع ، وأدّوا فى هذا أكبر واجب لأرض الجبل وجيل تلك الارض . وهل كان يخطر بالبال أن تلفّ الجبل بالاتومبيل

(١) لبنان : قال ياقوت : جبل مطل على حمص ، يجىء من العرج الذى بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام ، فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل ، وما كان بالأردنّ فهو جبل الجليل ، وبدمشق سنير ، وبحلب وحماه وحمص لبنان ، ويتصل بأنطاكية والمصيصة ويسمى هناك اللكام ، ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر فيسمى هناك القبق ، وقيل ان فى جبل لبنان كورة لحمص جليلة وفيها من جميع الفواكه والزرع شىء كثير .

على طريق معرَّج ملوَّى صاعد هابط يمرّ على منتثر بيوته وقراه ، فاذا بالطريق كله معبدٌ مقيرٌ ! واذا بالدور كلها نظيفة ظريفة ! واذا بالقرى كلها مضاءة بالكهرباء ، مجرور الى غرفها وصحونها الماء ! واذا رجالها ونساؤها وأطفالها لا تقع العين منهم الا على مشرق نظيف ! ليت الفلاح المصرى يذهب مرّة الى الجبل ليرى المشقّة والجهد فى الانتفاع بأرض ذلك الجبل. فعلى انحدار الجبل تقوم حوائط بالحجر كل حائط يحفظ الطين لشريط من الارض قد يضيق حتى يكون خطوة ، ثم تتدرّج الحوائط هكذا بأشرطة الطين الى قاع الوادى ، والشجر والزرع منتشر فى هذه الأشرطة بنظام و نظافة كأنها طيّات ذيل « الفستان »

ويظهر لى أن الذين يحكمون على الشعوب مما يبدو على بعض جواليهم هنا ، لايكونون على شىء من الصواب . هنا كنا نرى فى بعض الشاميين من معاملاتهم وألفاظهم مايظنّه المقصّر فى الحكم عنوانًا على أهليهم ولكن مشاهداتنا كلها فى سوريا ولبنان جعلتنا نتمنى أن يكون المجتمع المصرى على مثال ذلك المجتمع . هناك تآلف وتعاطف يبدوان للعين ، لاتكاد تجلس بين قوم حتى تتعارف معهم . وخلق المرح فاش فيهم ، ونحن هنا خصوصًا فى طبقة الاوساط يكاد الخلق الانكليزى يعمّنا ؛ تدخل الترام أو عربة سكة الحديد وربما مرّت الساعة والساعات ولا تكلّم من معك وقد لاتسلم عليه، ولا أثر لهذا هناك ، فالسلام والتعارف أول مايبدأ بهما الناس . وكنّا نمرّ على الصانع ورزقه من صنعته، فاذا به يتركها ويقوم معنا بنفسه ليرشدنا عما سألنا ثم لاينصرف حتى يقول لنا أو لكم خدمة

أخرى ؟ وتسأل التاجر عن شيء لايكون عنده فيقول لك هو عندجارى
ولا يفعل كما يفعل بعضهم هنا يقول (اتفضل أجيبو لك من المخزن)
وهو يأتى به من عند جاره ليكسب عليه ! . وفى يوم الأحد رأينا بيروت
كلها مغلقة إلا من ليس مسيحيّاً ، وفى يوم الجمعة رأينا دمشق كلها مغلقة
إلا من ليس مسلماً ، وفى هذين اليومين يتمتّع أهل العطلة منهم بأحسن
المتع ، يتنزّهون ويخرجون الى الرياض والبساتين طربين مرحين .
فى حلب كنا نمرّ بالنهار على القهوات فلا نكاد نجد كرسياً مشغولاً
ونمرّ عليها بالليل فلا نكاد نجد كرسيّاً خالياً . والفقير يشارك الغنى
فى حاجات العيش ، قال لى صاحب الفندق وكان قد استوطن مصر
سنين : هنا ياسيدى لا يكاد الغنى يجد سبيلا الى صرف ماله ، فلذلك
لاتكاد تجد فرقا بينه وبين الفقير لأنهما يحصلان معاً على الملبس واللحم
والخضر والفاكهة . وكذلك قال لى صديق مطّلع من أهل دمشق أنه
لادَين عليهم وأكثرهم مدّخر . وهذا العام لم نر أثراً للأزمة فى الشام ،
وأسباب الرخاء قائمة به ، بل علمت أن حكومة سوريا تشغل العامل بليرة
فى اليوم وكانت قيمتها أيام كنا هناك ١٦ قرشاً مصرياً . وصاحبى الذى
يحدثنى وقد أرانى بيته الظريف النظيف فى دمشق عرّفنى أنه فى مصروفه
اليومى لايزيد على ربع ليرة للحم والخضر والفاكهة . وكنا يوم الجمعة فى
حلب فى أعظم متنزّهاتها واسمه « السبيل » ويشبه قهوة البحيرة التى فى
حديقة الحيوانات عندنا ، فجلس بجوارنا رجل لطيف نظيف الثوب حسن
التكلُّم طلب ماطلبنا من قهوة وشيشة وظنناه لما بدا من حديثه ولياقته

رجلا عظيما . أفيدرى القارىء من هذا ؟ فى ثانى يوم كنا نتفرّج على قلعة حلب فاذا بصاحبنا هذا نجّار فيها وهو الذى تعرّف علينا ، فترى من متعته فى يوم الجمعة هذه ؛ وهى متعة شائعة بين طبقته ، أنهم لا يتأخرون عما أخرج الله من الطيّبات والراحة فى أيام الجمع . وتركب الاتومبيل فترى السائق نظيفاً ، ثم لا يكاد ينطلق بك الاتومبيل حتى تراه يشدو ويغنى غناءاً طروباً ، فاذا قعدت للراحة فى مقعد قعد معك وطلب كطلبك فتكلمه فلا تجده قليل الفكر ولا سقيم المعرفة ، بل ندر أن تجد فى جنوبى لبنان من يجهل الفرنسوية . ويظهر لى أن الفرنسوية متغلبة فى لبنان بآدابها وتقاليدها أكبر تغلب فى الجنوب ، وفى الشمال تغلبها قليل ، وفى الشمال تجد ظهور رجال الدين المارونيين ظهوراً بيناً

وفاتحة التخاطب بينهم كلمة « ياحبوبى » وقلّ ألا تسمع من كل من تخاطبه كلمة « تُكْرَم » وكلمة تكرم هذه تسمعها من الصغير والكبير والرفيع والوضيع ، تطلب من أى انسان ما تريد فيقول لك « تكرم » ، فهذه الكلمة الحبيبة دائرة على كل شفة ولسان

فى دمشق الفيحاء

معاوية وقبره

تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما ، وعندكم معاوية ؟
(عمر)

انى لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوى ،
وجهل أكثر من حلمى ، أوعورة لا أواريها بسترى ، أو إساءة
أكثر من إحسانى (معاوية)

سيّدنا معاوية أمير المؤمنين ، كاتب الوحى ، وصهر الرسول ،
والعربىّ الداهية الذى وضع أساس السياسة الأرضية فى الدنيا لبناء الممالك
وقيادة الشعوب ، وأوّل مسلم أسّس للإسلام دولة وأقامها ملْكا عضوضا
راسيا على قواعد تجبه الزمن وتلاقى أحداثه ، والذى أقام فى الشام أربعين
عاما مدّة إمارته وملكه فنشر الإسلام فى هذا الشمال الغربىّ من آسيا
وغزا الروم فى البرّ وفى البحر واستولى على الارض والجزر ، والحليم
الثابت النفس ثبوت الجبال فى أهوج ثوران الريح حتى روى أنه أتاه فى
ليلة واحدة أن قيصر قصد له فى الناس ، وأن نابل بن قيس غلب على فلسطين
وأخذ بيت مالها ، وأن المصريين الذين كان سجنهم (فى دم عثمان) هربوا
وأن سيدنا عليّا سار له فى جمعه . تلق هذه الأحداث فى ساعة واحدة
من منتصف الليل فلم يطر لها جانب من جوانب نفسه ، وخرج منها
كلّها سليما ظافرا

شيخ الملوك الذى حضّر دمشق واتّخذها قاعدة الإسلام فلم تلبث أن
كانت بمجمع حواسّ الاسلام الخمس ومهوى الأفئدة جميعا للمسلمين أجمعين

وبعد أن كان أميرا لخليفة صار مشاقًا لخليفة ، ثم صار هو الخليفة حوالى عشرين عاما أى نصف ما ملك وتأمّر ، وأيامه كلّها أيام فتح للإسلام ، حتى أيام الشقاق مع سيدنا على لم تلهه عن الإسلام ، وكتابه الى هرقل حين همّ بالخروج عليه منتهزا خلافه مع علىّ كتابٌ خالد يصحّ أن يكون حديثاً يتلى لخدّام الوطنية فى كل زمان ومكان (١)

معاوية الذى أغلظ له رجل فأكثر فقيل له أتحلُم عن هذا ؟ قال « أنا لا أحول بين الناس وألسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا » فوضع بذلك حريّة القول وسياسة النقد للرعيّة فى حدود النظام العام وألّا يتخطّوا حائط الملكية ، كما وضع أساس السياسة العامّة فى جميع حركاته وسكناته فى لين بلغ من حنوّه أنْ لو كان بينه وبين الناس شعرة ماقطعت ، فتلقّى عنه كل ملك فى الأرض كلّ قاعدة يحفظ بها ملكه ويصون سلطانه . ومن هذا ولعظمته فى دينه ، وفى نفسه ، ولصهره من نبيه لقّب ـ ويقول عنه « ابن القيّم » دائما ـ « خال المؤمنين »

إن كاتب هذه الرحلة شريف حسينىّ ، من نسل سيدنا علىّ ولكنه مسلم سُنّىّ على عقيدة السلف الصالح ، يحبُّ الصحابة ويجلهم ، وينشد

(١) بلغ معاوية أن هرقل همّ بالخروج للشام لما بلغه خلاف واليها معاوية مع علىّ فكتب اليه معاوية يقول « تالله لئن تممتَ على مابلغنى لأصالحنّ صاحبي ، ولأكوننّ مقدّمته اليك ، ولأجعلنّ القسطنطينية الحمراء حُممة سوداء ، ولأنزعنّك من الملك نزع الإصطفلينة « الجزرة » ولأردّنك إريساً من الأرارسة ترعى الدوابل »

فى الخلاف الذى وقع بينهم قول صاحب جوهرة التوحيد:

وأوّلِ التشاجـــر الذى ورد إن خضت فيه واجتنب داء الحسد

ولذلك فسرعان ما دخلت دمشق حتى كان أوّل همى فيها أن أرى قبر أوّل من نوّه باسمها، وأزهى فى الإسلام قدرها، وجعلها بحق أوّل عاصمة للخلافة الملكية، وخلّف فيها خلائف رفعوا قدرها، وأبقوا ذكرها، فذهب بى دليلى الى قبره خلف المسجد الأمويّ من بابه الشرقيّ فاذا بقبر مترب فى قاعة مهدّمة يخدمه شيخ مقعد! ثم ذاكرنا أديب دمشق الشيخ عمر الطيبي محرر «الف باء» فعرّفنا أن هذا قبرُ معاوية الصغير أى ابن يزيد بن معاوية، أما قبر شيخ الملوك فهو بمقبرة الباب الصغير على المشهور، وعلى ما ظهر من وثائق أخرى فهو تحت قبو زاوية «السنود» الموقوفة على أهل السند. وفى ثانى يوم زرت المشهد فحدّثنى قلبى أن معاوية بقبر القبو مما أحسسته بالروح وإن كان القبران مقبورين بلا اعتناء

لست من عبّاد القبور، ولكن مشاهد العظماء ذكريات الأبناء. والامّة الإسلاميّة التى يزدهى تاريخها بلآلىء العظمة من نفوس قوّادها جديرة بأن تكون جوهرةُ هذه اللآلىء غير مطمورة دونها، ولذلك كاشفت السيد الألمعيّ الجليل رئيس دولة سورية الناهضة بأمنيتى وبشبه معتبتى أنْ لماذا لم يكمّل الرئيس ما قصَّر فيه أسلافه فتكون قبّة معاوية منار العاصمة وقد ورثها السيّد فى هذا الزمان؟ ومع أن الشيخ تاج الدين شريف حسنىّ من نسل علىّ، والقائل له حسينى يجتمع معه فى الجدّ

المكرَّم الذى نازعه معاوية ، فكلانا من سموّ النفس وعصمة الدين بحيث توافقنا على العناية بهذا الصحابىّ الهمام . وقال الرئيس : إن هذا يحتاج تحقيقاً تاريخياً عن مكان القبر ، وسعة مادّية يُنفق منها على ما يليق بصاحبه ، وزمن الدولة اليوم لمّا يناسبه هذا المقام

أطلت الكتابة فى قبر معاوية ولكن الحقّ أنّه كانت بى نزعة فى سياحتى أن أزور فى الشام قبر معاوية بدمشق ، وقبر خالد بن الوليد بحمص ، وقبر أبى العلاء بمعرّة النعمان . لنكون قد وقفنا على مشهد أعظم ملك ، وأشجع قائد ، وأكبر فيلسوف . وقد وقّفنا ورأينا فى تلك الحفائر كيف هى قدرة القادر ، وكيف يجتمع الأوائل بالأواخر فى هذه المصائر

أقدم مدينة بلا آثار

قالوا إن دمشق الشام أقدم بلد على ظهر الأرض اليوم . وكان من حقّ هذا القِدم أن يزخر ذلك البلد بآثار الأوائل ، ويكون فيه من صدور التاريخ مايتلاقى وهذا القدم ، إلاّ أنّ دمشق خلوٌ من هذا المقتضى فما فيها من أثر سابق على تاريخ الفتح الاسلامى اللّهمّ إلا كنيسة وطيئة تحت الأرض تدعى كنيسة « حنانيا » زرناها فى حىّ المسيحيّين ، لاملحة عليها من قِدم إلاّ أن تنزل لها فى درج بالقدَم ، ويذكرون أنّها مذكورة فى الأنجيل وقد طبع أهل الدار التى تغطس الكنيسة تحت فنائها صحفاً من الإنجيل فيها ذكرها . وما بعد هذه الكنيسة من آثار فندر أن تراه إلا بقايا جذوع من أساطين حجريّة فى بعض جُدر من بيوت

دمشق قال لى عنها دليلى إنّها بقايا الأعمدة التى كانت الشوارع بينها مغطاة بأقبائها فاستقامت آثارها اليوم فى جدران الدور

ولكن ابن بطوطة ذكر هذه الشوارع المقبية ولا لمحة عليها من آثار الأول . وقطعت دمشق من شمالها إلى جنوبها ومن شرقيّها الى غربيّها فإذا بها بلد خلو حتى من آثار الأمويّين الذين أقاموها وشادوها وزخرفوها ، لم يبق لهم فيها أثر إلا مسجد الوليد بن عبد الملك ، وجدره على ما يظهر قديمة من قبل الاسلام



واجهة من المسجد الاموى

وتعجب للرومان الذين خلّدوا شواهدهم فى كل مكان حتى فى صحراء ليبياء وبلاد شرقىّ الأردنّ وفى فلسطين وغيرها كيف خلت ضفاف « بَرَدى » من آثارهم وتعرَّتْ أقدم مدينة من بقاياهم . نعم ان العباسيين هدموا آثار الأمويين ، ومن عجب أنّهم لم يتركوا بدمشق أثرا

وآثار دمشق الباقيــة فيها اليوم تبتدىء من صفحة الفتح المصرى
من أيام الملك العادل أخى صلاح الدين الأيوبى ، فدمشق تكاد تكون
أعلامها من صنع الملكين العظيمين العادل والظاهر بيبرس ، أما قصور
بنى أمية ، والخضراء التى كانت حيّهم قبلىّ الجامع الأموىّ ، والمغانى التى
تغنّى فيها شعراء العرب وأدهش الأمويون بها ألباب بواديهم فقد أتى
عليها بنو العباس بلا ذنب للآثار ولا جريرة للمشاهد . ومن يذكر هذا
التاريخ تذكره ثورة نفسيّة على عمّاله وعلى كاتبيه . نعم قد يجوز للدولة
الناشئة اذا غلبت دولة أخرى أن تستأصل رجالها وتخلّى وجه الارض
منهم ولكن هدم المشاهد والآثار إنما هو افتيات منهم على التاريخ
وإفقاد لحلقة قد تكون ثمينة من سلسلته المتسلسلة الى ما يأتى بعدها
من الأجيال . ثم ان المحلّ لهذا قد يتوسع الى جواز ذلك الهدم ولكن
بالإجماع لا يقول عاقل بنبش قبور الموتى واستخراج عظام الهالكين
يحرقها ويذروها فى الريح كما فعل بنو العباس بأجداث بنى أمية ، بل إنى
لأرى فى تلك الفعلات جرأة على الله كيف ينتزعون عبيده الذين توفّاهم
اليه من بين يديه وهو المختص بحسابهم ومجازاتهم ويعاقبونهم هم بتقدير
المخلوق الفانى

وماذا علىّ من هذا كله ، ولكن دمشق فى منظرها اليوم أشبه
ما تكون بالعجوز عليها آثار الجمال الماضى ، أو بالأطلال تنبىء عن ثراء
الذين حلّوا بها وارتحلوا ، وحينما تمر على مراكز الأسماء الأولى تأخذك
هزة اذا قيل لك : هنا باب جيرون ، أو باب الميدان ، أو باب البريد ،

أو باب الجابية ، وطالما تردّد على لسانى هذا البيت :

ما بين جابيها وباب بريدها قمر يغيب وألف شمس تطلع

والترك الذين بقوا فيها مئات السنين لا أثر لهم إلا « تكية » للسلطانين سليم وسليمان إن لم تتداركها يد العناية أخذتها يد الإهمال ، وهناك مسجد يسمى مسجد « سنان باشا » بديع عليه مئذنة مغطاة بالقيشانى هى المئذنة الوحيدة التى رأيتها فيما رأيت من بلاد الاسلام مكسوة بالقيشانى . وقد أتت الثورة الأخيرة على كثير من دور دمشق فهى خراب قائم ، ولكن الشهادة لله أنّ دولة سوريا ناهضة اليوم عاملة لمجدها ناصبة ، فدار الجامعة جديدة بجوار تكية السلطانين ، ويد العمار سائرة فى الشوارع . واستوقف نظرنا هناك ثلاثة معاهد مصرية هى فخر دمشق اليوم ومعقد العزّ لدولة سوريا . دار الحديث ، وفيها يقوم الشيخ الزاهد محدث الشام السيد بدر الدين الحسنى ، وقد رأيناه وسمعنا حديثه فى المسجد الجامع . ودار الكتب وهى فى المدرسة الظاهرية التى بناها الظاهر بيبرس على قبره ، وقامت اليوم قماطر الكتب أغطية للضريح ، كلّ قمطر على واجهة تغطيه ، فلم أر مدفونا أفضل من الظاهر فى قبر من علم . ودار الآثار تجاهها فى المدرسة العادلية ، وهى دار ناشئة من يدخل فى القاهرة دار الآثار العربية أو دار الآثار المصرية يتصور فيلا ضخما بجانبه بعوضة صغيرة ولكن الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف السورية يملأ ماضغيه بهما فخراً وآذان سامعيه صخراً ، ولو طوّعت لى نفسى أن أجابهه بالنقد على تقصيره لفعلت فها أنذا أبلغه فى كتاب . نعم لما زرنا هيكل بعلبك وهو

فى حكومة لبنان أشبه ما ينطبق عليه مثلنا العامىّ (كالليمونة فى بلد قرفانة) وجدنا جمهورية لبنان محتفلة بهذا الهيكل أيّما احتفال حتى جعلت رسم الدخول اليه جنيهاً سورياً دفعته على ظنّ أن أرى وراء الجبل ماوراءه ، ودفعت نصفه لدليلٍ زعموا أنّ، إن لم أصحبه ضللت ، ووجدت الجند والجباة على الأبوابَ ثم دخلت وخرجت فوجدت الكراسات المطبوعة عن الهيكل بالصور والمعلومات تباع على بابه ، فكان من هذا الاحتفال وهذا الطبع تغطية لضالة ما رأيت ، واستفادة على الجملة عوض ما دفعت ، ولكنك لا ترى عن دار الآثار الدمشقيّة ، ولا عن قلعة حلب الشهيرة التى وضع المجمع العلمى يده عليها ، وهى ذات قيمة كبيرة رومانية واسلامية : لا تجد هنا ولا هناك دليلا ولا مطبوعا يفيد أو يعيد . وقلت لكرد على أفندى : كنا ننتظر منك ياسيد أن تكتب عن دمشق مكتوباً يفيد زائرها ويدلّ الغريب عنها دلالة الفائدة التاريخية فيعرف من مواضعها اليوم ما كان مشهد التاريخ بالامس ، ويعود من بلدكم مضاعف العلم بما قرأ عنه فى التاريخ والأدب . فقال الوزير : لقد وضعت خطط الشام وكفى . وخطط الشام كتاب فى التاريخ كلّ مافيه من تعب أنه قرأ وأكثر ، ثم اختار وكتب ، أما دليل دمشق الذى أقترحه فهو تحقيق علمىّ عملىّ ، لا يضعه إلا شديد القُصْرَيَيْن ، قوىٌّ أمين ، والمظنون فى هذا والأولى به كان يكون من يتصدَّر لرياسة المجمع العلمى فى دمشق ، وهو مجمعٌ أعطينا مذكّرةً عنه فاذا بأعماله كلها كلام فى كلام . واليوم يطبع تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر فى

جملة أجزاء أظنّ لو نشرت ورقاتها متلاصقة لغطّت صفحاتها مدينة دمشق بأسرها من الغوطة الى قيسون . فرد واحد يقوم بهذا المجد المتوحد لمدينة غارقة فى القدم كلما طواها الزمن نشرها ابن عساكر ، أفلا تقوم وزارة المعارف السورية بجزء من هذا المجهود تحفظ به حياة عاصمتها الحالية ؟ بل الجامع الأمويّ درّة التاريخ الاسلامى لامرشد فيه ، ولا كتاب مختصراً عنه ، ولا صور تباع ببابه ، ولا طائر ينشر له ؛ وهو فى دمشق بقبّة النّسر التى تعلوه علم من حقّه على جيرته أن يكون له معلم . إنّ دمشق أكبر من بعلبك ، وجامع أميّة أمكن من هيكل هليو بوليس فهل لدمشق ومسجدها رجل كالذى كان لبعلبك وهيكلها ؟

لعلّ السيد الألمعىّ رئيس الدولة السورية يوعز الى وزير عنده بهذا المقام

قبور الخالدين . وقصور الفانين

خلت الديار فلا حديث لسامر . فالخضراء التى اتخذ الامويّون منها جنان الخلد فى دمشق . وقصور بنى حمدان التى استبق المتنبى ومنافسوه الى ذكر أسيادها ومبانيها . ومشارف العزّ التى أقامها الرومان بحمص وقام هرقل يودّع سوريا على ذراها وداعه الذى لالقاء بعده . وبدائع الصالحية وشقائق المعرّة واللاذقيّة . والمُلك الكبير الذى تحدّث ابن بطوطة أنه شاهد مشاهده فى تلك الرقعة من أرض الله من حيفا الى حلب وما والاها

فى قلب آسيا وبلاد العرب ـ جميع تلك الآثار أتى عليها مديل الدهور وهادم الدول ، وتقلّبت بها الأيام كما يتقلّب الليل والنهار على أديم الكرة فلا بقاء لها إلا بالذكرى إن كانت تجدى ، وليتها ذكرى المواقع والمعالم ولكنها ذكرى الكتب والطروس

اليوم ترى الأرض غير الأرض . وهذه بيروت التى رآها شيخ السائحين قرية صغيرة أصبحت اليوم درّة الدولة الناهضة فى ثغور البحر الابيض ، وكانت الحرب العامة نعمة عليها مما نزل فيها من خراب . ولجمال باشا الطاغية فضل التجديد والتمدين على تلك المدينة وغيرها بما لا ينساه إلا جحود . واذا خطر ذكر جمال باشا فالسائح فى الشام لا يمكن أن يغفل هذا الاسم المدوّى به للآن ، ولعل ذلك للآثار التى أبقاها هناك وأكثرها تراه فى المدائن من شقّ الشوارع وإقامة معالم العمران مما لا يبعد معه تصديق الرواية التى يتهامس بها أهل العلم بالتاريخ ، قالوا إنّ فكرةً نبتت فى رأس جمال باشا أن يستقلّ ببلاد العرب ويتوج عليها ملكا ، وساعدت الباشا على فكرته دولة ترخص الذهب فى نيل مآربها ومن هنا كانت مشروعاته فى البلاد مشروعات من يمنّى نفسه بإرثها ويعقبه ذرّيته . ففى بئر السبع وغزّة ويافا وبيروت ودمشق وحلب رأينا بأعيننا أفخم شوارعها وأكبر ميادينها تحمل هذا الاسم . بل فى العريش نفسها وفى دار « المحافظة » بها لا يزال نصب رخامى قائم على بئر محفورة فيها مكتوب فيه بالرخام اسم جمال باشا ، والماء الذى كان يُطلع العروقَ فى خدود أهل حلب من بدء التاريخ ، جمالُ باشا هو الذى صرفه عنهم وساق

لهم غيره صافيا ، وفى بيروت رأينا الدار التى يسكنها المندوب السامي لا تكاد العين تحويها فخامة وجلالا ، وفى القدس دار المندوب السامى على سفح هضبة الزيتون دار قوراء تحكى لك حديث الف ليلة وليلة . فهذا مارأيناه وغيره مما لم نره صنعه جمال باشا القائد الهائل لجمال باشا ملك الاحلام : نعم فانّ أحلامه رؤيت باستانبول وعرف بها إخوانه الترك فارادوا أن يأخذوه أخذ عزيز مقتدر فسبقهم هو الى جعلها أضغاث أحلام وساق شباب العرب فشنقهم فى ساحة البرج ببيروت على أنهم أرادوا الفتنة والانشقاق فعاقبهم بالشنق والاعدام ، وطار حُلم ملْك العرب من رأس جمال باشا الى حين لم يطل كثيرا حتى أطار الأزمن رأسه بما حمل ، وطوى الكتاب وأسرع التاريخ خطاه الى أعماق النسيان فلا ذكر له اليوم الا كما يذكر الأموات ! وحديث جمال باشا هذا يجرّ بنا الكلام الى حديث سبقه فى طالعة الحرب حيث كانت الدولة التى ترتخص الذهب تريد أن تعيد ملك الفاطميين الى ورثة الفاطميين من بنى العرب وأن يكون سيّد القاهرة سيد العرب كلهم ؛ ولكن خصما ثالثا دخل فى الدعوى فأبطل القضية من أساسها ؛ وإن كن بعض ما يحدث فى هذه الأيام يراد به على ما يقال أن يفتح الباب لتحقيق بعض الأحلام وإخراجها الى عالم الوجود بعدما ظهر من «صقر الجزيرة» أنه نسى وكره الأول وأراد أن يستبدل به ما لا يصحّ له ولا يمكن أن يكون ، ولكل نبأ مستقر ، وسترينا الايام من أعقابها ما تبديه الأراهيص فى مبدئها والكاتب لا يسبق التاريخ ، وليس المقام للشرح والتفصيل فضمير الغيب مجهول ،

ونعود للرحلة فنقول : ان قصور الفانين عفاها البلى ولم يبق إلا قبور الخالدين ، وفى دمشق الفيحاء زرت قبر (صلاح الدين) صلاح الدين الذى انتقل له ملك الحديد أو سيّد الحرب كما كانوا يلقبون الامبراطور غليوم ، ووضع عليه إكليلا من البرونز كتب عليه الكلمة الصلبة التى لاتصهر ولا تلين ولا تبديل لها ولا تحويل (إلى الملك الحديدى) . فمن المسجد الاموىّ من بابه الشمالىّ تدخل الى قبر (صلاح الدين) بعد أن تجتاز دهليزاً وتقطع حائطاً فترى قبة صلاح الدين تحوى قبره وقبر وزيره العماد متجاورين الى الأبديّة كما تجاورا فى الفانية ، ولاتزال على قبر الوزير « تركيبته » الخشبية من صنع زمانه ؛ أما تركيبة السلطان فقد أخذها الامبراطور ووضع بدلا منها تركيبة من الرخام ، تقابل بينها وبين ماعلى العماد فكأنك تقابل بين صدارٍ من القزّ وزرد من الحديد ، فخشب الوزير أقوى وأنخم من رخام الملك ، ولا أدرى ماذا كان يجول فى خاطر الامبراطور وماذا أراد بهديته ؟ فقد أخذ تركيبة القبر الخشبية الى برلين وهى قِنية فى التاريخ غالية ، وما أعطاه من العوض لاتميّز فيه عن الحديث ، أما إكليل الامبراطور فقد أخذه الانكليز حين دخلوا فاتحين ، حسبوه غنيمة ألمانية أو عثمانية ولو ذكّروا اللورد « اللنبى » يومئذ بحديث صلاح الدين وريشارد قلب الأسد لما طوّعت له نفسه أن يجازيه عن ملكه ذاك بهذا العدوان ؟؟

وفى فناء المدفن ثلاثة قبور متجاورة راكدة أشبه بالصقور الجاثمة هى قبور الطيارين الترك الثلاثة الذين رقدوا فى سفرتهم حين أرادوا

مجاراة « فدرين » يوم طار من باريس الى القاهرة سنة ١٩١٠ فطاروا هم من استامبول وسقطوا فى دمشق فآواهم مدفن الملك الكريم وجوزوا بهذا الجوار الصالح على إقدامهم وإن كان قومهم فى اقدامهم الأخير جوزوا بالطرد والحرمان من تلك البلاد — وتذكرت حين وقفت على



« مدفن صلاح الدين »

هؤلاء العقبان بيتاً من قصيدة كنت قلتها سنة تلك المنافسة أقابل بها بين حظّ الشرق وحظّ الغرب من هذى الحياة:

« فدرين » فيهم أجدلٌ ولنا مُدَنّمة الحِداء [1]

وفى زقاق من أزقة دمشق زرنا قبر الشهيد نور الدين ، والشهيد نور الدين والسلطان صلاح الدين هما فرقدا الحروب الصليبية اللذان سطعا للاسلام وردّا عادية بطرس الراهب وما جرّته على المسلمين وما تزال تجرّه إلى يوم الدين وكانت عاقبتها حال «القبر المقدس» اليوم حيث عاد حكمه لخليفة ريشارد و (أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده)

«١» الاجدل الصقر . ودنن الطائر طار وأسرع السقوط فى مواضع متقاربة

وهناظاهرة رأيناها فى دمشق كلها ، لايتورّع أهلوها من اختطاط القبور والمساجد واتخاذها دوراً يسكنونها أو يبنون عليها وينتفعون بها، ولست أدرى أصل الوقف بها ولا ما كانت عليه فى سابق الزمان ! فقبر زنكى وقبور كثيرة ومساجد عدّة رأيناها فى دمشق كما أقول . ورأينا مساجد يدخلها الناس من أبواب البيوت وأفنيتها قد اتخذوها صحوناً للدور ؛ وساكنو هذه وتلك كأنهم القوّام يتقبّلون ما يعطى من الصدقات

وفى المقبرة القبلية [١] زرنا قبر مؤذن الإسلام سيّدنا بلال الحبشى الذى تضرب به الأمثال فى الجلد والاحتمال والضنّ بعقيدته أن ينال منها مانزل به . حتى كان أسياده يطرحونه ببطحاء مكة مقيّداً فى حرّ الظهيرة جائعاً يؤذونه بما لاتطيقه الجبال . يريدون أن يفتنوه عن دينه وهو لايزال يقول « أحد . أحد » فتصوّرته والله فى قبره رجلا جلداً بعيد المناط كأنما يبسم عن نضرة وسرور فى روضة من رياض الجنة ينعم بها على صبره و(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

وبقاع الشام أغنى البقاع بأجداث الأنبياء والشهداء والصحابة والتابعين ، ولا غرو فالشام مهد الأديان فهى بحق مثوى رجال الأديان وسبحان الباقى على الدوام

«١» هى مقبرة (الباب الصغير) وهذا ماعليه أكثر المؤرخين ولكن صاحب « الاصابة فى تمييز الصحابة » نقل بعد رواية الاكثر عن ابن منده صاحب المعرفة أنه دفن بحلب ؟ وبلال لم يؤذن بعد موت النبى ﷺ لأحد من خلفائه الا مرة خروج عمر سنة ١٧ بعد طاعون عمواس

(٣١)

اللغة والعمامة

زرت محكمة الجنايات بدمشق، ودخلت قاعة الجلسة فرأيت قضاتها الثلاثة ووكيل النيابة، وكاتب الجلسة على المنصّة، يرتدون السواد، وأمامهم فى الحوْمة جمع من المتهمين يقف بينهم شاب مطيلس بسواده يحامى عنهم، فسمعته يدافع بلسان عربىّ مبين، متّسق المنطق، بليغ الحجّة، وعيت دفاعه كلّه كأنى أسمعه فى القاهرة لا فرق بين مصرىّ وشامى، إذ ذاك طفرت فجأة الى فكرى فكرة هذه الجامعة التى يتفاهم بها ملايين من العرب على تباعد ما بينهم واختلاف أمصارهم ولهجاتهم وتعوّج ألسنتهم فى عاميّتهم، حتى كأن عاميّة كل قطر بل كل مقاطعة رطانة أعجمية على سمع الغريب عن صقع أصحابها، وأنه لولا هذا اللسان الفصيح وتلك اللغة الجامعة، لغة العربية الفصحى، لبقى أبناء العرب متقاطعين لا يفهم أحدهم أخاه ويكون العربى فى بلد أخيه العربى بدون هذا اللسان كأنه فى بلد أعجمى، فكرة بعثها فىّ محامى دمشق، فتذكرت بها أبلغ حجّة للأوائل على الأواخر، وأفضل منة تقلدها الفصحى أعناق أبنائها الحاضرين والغابرين والجائين، وتمنيت حين كنت أسمع وإذ وجدت بدفاع هذا المحامى البرهان القاطع على فائدة الفصحى ووجوب المحافظة عليها فى الخطاب والكتاب، تمنّيت أن لو كان معى الرجلان اللذان يزعم أحدهما فى مصر أنه فيلسوف ويدّعى الثانى بالعراق أنه شاعر، وهما كانا يدعوان الناس أن تكون لغة الكتابة هى اللغة العاميّة

بدلا من اللغة الفصحى التى يريدان أن تبقى على الرفّ كما بقيت اللاتينية فى رفّ شعوب الجنوب الأوربى يرجع اليها فى مصطلحات العلوم وحاجات الاختراع . فى حين فاتهم القياس وفاتهم أن اللغة الايطالية مثلا غير اللغة الفرنسوية ولكل منهما كيان مستقل ، وفى كل منهما لسان فصيح ولسان عامىّ ، وأن اللغة العربية وحدة مستقلة مثل اللغة الفرنسوية التى يعتبرونها فرعا من الأصل اللاتينى وفيها كذلك لسان فصيح ولسان عامى ، وهم باللسان الفصيح يكتبون ويخطبون ، وفيما بينهم يتفاهمون باللسان العامىّ وقت أن يكون الغناء به وحده إذا كان المتكلمون به من أبناء صقعه المحدود ، فأما لسان الفصحى الفرنسوى فهو اللسان العامّ للكتابة والخطابة لأن المكتوب للعموم فلا وجه ولا معنى للكتابة بلسان الخصوص وهو اللسان العامى ، فزاعم الفلسفة فى مصر ومدّعى الشعر فى العراق كانا يريدان تقويض العربية الفصحى وهى أداة الخطاب العام لسبعين مليون عربى بلا غرض ظاهر إلا التشبه الأعمى مع فساد القياس، ونتيجته من غير شك تفكيك أبناء العرب وجعلهم شعوبا وأمماً ، فى حين أنهم شعب واحد ، وأمة واحدة ، بلسان واحد هو اللسان الفصيح ، وأما اختلاف اللهجات واختصاص كل صقع بنطق مخصوص فمن طبيعة الصقع وتجزّؤ الجماعة وانحياز أفرادها فى حوز محدود ، وهم مع ذلك وسط محيط واحد دائرته واحدة وطابعه العامّ واحد ، ولسانه الناقل واحد ، به يحصل التفاهم العام ، وبالتفاهم العام تحيا الرابطة ، وتقوى عروة هذا المجموع ، اتصالا بلا انفصام . فليفهم ابن العرب قيمة لسانه والحفاظ

على الفصحى حين يسيح من العراق الى طنجة أو ينتقل من عدن الى حلب ، ليفهم أنّه لولا هذه الفصحى لكانت سياحته بين قومه فى هذه الرقعة الواسعة إنَّما هى سياحة الى سيبريا أو فرنسا أو الهند ، وأن لغته هى التى تجعل ما بين الموصل والدار البيضاء كأنه فى بلده لم ينتقل غريباً ، ولم ينتجع أجانب ، وما دعاء هؤلاء المُخارَفين إلا فى ضلال

***

لم تعزِّ العمامة فى عينى عزّتها حين رأيت رئيس دولة سوريا اليوم يتوّج بها رأسه

والشيخ تاج الدين الحسنىّ يعتمّ ، ولطفه فى عمامته أنه يضعها على رأسه مع أنه يلبس ثياب الفرنجة من« السترة والبنطلون » ماجبره لبس ثياب القوم فوق جسده على التزام الطربوش أو البرنيطة غطاء لرأسه ، ولا منعته العمامة وهى تاجه أن يكون ذلك الأعزّ الرفيع العماد الحاكم على رأس الدولة السورية . عزّة والله نفخت أنفى وهو يحمى دائماً لحمى العرب ، والكاتب ينتزع العظة من كل موطن يسوقها لقومه ليقول لضعاف النفوس الذين خلعوا تيجان العرب من فوق رءوسهم إن طرابيشهم وبرانيطهم لاتجلب لهم ما ليس فى رءوسهم ، كما أنّ عمامة الرئيس تاج الدين لم تُطر مافى رأسه من همّة وما يستحقّه ذلك الرأس من سعادة ، بل قل هى قوّة النفس فى صاحبها تنزع به الى المحافظة على أصله والاعتداد بأرومته وإلاّ فليقل لى أبناء مدرسة « دار العلوم » بالقاهرة من تلميذين ومعلّمين ماذا أغناهم الطربوش وما ذنب العمامة كان عندهم ؟

لا الطربوش زادهم قيمة ، ولا العمامة منعتهم تقدّما . ولـكنهم خسروا شخصيّتهم ، وانتفشوا فى غنم الحرث ، ولم يجدوا لهم داود حاكما ، ولا سليمان فاهما ، فهم الى الزوال صائرون

ونعود فنقرر لرئيس الدولة السورية مع هذه الظـاهرة العربيّة ، ما أحسسته من قوة روحه ، فقـد كنت وإخوانى معه فى مقعـد بدار الرياسة فى غرفة طولهـا عشرون متراً فى ثمانية أمتـار وكأنه من قوّته يملأ المكان كلّه ، لسان فصيح ، ونطق قوىّ ، وعزيمة ملبّسة فى مخارج الحروف ؛ فارادته تصبُّ المعنى فى أذن السامع صبّاً دافعـاً الى القلب ليشعر لهذا الرئيس بالعبقرية والنبوغ وأنّه سوّدته مواهبه فوق ما هو سيّد بوراثته ، وخليق به أن ينشد دائماً قول عامر بن الطفيل :

فما سوّدتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

الذوق عندهم

لو لم يكن أهل لبنان وسوريا بالذوق الذى فيهم ، لوجب أن يكونوا أهل ذوق بالجبلّة والمشاهدة وما تعامه طبيعة الله لهم ، فقد وهبهم البارى وطناً أبدع فى صنعه ، وأرضاً وشّاها بالرياض والغياض ، وحشاها بالنجاد والوهاد ، وفجّرها عيوناً ، وأصفى عيونها ماء ، ورقرق ماءها سلسالا . ثم خلقهم فيها فدرجوا بها صغاراً وعاشوا فيها كباراً ، فلو لم يولدوا بفطرتهم أهل ذوق لوجب أن يكتسبوا الذوق مما هم فيه وما يتكرّر لهم بالمشاهدة مدّة العمر وطول الحياة

فى نهد الجبل تنبجس عين من الماء نافرة ، على ربوة ناضرة ، وسط منظر ساحر ، هنا السهل وهنا الجبل ، والنجم والشجر ، وبدع الصانع فى خلقة المكان ، فهو كالحسناء تتلوّى بجسدها اللّدْن ، وأكفُّ النبات متعلقات بأطراف المكان ، وباسقُ الشجر طالع من ثنايا الصخر ، وعرائش الكرم تغطى السقف ، وعرائس الزهر تختال وتتبختر ، خلّ الجو وما فيه من صفاء ينجاب عنه وجه السماء ، ثم ريح عليل يهبّ على أثباج الرياحين تحمّله روحها تحيّات عطرات ، ينشقها الخلق فى تلك البقاع

ليس ما أصفه مكانا واحداً ولا أمكنة عدّة ، ولكنه صورة عامة لما شاهدناه فى جبل لبنان وما رأيناه فى بعض سوريا . ولطف ما فى الصورة أنها طبيعيّة لاصنعة فيها ولا تطرية إلاّ أن يجىء ابن آدم فيأخذ الماء من نافورته ويشقّ له القنوات على خطوط مستقيمة متوازية متقاطعة فى رقعة من أرض الله يضع عليها موائده وكراسيّه ، ثم ينتحى منها قاعة أعدّها لصنع القهوة والشاى والنرجيلة وما يحتاجه غيرى ، فترى وأنت تجلس فى هذا المقعد قوماً نظافاً ، وأجناساً لطافاً ، من رجال ونساء وأطفال وأحداث كأنهم « قِطَع الرياض كسين زهراً » ويجيئك الرجل بالقهوة مغليَةً بحبّ الهان ، والنرجيلة زاهية فى أشكل الألوان ، والماء النابع من بين أصابع الرحمن على ما خلق الرحمن مما يحكونه فى الجنان « أحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأصفى من عين الديك » فقل لى بربّك وأنت تسقى بماء الجبل ، وتشرب قهوة زبيد ، وتتعاطى نرجيلة الشام ، وعينُك لاتقع إلا على وجه سافر وزهر عاطر ، وأذنك صمّاء عن كل لاغية ،

ونسيم لبنان غاد ورائح يقلّب رئتيك ذات اليمين وذات اليسار ، وقد خلوت من الهموم وخلت عنك الهموم ، أيّ معنى هذا الذى ينبعث فى قلبك من شكر النعمة للخالق المنعم وأن تتروّح من فضله راحة السكون اليه والتمتّع بزينته التى أخرج لعباده والطيّبات من الرزق ، وأن تفهم الحياة على وجهها الصحيح راحة بال ، ونعمة حال ، وسموّاً بالنفس عن السفاسف والدنايا ، وترفعا بالذوق والحسّ الى المثل الذى تقيمه الطبيعة قدوة للحواس ليستلّ الانسان من جلده تلك العناصر المضطربة التى تشوش فيه طرق الجمال ، ثم ليخلص بطبعه الى مسايرة الطبيعة الكاملة أمامه متجليّة عن أحلى وأعلى ما يريده الانسان .

من هنا وجب أن يكون ذوق أهل الجبل وما والاهم من مناعم الشام . يوماً دعانى الخلّ الوفىّ الاستاذ داود بركات للغداء عنده فى بلدة «يحشوش» كان يوماً مؤنساً كلّه ، السيّارة التى أخذتها ظريفة ، والسائق لطيف ، واصطبحنا على وجه نهار مشرق ، ثم الرفيق كان الأخ «بركات افندى بركات » ودرجنا فى طريق لعلس الى « جونيه »على شاطىء البحر ثم صعدنا الى جبال « كسروان » وأخذ السائق يتلوّى بنا على أخاديد النجود ، ويطلع بسيّارته الثنايا ، ثم ينحدر الى منعرج الوادى وقعر الغور وهو لايلوى على شىء ، وقد سكّرت أبصارنا من سحر هذا الجمال العابق فى الأريج ، والناشر رواقه على سفوح الآكام ، ومتون الرُّبا ، ومختلف المناظر الى عريش شبهه عن روايتى « بمجلس السلطان» فى قصص السحر والجانّ . فالوادى حواليْه منخفض عنه الى قدميه ، والماء من صفحات



المؤلف امام منزل الاستاذ داود بركات والرفاق جبريل بك نقلا والشيخ الغنيمى
والاستاذ داود والدكتور حافظ بهجت

جدرانه يصبّ لؤلؤاً سائلا ولجيناً مسلسلا تلقّتها قنوات العريش مفرّعة على مجالس القاعدين وقد انبثت زرابيّها فى جوانبه ، وكنا اتّعدنا والصحب المدعوّين هذا المكان من طريق يحشوش فما هى إلاّ قهوة فى سقائها ، ونرجيلة أنزلوها تيار الماء ليخفّف عنها حرارة ما فى جوفها حتى توافى الرفاق ، واستقلّ الركب فقطع جبال كسروان الى أن لاحت « يحشوش » فى منفرج الوادى ، وبدا بينها بيتان كأنهما حمامتان سنّمتا بالمرجان ، وأهل

الجبل يسقفون دورهم بالقرميد الأحمر . والأستاذ داود فى الشام والأستاذ داود فى مصر طلْق المحيا باسم يتهلّل . فسامحتك من الحديث عنه ، ومن الحديث عن أناقة الدار ، وحسن الاختيار لمكانها ، ووفرة الذوق تجلّى فى طعامه وفى تنسيق ألوانه وتشويق خوانه ، فذلك ما كان ينتظر من « كاتب الذوق » وخذ قصتّى والآنسة لبيبة بنت أخته ، لمّا قعدنا للكلام بعد الطعام قال الاستاذ داود : الشيخ والنرجيلة ، نسينا أن نعدّها ؟ وكنت استعددت بسيكار الزنوبيا بدلها . فكففته أن يتكلّف ما لا يتعاطون ولكن — وضع كلّ ذوق هنا فى لكن — لكن الآنسة لبيبة سمعتْ كلمة خالها فانسلّت من بيننا بخفة الرشأ وما هى إلا كلمات فاذا بالعروس مقبلة كأن على يدها باقة زهر ، واذا بنرجيلة أعدّتها فتاة غسان ، وتفنّنت فيها بخيال بيتها الجميل ، وضعت على « الطاسة » زهراً أحمر مضت به صُعداً كصِعدة الهرَم الى النار التى على الحجر ، فاذا بك ترى على الطاسة هرما لست تدرى أهو زهر أم جمر ، ثم ألقت فى بلّورها ثمر « الوشنة » الطازج كأنه تفّاح صغير ، يثور بمائها فى جولة النفس مع التأليل ، وروح الزهر نشقت به النرجيلة فسرى مع دخانها ، وهى مقبلة بها فى بهجة الشباب ورونق الثياب كاللقاء بلا انتظار ، إذ ذاك اتكأت ، وسرح الخيال ، وأنا أتذكر قول الحق ﴿ ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم ﴾

الذوق عندنا وعندهم

الذوق الذى شاهدت أثره العام فى أهل لبنان وبعض بلاد سورية كان عندنا فى بلاد الريف من ربع قرن على الأكثر ثم غاب وارتحل

ندَر إذ ذاك أن تكون فى قرية بمصر الا أوتيتَ بسطةَ النفس، وانشراح الصدر، وسرور الحسّ، واهتزاز الجسد

تجلس العصر على الطريق فيملأ عينيك سربٌ غرير من صبايا القرية، خارجات يستقين الماء بجرارهن، نظاف الثياب، حسان الوجوه، ممشوقات القدود، عليهن القُمص الزرق بلون السماء، ولهنّ الوجوه الأُدم كأنها بيض الأنوق

وأفنية القرية تراها فى الرواح مملوءة بالمَراحى شيباً وشبّاناً، هؤلاء يلعبون «السيجة والدمنو» وأولئك يعبثون بالطرّة والحطب، فاذا ما صلّوا العشاء خرجوا الى الأجران فى ضوء القمر، فمضوا قطعاً من الليل فى حلو السمر، وفرجة السامر، وسماع المحدّث والشاعر، أو لعبوا الكرة «والحكشة» و«آه ياخى من ياخى» وتدخل الدور فتراها فسيحة لطيفة، وسعت أطفالها أن يمرحوا ويلعبوا، ورقّشت بطاحها وسطوحها بأصص الريحان وأحواض الزهر، حتى الفقراء يعمدون الى شليّات اللبن الفارغة أو الجرار المنكوسة يطينّونها ويزرعونها، وعندهم الحصير الأبيض، واللبد المنجّد فرشاً نظيفاً، ومقعداً جميلا. وصدور الرجال عُرى، اعشوشب فيها الشعر، وأرجلهم حافية تكلّست نعاماتها فخلقت لها

نعالا دونه جلود البقر ، وآثار الصحــــة والعافية ناطقة على الأعضاء والسواعد ، شاهدة على الوجوه والمجاسد ، وبسمة الثغر أوّل ما تلقاك كانت من ابن الريف

وفى أيام القطن تتجمّع الفئات لجنيه فئة فئة يسمونها «المئية» خليط أحداث من ذكور وإناث يترقرق ماء الحياة فى وجوههم ، وتتقام بنضرة العيش وفطرة الطبيعة ، فهم يستقبلون الشمس الى المُزدَرع ، ويولّونها فى المساء الأدبار دارجين الى البلد ، يقدمهم الزامر بأرغوله ، والناقر بدفّه ، والموقّع بطبله ، يحدو لهم أحلاهم صوتاً فيجيبونه جميعاً بإيقاع متّحد يهزُّ القلب ويثير الإحساس

مناظر ذهبت ، وخِلَق خلُقت ، ودور ضاقت ، وصدور غطّيت ، وأرجل أنعلت ، وماء الحياة نخّرته هموم الحياة وضيق العيش وأزمة الزمن فهيهات اليوم أن تجد فى الريف إلاّ مرضاً وهزالا ، وضنكا وإقلالا ، وهزيمة عامّة فى الثروة والصحة أعقبتها فجيعة يتلقاها أسَى من يزور الريف ، ويقارنه بما كان أهله عليه فى قريب الزمان

نزلنا من عالية «الأرز» الى طرابلس عن طريق حصرون وبشرّى فتلوّى بنا الطريق على حواشى الوهاد ، وسفوح الأودية ، وأثباج الكثبان بين خضرة نضرة ، وقرى عامرة ، ودور زاهرة ، حتى إذا كنّا بسقط اللّوى لاحت لنا دار فى ثغر البقاع بيضاء تزهر بريحان عليها لفوا أصصه فوقها بسموت الجدران فدارت على نواحيها الأربع ، والزهر مشرق يانع مختلف الألوان صنوان وغير صنوان ، فكأنه أهداب

العمامة منتشرة دائرة كما تراها فى لوثة ابن البلد بحىّ الحسينية ، فما إن حاذاها الاتوموبيل ، وكان منظرها قد استهوانا ، ومعنا من العلماء شيخ لطيف الحسّ والروح حتى صرخ : أن قف يا سائق ، أسقونا الماء يا أهل الدار . وهنا فاقرأ قطعة من الأدب العربى يحكيها لك الأصمعىّ إذ ضلّت له ناقة أخذ ينشدها فى الأعراب فقام له فى الصحراء خباء استسقى أهله الماء فخرجت له عجوز بسقائها تطالعه غزال من ورائها الخ . فقد مثّلت لنا القصّة بتمامها : طلعت عجوز الدار بإبريق نظيف ينزّ الماء من مسامّه على جسده اللامع فيغرى بالشرب غير الظمآن وخلف السجْف كانت الفتاة المهاة تراأى الضيفان خُبَأة طُلَعة كأن الشمس تشرق من جبينها والغصن يتأوّد على قوامها ! الموقف جميل ولكن السفر طلوب

وفى دمشق عزم علىّ الأديب المعروف لقراء المقطم بمكاتب سياسى شرقى وهو اليوم ذو منصب فى دولة سوريا ودعانى الى داره الفينانة بطريق الصالحيـة ؛ فمنذ وضعت رجلى على عتبة الباب الى غرفة الاستقبال الى قاعة الطعام فمجلس الحديث ، وأكلت ، وتكلمت ، وسمعت ، وخرجت . كنت كأنى أقرأ فى هذا الوقت قصيدة من قصائد حسّان قالها فى جلق أيام « بردى يصفّق بالرحيق السلسل » حسنة المطلع والمقطع والخاتمة من وفور الذوق فى بنائها ورُوائها والساكن بها

وتفرجت على قاعة الشمعة ، وهى فى دار رجل من تجّار اليهود بناها وزير من مئة سنة واشتراها شاريها بخمسة آلاف جنيه ، ومن يراها يستقلّ هذا الثمن فيها ، فهى مبنية بالرخام وكأنه فيها « الدنتلا » المخرّمة

جدرها على طولها كأنها رخامة واحدة ، منمنمة النقش موزونة النحت كأنما صنعوا لرقشها الأبر ، تريك باللون الظاهر والرسم البارز حدائق وجنّات ، وعسكراً وملوكا ، ووقائع ومعامع حتى ليخيّل اليك أنك وسط مشاهد قائمة ، هنا التين والرمّان والعنب والأبّ ، والفاكهة والحبّ ، وحديث التاريخ ملموس ، والسقف من ذهب ، وفى الأرض بركة نصبت فيها نافورة كلها بالرخام المجزّع المبدع ، وقد انتهزها اليهودىّ فرصة فعرض فيها تجارته من « المينا » المنزّلة بالفضة ، وآنية النحاس المفرغ ، والخشب المطعم والصينى النادر . تدخل لها من صحن الدار المشتجر بالزرع ، وفيه أبناؤه وبناته وأهل داره كأن الداخل غير غريب فهم فى مباذلهم وأثواب الخدور النهناهة القصار ، فاذا تفرجت فإمّا اشتريت ، وإمّا رأيت صندوقا من خشب للإحسان كتب عليه (صدقة للأيتام) فما تضعه فيه فلا يضيع لله ، ولا تخسره فى هذه الفرجة

ترى بيروت كالأسكندرية من قسمها الجديد على البحر ، وترى دمشق من « الميدان » كأنك فى باب الخلق ثم تنزل تحت الربع الى الغورية وقصبة رضوان ، وحلب الجديدة أشبه بمنشية البكرى إلا أنّ المنشية متربة الشوارع ، لا خطوط ولا استقامة فيها . أما جبل لبنان فهو رمل الإسكندرية بفرق جميل ، أنّ الرمل هنا متضامّ المساكن ، متلازق الدور وهو فى الجبل منتثر منتشر . ثم « وأكبر ثمّ هنا » هناك لا غبار ولا عثير ، فالعيون عيون ناظرة غنجة الأهداب والجفون ، شديدة بياض البياض ، حلوة الإنسان والحدقة

خالد ـ الخالد

ليس الشديد بالصُّرَعة إنَّما الشديد الذى يملك
نفسه عند الغضب (حديث)

لقد شهدت مئة زحف أو زُهاءها مابقى فى
بدنى شبر الآ وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ثم
أموت على فراشى هكذا كما يموت العير ؟ لانامت
أعين الجبناء (كلمة خالد وهو يحتضر)

لم أزر باريس ، ولا وقفت على قبر «الانفليد» وفيه دفنوا « سيف فرنسا » المُشطَّب ، ولكن آذانى ملأى باسم « نابليون » وما كتب عنه وقيل فيه ولقّب به من الألقاب التى مهما جوّدوها وزوّقوها ووسّعوا مداها فإنها بلا شك ولا جدال تخرُّ بصاحبها إلى الأذقان أمام تلك العظمة الحربيّة والنفس الأبيَّة الجيَّاشة بالروح السامى العالى المُشِعّ على أرجاء الإسلام بآيات النصر ، والذاهب مع الدهر الى الخلود ما بقى للمسلمين وجود ولدينهم ذكر

هنالك ، ومن أرباض حمص يشهد القادم أطراف المآذن البيض تلمع فى وهج الشمس مؤذنة بالمسجد الفخم القائم على جدث القائد الدائم ، وفى ركنه الشمالىّ المغرّب يسقط طرْف كل ماثل أمام ذلك الجسد الثاوى بالمجد ، ويتمثّل الزائر فى هذا الضريح أىّ شديد بالصراع ، وأىّ شديد فى ملك (ضبط) النفس ، وأىّ نفس كانت مهوى الأفئدة ومناط

القلوب ، وأىّ شجاع هذا الذى هدم دولتى الدنيا فى أيام الدنيا وشاد دولة الإسلام للدنيا والآخرة . بل أىّ قائد أوتى النصر ولم يعرف إلا النصرَ وأىّ طبع حربىّ وضع الخطط وابتكر الأساليب ونظم الحرب على غير مثال وعبّأ الجيوش بالابتكار وجعل حياته كلها شعلة من سراج وهّاج من المهد الى اللحد حلقات من سلسلة على مدّ العمر ما سقطت حلقة فيها ولا انطفأت فتيلة منها ، بل مضت الى ربّها تحمل عجيبته فى خليقته أَنْ كان له عبد من عباده آتاه الله الشجاعة وقذف به فى المعامع فلم تطو له راية ولا خبا له نور حتى أتاه اليقين فهدم منه ذلك الصرح الممرّد ، وهدّ منه تلك القوة المتوثبّة المتوهّجة المنتشرة فى آفاق بلاد العرب وعلى مشارف الفرس والروم . هذا الراقد « خالد » الخالد ، هنا مثوى الخلود ، وقدوة العُلا ، ومطمح الشعوب إذ ينهض بها قوادها ، وهيهات هيهات أن تلد الحوامل مثل خالد حتى ينفخ فى الصور

ختمت حياة نابليون بموقعة «واترلو» فطوى انكساره فيها صحف انتصاراته قبلها وقرن اسمه الخائب بالموقعة الخاسرة ، وقولوا فى نابليون ما تقولون فقد كان زمنه زمن الحديد والنار ، وزمن المدفع والبارود . قولوا ما شئتم فنابليون على آلاف الكتب المؤلّفة فيه ، مجالاته كانت محدودة ، ومعامعه محصورة . ونحن لا نبخسه ولكن الحظ وافقه بكتّاب درسوه فأبقوه ، ومؤلفين عاشروه فورّخوه ، وعقول فى بنى الشرق ضعفت أمام الغرب فأكبرت كلّ ما يجيء من الغرب . ولكنّ سيرى هدانى الى حمص ، ووَقف بى على القبر الذى طالما وَقفتُ على اسم صاحبه

مكبراً معظماً فتذكرت والأسى يبعث الأسى ، ترى لو كان خالد فى عصر نابليون ورُزق من الكتّاب والمؤلفين والمعلنين والمروّجين ما رزقه هذا المتأخر ، أى اسم مُدوٍّ فى الدنيا كان يبرع اسم خالد أو يفرعه ؟

ظهر خالد فى زمن الرمح والمزراق والسيف والحجفة ، وأيام البادية والجمل ، فى أمة لاحظّ لها من العلم كما حظت به فرنسا ، ولا وسائل للنقل بسكة الحديد والتلغراف وعلم الاشارة و « تكتيك » الحرب كما كان للأواخر ، ثم هو يهدم دولتين كان الدهر يسجد لعزّهما والتصريف يمضى على أمرهما والدنيا قسيمتهما أو قل الشرق والغرب بينهما ، دولتى الفرس والروم وما أدراك ما الفرس والروم وهما كانتا تليان بلاد العرب كلها وإلى ملوكهما تذهب وفود العرب يحتبون ويستغيثون . خالد هو الذى نقص أرضهما وقصّ أطرافهما وأخذت كل دولة تأرز أمامه الى عاصمتها وأخذ خالد يسوقها بسيفه الى ماقدّر لها من الفناء والبلاء ، خلع الأسوار عن دولة فارس وهبرها هبرا ثم فتح أبوابها على مصاريعها لمن يأتى بعده فلا غلق ولا باب ، وانقلب راجعا الى دولة هرقل يُغذّ السير وأمامه هرقل يُغذّ بالهزيمة حتى اذا تملكه اليأس وقف على ربض من أرباض حمص أو « الرُّهَا » وقال لسوريا كلمة الوداع التى حفظت له فى التاريخ وداعا لالقاء بعده ، فلما فعل هذه الأفاعيل وصفر له المسلمون أكاليل الغار وصارت نفوسهم فى يده كالقطْر مصهورا يُتكفؤها براحتيه كما يشاء ويذهب بها أنَّى شاء ، وترى الجماهير فيه « آله النصر » ، على تعبير المتأخرين ، أتاه أمر العزل من خليفتهم عزلا لم يقم بعده بقيادة تتكافأ و مُنّته وسابق بلائه

فى وقت لو يشاء خالد أن ينزع الخلافة من عازله لفعل . هنا برزت فى خالد خليقة الشجاعة العظمى ، الشجاعة التى فضّلها الرسول على شدة الصّراع وقوّة النزال ، شجاعة ضبط النفس عند الغضب ـ فاذا بخالد القائد جندىّ ينخرط بسيفه البتّار فى صفوف « الأفراد » ويقاتل بعيدا عن الراية وقبّة الإمارة قتال خالد الذى ضربت بشجاعته فى مظهريها الأمثال

سيف الله المسلول

من السنة التى أسلم فيها خالد سنة سبع إلى السنة التى مات فيها سنة إحدى وعشرين قلّ أن تقلّب ورقة من صحف المغازى إلا رأيت فيها اسم خالد مشرقا بالدم لامعا بالنصر

خالد الحربىّ بطبعه أو المطبوع من الحرب حتى شغف بالحرب هوى فيقول « ماليلة يهدى إلىّ فيها عروس أنا لها محبّ أو أبشر فيها بغلام ،أحبّ إلىّ من ليلة شديدة الجليد فى سريّة من المهاجرين أُصبّح بهم العدوّ » كان فى جاهليته على أعنة الخيل « قائد الفرسان » وكانت إليه فى قريش « القبّـة » تضرب فيجمعون اليها مايجهّزون به الجيش ويعين على الحرب فلما أسلم لم يلبث إلا قليلا فى صفوف الأجناد حتى رفعه النبى ﷺ إلى مرتبة القيادة وخصّه بلقب ما أعطيه أحد فى الإسلام وقال فيه حين أسلم مسرورا به (الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألاّ يسلمك إلاّ إلى خير)

وجّه النبى ﷺ جيشا وجهة الشام يصحّ أن يعدّه المؤرخ أول جيش

افتتحت به الحروب الأجنبية خارج الدائرة العربية بعد أن قويت سواعد الإسلام ، وسمّى المصطفى عليه ثلاثة من القوّاد يتعاقبون الإمارة كلما تخطّف الموت سابقاً منهم : مولاه زيداً ، وَابن عمه جعفرا ، وشاعره ابن رَوَاحه ، وكان ما قدّر ، فقوّد الجيش عليه إذ ذاك خالد بن الوليد فأخذ الراية وقاتل فى يومه قتالا شديداً ، وكان المسلمون فى ثلاثة آلاف والعدو فى مائتى الف ، مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من العرب المتنصّرة ، أى بنسبة وَاحد الى ما يقرب من سبعين بحيث لو مكّنوا منه لشربوا دم المسلمين فى أقلّ من سبعين ثانية ، ففى ثانى يوم خالف خالد ترتيب عسكره ، جعل الساقة مقدّمة والمقدّمة ساقة ، وبادل بين الميمنة والميسرة فظنّ الروم أن المدد جاء المسلمين فرعبوا ، وأخذ خالد يتقهقر بانتظام وهو يناوش العدو سبعة أيام حتى خافوا أن يجرّهم إلى الصحراء حيث يواتيه المدد فانقطع القتال ونجا خالد بجيشه ، وتسمّى هذه الموقعة غزوة «مؤتة» وقد بلغ من شدّتها أن اندقّ فى يد خالد يومئذ تسعة أسياف ، ووجد فى جسم القائد الثانى (جعفر) بضع وتسعون طعنة ورمية ، وقتل فيها قوّادها الثلاثة ، ففيها استحقّ خالد تقدير الإسلام وأخذ اللقب الذى يباهى عليه المسلمين إلى يوم القيامة ، فانّ رسول الله ﷺ اطّلع بعين الغيب على ما جرى فخطب أصحابه بالمدينة ونعى الأمراء الثلاثة لهم قال : « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » فمن هذا اليوم سمّى خالد « سيف الله »

*
* *

لو أن الله هدانا لكاتب من حملة السيوف يدرس وقائع خالد ويفهمها بعقله الحربى لأرى الخلف من خالد جوهراً فرداً هو واسطة العقد فى أبطال الحرب العالميّة غذاه النصر فى معامعه قوّة الابتكار وميزة التيقظ لم يبلد ذهنه لطارئة ولا فاتته فرصة لائحة، أجمل ما وصف به أنه « كان لاينام ولا يُنيم » ، لا يعرف الجندية آلة تسيّر ، ولكنه يراها « فرصة تنتهز » النصر غايته والخطط وسيلة اذا أوصلته الغاية لم يتقيّد بما وراءها من الأوامر العالية فى طلب غايته وإضافة الغاية إلى الغاية ثقة بشفاعة النصر فى النهاية

يفهم كلمة « الحرب » بأتمّ معناها ، ويعمل بالمعنى والمعنى لا يبالى حواشيه ، والحرب ـ كما يقولون اليوم ـ هى الحرب قد تصيب نارها البعيد عنها ، وقد تتعجل من لبس لبوسها وإن لم يكن من أبنائها فتحرقه حيث لا متّسع لتحقيق السلم فى وقت الحكم فيه للسيف ، وحبّ الغلبة والخوف من الخديعة متسلّط على المشاعر نافذ على القلوب — من سيف خالد تطاير بعض الشرر ، طيّرته طبيعة الحرب فلم يرو لنا أن النبى ﷺ آخذ خالداً على ماليس بملكه ولكنه برىء الى الله ثلاثا مما صنع خالد[١] وأرسل ابن عمه علياً بمال فودى دماء من أصيب وما تلف من أموالهم حتى أنه ليدى ميلغة الكلب ، حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال ، بقيت معه بقيّة من المال ، فقال لهم علىّ كرم الله وجهه حين فرغ منهم : هل بقى لكم دم أو مال لم يود اليكم ؟ قالوا : لا . قال : فإنى أعطيكم هذه البقيّة من هذا

---

(١) حديث بنى جَذيمة فى فتح مكة

المال احتياطا لرسول الله مما لايعلم ولا تعلمون ، ثم رجع الى النبيّ وأخبره الخبر فقال أصبت وأحسنت اه [١]

وفى حروب الردّة وقد تولّى خالد قيادتها أيام أبى بكر فردّ العرب على أعقابهم إلى الإسلام وقتل مُسيَلْمة وهزم طلحة وفرّت منه سَجاح، فى نار هذه الحرب قُتل نفر رأى عمر أن خالداً قتلهم بلا حق واشتدّ عليه فغضب له أبو بكر وقال لعمر : (ارفع لسانك عن خالد فانى لا أَشيم سيفاً سلّه الله) ثم ودى مالكاً بن نويرة القتيل من بيت المال ، وهو يرى خالداً تأوّل فأخطأ لا غير

***

لما زرنا المسجد الأمويّ بدمشق رأينا بابه من جهة الشرق على شكل أبواب المساجد ،أما بابه الغربىّ فإنّه لايزال باب كنيسة بطرازه الأوّل قال المؤرخون : إن خالداً دخل دمشق بالسيف حرباً من ثنيّة قيسون أما أبو عبيدة فدخلها صلحاً من باب الجابية ،فالتقيا معاً فى وسط المسجد فما دخله المسلمون حرباً احتازوه مسجداً ، وما دخلوه صلحا أبقوه لأهله فبقى كنيسة ، إلى أن جاء الوليد بن عبد الملك وأراد جعله كلّه مسجداً ففعل ثم عوّضهم عمر بن عبدالعزيز عن نصيبهم كنيسة أخرى. كذلك خالد فى فتح مكة أمره النبي أن يدخلها من كُدَى بأسفلها ، ودخلها هو من كِداء ، فأما جيش النبي فلم يصادف مانعاً وأما خالد فدخلها محاربا

(١) ليتدبر هذا العمل السامى في السياسة وفى الحكومة والعدالة والرحمة الذين يفتنهم الغرب ويستهويهم بزخرفه

مقاتلاً كأنّ الحرب مكتوب على سيفه أو كأنّ طبعه الحربىّ يغلبه فلا يعرف غير السيف ، وفى « قنّسرين » وهى آخر حروبه فى الشام وقعت مقتلة لم يقتل الروم مثلها إذ كان قائدهم « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل ، فلما قتل القائد ماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد ، وتحصّن أهلها فهدّدهم خالد فتشاوروا وطلبوا منه الصلح على ماصالح عليه حمص فأبى إلا على إخراب المدينة إذ كان بقاؤها محصّنة وهى على الثغر مما يهدّد الإسلام فأخربها وكان بها خُنوس هرقل على وجه الزمان

بعض حركاته الحربية

لقد طلبت القتل مظانّه فلم يقدّر لى إلاّ أن أموت على فراشى ، وما من عملى شىء أرجى عندى بعد « لا إله إلا الله » من ليلة بتّها وأنا متترّس والسماء تهلّنى بمطر إلى صبح حتى نغير على الكفّار « خالد »

نحن قريب من الحرب الكبرى وطالما وردت علينا أسماء الحركات العسكرية التى لعبها القوّاد فيها ، وأنا رجل قد انغمس قلمه فى تاريخ « خالد العربى » وتأثرت روحى بمطالعاتى عنه ومطالعة روحه فى قبره ، فلربّما ظنّ المريب عصبيّة بى أو حطّا مع الشرقية والإسلام ، لذلك بدأت مقالى اليوم بتحدّ عامّ لكل كاتب مؤرّخ أن يذكر لى قصة أو أقصوصة عن قائد دار اسمه فى هذه الحرب أو جرى على الألسنة قبل تاريخها من حين العهد بتدوين التاريخ أمكنته القدرة من حركة عسكرية كحركة

« التقهقر بانتظام » التى وضعها خالد « سيف الله » فيما قصصناه بالأمس عن « غزوة مؤتة » فأنقذ بها جيشا مجاعدته ثلاثة آلاف غير من هلك فى الموقعة بقيادة الأمراء الثلاثة قبله أنقذه من عدوّ مدافع فى عقر داره مطبق بقوّتين عدة كل قوة منهما مئة ألف ، فيبدأ اللعبة بتغيير مواقف جيشه إيهاما للعدوّ أن مددا وصله ثم يظلّ سبعة أيام يناوش هذا العدد الهائل وهو ينحاز الى « مؤتة » ويتخلّص من بين هذه المخالب الناشبة بشرف و كرامة الى أن ينقطع القتال وينجو نهائيا بجيشه الصغير ويعود سالما الى وطنه بالمدينة

ومن عجيب أمر الشعوب وتشابهها فى عواطف الحماسة من القدم أن شعب المدينة قابل جيش خالد فى عودته بمظاهرة عدائية على ظنّ أنه عاد منهزما ، وجعل الناس يحثُون على الجيش التراب ، ويهتفون (يافرّار فى سبيل الله) حتى تأثر بعضهم (سلمة بن هشام بن المغيرة) فقعد فى داره لايخرج للصلاة من كلام الناس ، ولكن القائد الأعلى والسيّد الأعظم سيّدنا النبيّ عليه السلام هو الذى ردّ عادية القوم عنهم ، وقال (ليسوا بالفرّار ولكنهم الكرّار إن شاء الله) وأراهم أن ذلك من مكايد الحرب وأثنى على خالد فى مهارته

وفى موقعة أحد التى انهزم المسلمون فيها كان سبب الهزيمة حركة « لفّ ودوران » نظمها خالد وكان مشركا إذ ذاك مع قريش ، فان النبي ﷺ وقف جيشه مسنود الظهر الى جبل أحد ، وأمرهم ألاّ يبرحوا أمكنتهم مهما تكن النتيجة ، فلما حمل المسلمون على المشركين تقهقروا فاتّبعهم

المسلمون ينهبون ، ورأى الرماة ذلك فتركوا مواقفهم للمشاركة فى الغنيمة وكان خالد يرقبهم إذ ذاك فانقضّ على من بقى من الرماة يقتلهم ، وأتى المسلمين من ورائهم فكانت الهزيمة التى أنّبهم عليها القرآن كثيراً .
ومنها كان الدرس المفيد الذى تعلّموه بعدُ : ألاّ ينهزموا — وهذه ميزة خالد فى مواقفه كلّها أن يتصيد الغفلة من عدوّه ثم ينتهز فرصتها بأسرع وقت وأكبر فائدة ، وله من عقله الحاضر ، وبديهته المواتية ، وتجربته الناجحة أعظم عون وأقوى مدد ، وفى تاريخه الحربىّ أمثلة نادرة على يقظته وإحاطته التامّة بحركات عدّوه أطرفها « على ما أعلم » كان فى فتح دمشق ، فان خالداً لمّا كان مع أبى عبيدة على حصار دمشق ترك الأعداء ليلة مواقفهم على الأسوار لوليمة أعدّها لهم البطريق ؛ فلم يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا خالد بن الوليد فإنه كان لاينام ولا ينيم . ولما وقف على جليّة الأمر تقدم بنفسه مع نفر من ثقاته إلى السور وصعد الى أعلاه بالسلاليم وكبّر وكبّروا واقتحموا الباب ففتح لهم وكان النصر
يقول الفرنسويون (الأكل يجر الأكل) وفى هذا المقام يصحّ تغيير المثل (النصر يجرّ النصر) فان راية خالد التى لم تطو فى حروبه جرّأته على الأهوال وخوض اللجج وأرته الجرأة أن نتيجتها النصر فقطف من جناها إكليلا اختصّ به رأسه حين لايقطف الجبان ولا المتردّد إلاّ شوكا يشيك به قلبه وجسده ، ومن كان النصر عادته صارت الحرب فى يده ، يبتكر لها ويضع بسيفه خططها ، وتواتيه حيلها من طبعه الذى تطبّعه فى ميادينها ، لينال على هون مالا يدركه غيره بشدّة

وسأقصّ خبره فى واقعة اليرموك ليستخرج القارىء منه أربع عظائم هنّ أبكار خالد لم يطمثهن أحد قبله ، ولا ركبهنّ أحد بعده الى الآن

ورد الأمر من أبى بكر إلى خالد وكان على جيوش العراق أن يعين المسلمين بالشام ، فتلمّس طريقاً يخرج فيه من وراء جموع الروم لا يستقبلهم فيحبسونه عن غياث المسلمين . فكلٌّ مستشاريه قال : لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش ، إنما يأخذه الفذّ الراكب فإياك أن تغرر بالمسلمين : فعزم هو على هذا الطريق ، وهوّن الصعب فيه اغتنامه للوقت وأن يخرج من خلف العدو ، وخطب فيهم خطبة شديدة قال فيها « إنّ المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له » فقالوا له : أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك ، وطابقوه واشتهوا مثل الذى اشتهى . فأمرهم أن يملأوا الروايا لخمس ، وأن يظمىء كل قائد خيل إبلا جلالا ثم يسقيها عللا بعد نهل ، وصرّوا آذان الأبل وربطوا مشافرها فلا تجترّ ، ثم اعتسف البلاد إلى المفاوز حتى إذا ساروا يوماً افتظّوا لكل عدّة من الخيل عشراً من الإبل فمزجوا ما فى كروشها بما كان فيها من الألبان وسقوا الخيل ، وشربوا هم للشفة جرعا . أربعة أيام قطعوا فيها هذا الطريق الوعر من الحيرة بالعراق إلى اليرموك فى الشام . وكان جيشه تسعة آلاف وصل مدداً للمسلمين وهم سبعة وعشرون ألفاً منقسمين على ألويه أربعة لكل لواء أمير لا تجمعه بأخيه جامعة ، والروم إذ ذاك مئتان وأربعون ألفاً فى قيادة واحدة . رأى خالد هذا التفرق فى القيادة ، والقلّة فى العدد ، والبعد عن الدار فابتكر فى الحال فكرة « توحيد القيادة » ولكى يدخل

بها على عقول زملائه جعلها قيادة متنقلة ، يتولى الأمير الواحد قيادة الجيوش الخمسة يوماً ويوماً سواه وناشدهم أن يبدءوه بها . وفى يومه الأول لم يثن إلى غده ، فقد كانت فيه الموقعة الفاصلة . عبأ جيشه تعبئة يقول المؤرخون إن العرب لم تعبئها من قبل ، جعل جيشه كراديس كل كردوس حوالى ألف ، ونشره صفاً أمام العدو المتراص ليملأ أعينهم بوهم التساوى فى العدد ، ثم حمل حملته القاضية فكانت الهزيمة الكبرى ، وكان فيها الذكر الدائم لخالد باختراق الصحراء المدهش . وتوحيد القيادة البكر . وتعبئة الكراديس المبتدعة . أما عجيبة النفس فهى فيما سيجىء

أخذه بـ « اللامركزية »

خالد فى الذروة من قريش ، سيد بنى مخزوم ريحانة العرب ، وقائد الفرسان وصاحب القبة فى الجاهلية ، والذى سار النصر فى ركابه طول أيامه ، كان أبوه والنبى ﷺ وعم النبى العباس بن عبد المطلب ، عدلاء هم أزواج بنات الحارث بن حرب ، أوتى بسطة فى العقل والجسم ، وهو فى خلقته شبيه عمر بن الخطاب[1] حتى ليختلف الناس فيهما ، وما أدراك ماخلقة عمر تخط رجلاه الأرض وهو راكب ، قود فى الجاهلية وقود فى الاسلام وسماه النبى سيف الله وقال فيه (خالد سيف من سيوف الله ،

---

(١) فى الأغانى : كان عمر يشبه بخالد بن الوليد وذلك أن أمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم اه . وكان من يرى عمر يظنه خالدا من قبل أن أم عمر هى بنت عم خالد فكأنه خاله ج ١٥ ص ٥٦

نعم فتى العشيرة) . الثبْت الذى لم يزلّ ، والقائد الذى لم يفلّ ، والمجرّب المدرّب ، البهْمَة ، اليقظ الذى أسلمته آراؤه وأفكاره وأعماله وخططه إلى صواب دائماً وظفر أبداً ، وهو فى عزة النفس وسموّ المحتد وبلاء العمل وخدمة الاسلام بالمكانة التى أعجب بها المصطفى وقال يوم ورد هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة يسلمون : (رمتكم مكة بأفلاذ كبدها) ، ابن الوليد بن المغيرة الكيّاد العنّاد فى مشاقة الاسلام بكبْر من الأمر نزل فيه القرآن ، حتى كان من جلالة خالد فى المسلمين أن يجاملوه فى أبيه فلا يذكرون بحضرته ما يغيظه . وهو فى نفسه مع هذا مخلص لايتشكك فى إخلاصه يعمل لمصلحة الإسلام على قدم المساواة مع خدّام الإسلام بميزة ظاهرة ميّزته فى غزواته أنه شاهد يرى مالايراه الغائب ؛ وكلٌّ يرمى لغاية واحدة فلا عليه هو أن يصل لها من الطريق الذى يوصّله أقرب الطرق . لذلك لم يكن عجيباً وأمره هذا ، أن يعتدّ بنفسه فى إمارته ، وأن يقول فيها « باللامركزية » لايتقيّد بالأوامر كثيراً ولايقف على حدود الألفاظ خيفة أن تفوته المعانى . لمّا توجه إلى قتال المرتدّين من العرب قرّر له الخليفة أبو بكر خطة السير ، فلما أراد خالد قصد « البطاح » تخلّفت عنه الأنصار وقالوا : قد عهد الينا الخليفة ان نحن فرغنا من (بُزاخة) أن نقيم حتى يأتينا أمره ، فقال خالد : قد عهد إلىّ أن أمضى وأنا الأمير ، ولو لم يأت إلىّ كتاب بما رأيته فرصة ، وكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر وليس فيه منه عهد لم ندع أن نرى أفضل مايحضرنا ثم نعمل . فأنا قاصد البطاح ، وسار فلم ير الأنصار

أن يتركوه وساروا وراءه . قال الزبير بن بكّار : كان خالد اذا صار إليه المال قسمه فى أهل الغنائم ولم يرفع إلى أبى بكر حساباً ، وكان فيه تقدّم على أبى بكر يفعل أشياء لا يراها أبو بكر فيعاتبه ويعالجها ولا يرى أن يعزله . ولقد بلغ من اعتزازه بنفسه أن ترك الجيش فى العراق بعد موقعة «الفراض» ليحجّ بدون إذن من الخليفة، نعم إنه احتاط لحجّه أتم الحيطة محافظةً على الطريق واعتسف الطريق اعتساف الشجاعة المألوفة من خالد فإنّه إذ أمر الجيش بالرجوع إلى الحيرة ، أظهر أنه فى الساقة وكتم حجّه فلم يعلم به إلا من أفضى اليه ، وخرج لخمس بقين من ذى الحجة وسار فى طريق من طرق الجزيرة : صعب ، وعر ، لا يركبه دليل ولا رئبال ، وكانت غيبته يسيرة حتى ما توافى الى الحيرة آخر الجيش حتى وافاهم خالد وصاحب الساقة اليها ، ولما علم بهذا أبو بكر عاتبه عليه عتاب المعجب المكبر فى كتاب يصح أن يكون « تقليداً » برتبة أو نيشان ، وظل خالد على نزعته هذه « اللامركزية » الى أن شدَّد عمر النكير عليها وأشار على أبى بكر أن يكتب اليه يقفه عند حدّه فلا يقضى شيئاً إلا بأمر فلما أجابه ردّ خالد عليه (اما أن تدعنى وعملى، وإلاّ فشأنك بعملك) وكانت مشورة عمر تقضى بعزله ، قال أبو بكر : فمن يجزى عنى جزاء خالد؟ قال عمر : أنا. قال فأنت . فشت الصحابة إلى أبى بكر يقولون ماشأن عمر يخرج وأنت محتاج اليه ، وما بالك عزلت خالداً وقد كفاك ؟ وكانت ضجّة ثم استقرّ الرأى على بقاء كلّ فى عمله إلى أن ولى عمر

حسبُ خالد فى الاسلام ـ على استبداده برأيه ـ ألا يكون أحد

يغني غناءه فيه غير عمر ، عمر الذي ولي الخلافة بعد أبي بكر ، وفي هذا الحديث ، يدرك القارىء منه من هو خالد الذي نكتب فيه

خالد وعمر ـ تحليل نفسي

ليعلم القارىء أن خالداً بلغ مرتبة يصحّ أن يعدّه الناس فيها « ملكا غير متوّج » فإنّ هذا القائد من نسب المجد الى حدّ أن روَى المؤرخون أن قريشاً كانت تؤرخ بوفاة أبيه أو عمه (هشام بن المغيرة) لإعظامها إياه سبع سنين إلى أن كانت السنة التي بنوا فيها الكعبة فأرخوا بها ، وهو من علامت في جاهليته «قائد الفرسان وصاحب القبّة» فلمّا أسلم لم يكتمل الحول عليه حتى نال من رسول الله لقب « سيف الله » وما بلغ الثلاثين من عمره وكان قد رآه النبي ﷺ متدلّياً يوماً من هرْشى « طريق » حتى قال فيه (نعم الرجل خالد بن الوليد) ثم ولاّه أبو بكر في خلافته قيادة الجيوش العامّة ونوّله سيفُه في قيادته انتصارات هائلة جعلت الخليفة نفسه لا يسمع فيه مقالاً لقائل ، ولازمه يُمْن الطالع فمكّن الثقة به في نفوس الجماهير ثقة أحسّها خالد وهو يعدّ في عنفوان الشباب « دون الأربعين » فوثق بنفسه ثقة لم تك بالعمياء ولكن مضت به إلى الاعتداد برأيه حتى ليقول للخليفة (اما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك بعملك) .

ولما استقدمه أبو بكر للتحقيق معه في قتل متمّم بن نوَيرة بمشورة عمر كان عمر يعتقد إدانته حتى لا يبرَأ من التهمة ودفعته عقيدته الى أن يتلق خالداً وهو يدخل المسجد وقد غرَزَ في عمامته « ريشة القيادة » فينزعها

عمر ويحطمها ويسمعه كلاماً لا يلتفت خالد اليه يظُنّ أن رأى أبى بكر مثل رأيه ، حتى اذا بسط الأمر للخليفة يعذُره ويتجاوز عنه ما كان فى حروبه تلك ويخرُج خالد ظافراً فيسمع عمر كلمة المنتصر ، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضىَ عنه فلم يكلمه ودخل بيته ، وحقاً كان تيه أبى بكر بخالد ، فإنه « سيف الله » ولا يرى أن يشيم « يغمد » سيفاسلّه الله ، فأعمله للإسلام واعتزّ به حتى كتب له « لم يشْجُ (يقهر) الجموع بعون الله شجوك ، ولم ينزع الشَّجا من الناس نزعك . فليهنئك أبا سليمان النيّة والحظوة الخ » . هذه الفتوة فى خالد من الناس ، والنصر المواتى سيف خالد ، وما ينفح الخليفة به خالداً ، وتيامن الناس وركونهم إلى خالد ، جعلت نفس خالد فى منزلة علت على بعض التقاليد وأغضت به عن اتّباعها فإن خالداً بعد موقعة البطاح تزوّج أم تميم ابنة المنهال ، وكانت العرب تكره النساء فى الحرب وتعيّره . ولما فرغ من أمر مسيلمة الكذّاب وقتل عليه ٢١ الفاً منهم ٧ آلاف فى « حديقة الموت » طلب الى مَجاعة بن مَرارة وهو بقيّة سادتهم أن يزوّجه ابنته فقال له مجاعة : مهلا فإنك قاطع ظهرى وظهرك معي عند صاحبك « الخليفة » فأبى إلا أن يزوّجه فزوّجه وورد عليه عتاب أبى بكر فى كتاب لما نظره خالد جعل يقول (هذا عمل الأعيسر) يعنى عمر بن الخطاب لأن سيّدنا عمر كان أعسر ، الى أمثال هذه النزوات الدّالة على القوّة فى الدولة ، وهو قوىّ متين فى نفسه وفى سيفه فلا ريب تولّى عمر وهو يرى أن افتتان الناس بخالد قد نضج ، وكانت لعمر نظرات يرى بها بعض الأمر من غير ما يراه أبو بكر ،

وقد وقع لى فى أثناء هذه الكتابة مثل منها يدل على سعة العقل عند هؤلاء القوم الذين أخرجهم الإسلام من ظلمة البداوة إلى نور الحضارة حتى ليقرأ القارئ عنهم آراءهم فيحسبه يتلو صحف الغرب التى دوّنت اليوم عصارة المدنية بآراء أصحابها المتلقّين دماءها من طبقات وبطون فى بحور الاجتماع وحضارة التمدين . كان أبو بكر يقول « لا أستعمل أهل بدر (الموقعة التى انتصر الإسلام فيها أول ظهوره) ، أدعهم حتى يلقوا الله بأحسن أعمالهم فان الله يدفع بهم وبالصلحاء من الأمم أكثر وأفضل مما ينتصر بهم » . وكان عمر يقول : والله لأشركنّهم وليؤاسنّنى . فترى أبا بكر سار على شبه (قانون معافاة العربان من القرعة اليوم) لأنه حفظ الجميل السابق لأهل بدر فلم ير تكليفهم بعد جميلهم الأول شيئا . وترى عمر سار على شبه (الدستور الحالى) فرأى الجميع متساوين فى الحق والواجب فأشرك أهل بدر معه وأن يؤاسوه ولا يعفيهم القديم من عمل الجديد . وكان أبو بكر لا يَقيد من عمّاله ولا وَزعته ولذلك ردّ على عمر فيما أتاه خالد من قتل متمّم بن نويرة فى حروب الردّة يقول (هبه يا عمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد) وودى مالكا (أى من بيت المال) وعذّر خالداً بعد أن سمع منه الخبر . وكان عمر يقتص من عمّاله وخطب فى الناس يقول (يا أيها الناس إنى والله ما أرسل اليكم عمّالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنّى أرسلهم ليعلّموكم دينكم وسنّتكم فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلىَّ فوالذى نفس عمر بيده لاقصنّه منه) فوثب اليه عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إن كان رجل من أمراء

المسلمين على رعية فأدَّب بعض رعيته إنك لتُقصّه منه ؟ قال : إى والذى نفس عمر بيده إذاً لأقصنَّه منه ، وكيف لا أقصنّه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقصّ من نفسه ، ألا لاتضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولاتجمّروهم فتفتنوهم ، ولاتمنعوهم حقوقهم فتكفّروهم ، ولاتنزلوهم الغياض فتضيّعوهم) ورأى أُبى بكر يتمشّى الآن مع النظـام الفرنسى ، ورأى عمر يتمشى مع النظام الانجليزى ، الأول يتحمّل عمـل الوالى بفرض خطئه فى سبيل المصلحة الاجتماعية ، والثانى يفرض الوالى كاملا ولّى العمل بكماله لمصلحة المجتمع فما نقص منه فتبعة شخصية يتحمّل مسئوليتها الى آخر الأمثال مما لا يظنّ القارىء معه أن رأى عمر فى خالدعن دخل فى النفس بل هو الرأى الصالح عن عقيدة الصلاح . . . أولا ترى عمر صنع مع ابنه عبد الله أكثر من هذا ؟ لقد كان عبدالله ابنه وأخوه زيدفى حروب الردّة بقيادة خالدفقتل زيد شهيداً فلما رجع المسلمون وفيهم عبد الله قال له عمر إذرآه ماجاء بك وقد هلك زيد ؟ ألاواريَت وجهك عنّى ؟ألاهلَـكْتَ قبل زيد ؟ هلَكَ زيد وأنت حىّ ؟ فقال : حرَصْت على ذلك أن يكون ولكن نفسى تأخّرت ، وسأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلىّ فلم أعطَها : وحديثه مع ابنه الآخرومع أزواجه لايدع مجالا لتخرّصات بعض المؤرخين أن تزِنَ نفس عمر بريبة كيف وهو فاروق الحق من الباطل ؟ كيف وهو وخالد قدكـذّبا كلّ من ظنّ فى هذه النفوس العظام هوى اللَّدد والخصام وابتغاء الفانى من الحطام ، إذاً فنظرة عمر نظرة إصلاحيّة عميقه فى الاجتماع ، عالية عن وسوسة النفس وميل الأنويّة علوّ عمر على

بنى الإسلام- على أن عمر كان يعاود خالداً بأن يعمل له فيأبى إلا أن يخلّيه يفعل ما يشاء (كرأيه اللامركزى) فيأبى عمر (كرأيه المركزى) ولكلّ وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات استباق أسلافكم الأخيار

عمر وخالد

كيف يختلف العظماء - صفحة من مجد الاسلام

عمر الضخم الذى أعزّ الله به الإسلام ونزل القرآن على رأيه فى عدّة مواضع ، المؤمن الملاك الذى إن سلك طريقاً لايسلكه الشيطان ، والبشر الجوهر الذى لو أراد بنو البشر أن يقيموا تمثالاً للحق الخالص لما عدوْا به شخص عمر الإخلاص . لما أن ولى الخلافة كان من لوازم الطبيعة ألا يأتلف وخالدا فى قرن : شخصيتان عظيمتان لكلّ وجهة هو مولّيها لاعجب أن يحوى سلك الحكومة أحدهما دون الآخر

(١) كان خالد يقول باللامركزية وعمر يقول بالمركزية وخالد مبرّرات رأيه التى سقناها ، وعمر ان قال بالمركزية فانه يقول ويقدّر ما يقول : ويقدْر على تنفيذ مايقول بجميع معانى الكلمة وفيها عناصر العدل والحق والمصلحة فهو الخليفة الفرد الملبّس جسده كله بعيون مكان مسامّ البشرة ، حتى يكاد وهو فى مركز الحكم تكون عينه واقعة على كلّ وال من ولاته بعُد أو قَرُب ، بل يعتقد رعيّته فيه أن عينه لابدّ ترى كلّ فرد منهم وعليه أن يتامس فى الفرد حاجته يقضيها ويسدّ مكان الخلّة منه ، كان لا يخفى عليه شىء من عمل عمّاله ، وكل ما فى دائرة ملكه مرفوع

اليه ، وله عامل خاص « محمد بن مسلمة » هو صاحب العمال (مفتش داخلية) الذى يقتص آثار من شكى منهم ويبحث كل شكوى ترفع فى أمير ، وليست المسألة فى السر من شأنهم إذ ذاك بل التحقيق جهرى والبحث علانية ، والحق مضمون من أيسر طرق الوصول

(٢) كان خالد « رجل حرب » يرى النصر غاية فلا يلتفت فى سبيلها إلى ما قد ينشأ عن طبيعة الوسيلة وعلى خزانة الدولة أن تعوّض على الفرد ما يصيبه من ضرر فى سبيل الدولة ، أما عمر فكان « رجل حقّ » يتحرّج للحقّ فى كل موطن ولا يعرف وسيلة ولا غاية ينشأ عنها غمط للحق ، ولا يُهمل كبيراً أو صغيراً يدوس الحق ، ولا يبرّر الظلم عنده أىّ مبرّر ، فهو يؤاخذ فى الحقّ بالحقّ ولا يلتفت الى ما عدا الحقّ . من هذين الوجهين اختلف نظر الرجلين ، وكان عمر يقع فى خالد لهذا أيام أبى بكر ويرى مؤاخذته بالحساب على عمله فى ولايته : ويشدّد فى التحقيق عمّا وقع منه أثناء الحرب ، حتى اشتدّ مع أبى بكر يطلب عزله

(٣) وفى زمن النبي ﷺ لم تكن هناك شخصيّة كائنة ما كانت تطمع فى الظهور أو يخشى من ظهورها ، فلمّا ولى أبو بكر ورأى غرام الجنود بخالد وتفانيها بين يديه ، وجّه هذا الغرام وجهة استفادة الاسلام منه ، فأخذ يقذف بخالد فى كل عظيمة ، ويراه أهلا لفتح ما يستغلق ، حمَّله ثقل الإسلام ، ووله بجلالة خالد فى جيشه حتى أنه حين رأى ضغط الروم بالشام عقب انهزام ابن سعيد قال (والله لأنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد) وكتب له بالسير إلى الشام بعد أن أراه فى كتابه منزلته

في الناس وأنه لا ينزع الشَّجا منهم نزعك (فليهنك أبا سليمان النية والحظوة فأتم يتمّمْ الله لك) . أما عمر فنظر الى هذا الغرام نظرة اجتماعية أخرى رأى الناس عظّموه فخشى أن يوكلوا اليه، وهو يريد منهم التربية الاستقلالية أى أن يكون من كل مسلم خالد نفسه ، بحيث يقوم فى الفرد منهم شجاع مستقلّ بنفسه يقْدُم على المواطن ولو لم يكن خالد معه ، وقد صرح عمر بهذا الرأى لما عزل القائد الهمام (المثنّى بن حارثة) وكان المصلّى بعد خالد ، وبهما كانت السطوة والبسطة واليهما كان الانقياد والطاعة والتهالك على الخطر . قال عمر : (انى لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظّموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما) وهى نظرة عالية جداً فى تربية الشعوب خصوصاً الشعوب الفتيّة التى يريد بُناتها أن يقيموها على المبادىء ، لا الأشخاص

من هنا كان الخلاف ، وهنا نحدّث عن عظمة العرب ، وأشِدْ بتربية المسلمين الأولين وآثارها الجلّى التى غيّرت وجه الأرض فى زمن لم يجئْ بمثل سرعته التاريخ ، أما خالد فقد برزت خليقة الشجاعة فيه فهو يملك نفسه عند الغضب فينزل على طاعة عمر ، لايحدث له هرجا ، ولا يفتح له فتقاً ، ولا يشاقه أو يناوئه كأنه ليس بخالد فتى الحرب ورجل النزال ، بل يملك عليه الإسلام لبّه حتى يقول حين بلغته ولاية عمر (الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحبَّ إلىَّ من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلىَّ [1] من أبى بكر ثم ألزمنى حبّه) حتى اذا أدركه

---

(١) يظهر أن بغض خالد لعمر كان من حملات هذا عليه ومصادمته له فى زمن أبى بكر وكان عمر منه بمنزلة (المستشار الأول للدولة) ويخيل إلىّ أن

الموت أوصى عمر بنيه ـ وهذا أروع ما روى عن ضبط النفس خصوصاً عن رجل مثل خالد مع خصمه العظيم ـ وأما عمر فقد نزعت به طبيعة الحقّ الى أن يشيد بخالد، ويعظم حقه؛ وينشر ذكره بل كتب منشوراً عامّاً إلى الأمصار كلّها يعلمهم فيه بمكانة خالد ومنّته ويعتذر بالسبب الاجتماعى الهام فى عزله، لا سخطة عليه ولا حطّاً منه ولا خيانة به ثم يتلقاه فى المدينة تلقّى الفاتح؛ حتى اذا مات خالد أغضى عمر فى مأتمه عمّا كان لا يغضى فى سواه؛ فإن خالداً لما مات لم تبقَ امرأة من بنى المغيرة إلا وضعت لِمّتها على قبره (يعنى حلقت رأسها ووضعت شعرها على قبره) فقال عمر: ما على نساء آل الوليد أن يسفحْن على خالد دموعهن... الخ

ولسنا نتعرض لأمثلة كثيرة من آثار هاتين العظيمتين فى هذين العظيمين إلا بمثلين يتجلى فيهما مجد الإسلام وعظمة رجاله ويُدرِك منهما أبناء الإسلام وهم أشبه شيء بالغرباء عنه الآن أىَّ تراث فى قبور الجدود وكنز لا يفنَى من سير الأسلاف

(١) بينما كانت معركة «اليرموك» دائرة بقيادة خالد قدم البريد من المدينة فاخذته الخيل وسألوه الخبر فلم يخبرهم الاّ بسلامة؛ وإلاّ بمدد وراءه موافيهم، وهو إنما جاء بموت أبى بكر وتأمير أبى عبيدة وعزل خالد، فابلغوه خالدا؛ فأسرَّ اليه الذى جاء به، وأعلمه الذى قاله للجند، قال خالد: أحسنْت فقِفْ، وأخذ الكتاب وجعله فى كنانته،

خالداً امتدّ به ظنّه الى تحميل عمر ماكان يرده من عتاب أبى بكر وإن لم يظهر عمر فيه كما رأيت فى كتاب الخليفة له عند زواجه ابنة مجاعة بن مرارة

وخاف إن هو ظهر أن ينتشر الأمر على المسلمين حتى تمّ النصر لهم
عُزِلَ خالد من الإمارة وتولّى أبو عبيدة القيادة العامّة، بل قل
مات أبو بكر حبيب خالد وتولّى عمر مناوئه ، أفتدْرِى الذى كان من
خالد؟؟ إنّه انخرط جنديًا محاربا تحت إمرة أبى عبيدة ، لاغضب ولا
حرد ولكنه الجهاد فى سبيل الله ، وحرب النفس والشيطان ، حتى إذا
فتحَ خالد قنّسرين وهو تحت الإمرة أيضا ، بلغ عمر صنيعه . أفتدرى
الذى كان من عمر ؟ لم يحسِد ولم ينفس ولم يشْتدّ ولم يزبد بل قال منشرحا
مسرورا (أمّرَ خالد نفسه ، يرحَم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منّى الخ)

(ب) والمثل الثانى يزيد فى دلالته على ضبط خالد نفسه وأخذ عمر
بالحق ، ويريك قوة النظام فى هذه الدولة الناشئة وتفريق أفرادها بين
حق الدولة وحق الفرد ، وأداء كل منهما على ماينبغى له : بل يوضّح لخدّام
الأمم كيف يُعِزّ الدولة أبناؤها ويرتدى بعزّها أصغرهم حتى يأخُذَ بحقها
من الكبير - فى سنة ١٧ هـ وخالد تحت إمرة أبى عبيدة على قنسرين
أدْرب خالد (أى ذهب مغازيا فى دروب الأناضول) وأصاب أموالا
عظيمة ، فانتجعه رجال منهم الأشعث بن قيس ، أجازه خالد بعشرة
آلاف ، فبلغتْ عمر : فدعا البريد وكتب إلى أبى عبيدة (أن يقيم خالدا ،
ويعقله بعمامته ، وينزع عنه قلنسوته ، حتّى يعلمهم من أين إجازة
الأشعث ؟ أمن ماله أم من إصابة أصابها ؟ فإنْ زعم أنّها الثانية فقد أقرّ
بخيانة ، وإن زعم الأولى فقد أسرف ، واعزِله على كل حال ، واضمم
اليك عمله) فاستقدمه أبو عبيدة وجمع الناس وجلس لهم على المنبر وقام

البريد فسأل خالداً فلم يجبه ، حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت ، فقام بلال اليه (بلال الحبشي مولى أبي بكر ومؤذن النبي وهو من هو بالنسبة لخالد ، ولكنّه الاسلام وديمقراطيته ، ثم تعريفه منازل الناس) فقال : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا . ثم تناول قلنسوته ، وعقله بعمامته وقال : ماتقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ قال : لا بل من مالى ؛ فأطلقه ؛ وأعاد قلنسوته ، ثم عممّه بيده وقال : نسمع ونطيع لولاتنا (وهكذا إطاعة الله ورسوله وأمير المؤمنين) ونفخّم ونَخْدم موالينا (وهكذا احترام بلال لمولاه خالد) وورد الكتاب باستقدام خالد الى المدينة فودّع أهل عمله وخرج حتى قدم على عمر ... إلى هنا ، يقف القلم خاشعاً أمام هذه العظيمة من ضبط النفس ، حتى إن أبا عبيدة لم يقو على تبليغ خالد كتاب عمر ولا تكلم فى نفاذه ، ولا أعلمه بعزله ؛ حتى ورد الامر ثانية به ، بل ليعجب المرء من تجرؤ بلال الحبشيّ على خالد المخزومى ، وسكوت خالد له . وإن كان بلال غسل الإهانة عنه ، أو قل لا إهانة فى الاسلام ، واسمع عتاب العظماء : قال خالد لعمر بعد هذا كله (لقد شكَوْتُك إلى المسلمين ، وبالله إنّك فى أمرى غير مجمل ياعمر) هذا كل ماقاله خالد سيف الله المسلول ، فاقرأ إذاً عظيمة الحق من عمر قال بعد سؤال :

(ياخالد : والله إنك علىّ لكريم ، وإنك إلىّ لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شيء) وكتب إلى الأمصار (إنّى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ، ويبتلوا به ،

فأحببْتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع وألاَّ يكونوا بعرض فتنة)

قال سالم : لما قدِم خالد قال عمر متمثلا : —

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع   وما يصنعَ الأقوام فالله يصنع

النيل والقنوات

نبع الصفا – عين البركة – مغارة قاديشا

نهر بردى – وادى العرائش الخ الخ

هذه الأسماء وأمثالها كثيرة جداً تسمعها فى أرض الجبل وبلاد الشام ، وتسمعها بضجة ورنين . ويقفزِ إلى ذهنك وأنت ابن مصر ، خيال لايفارقك من النيل وفروعه انها قد تكون منه أو قريبة من مائه ، فاذا جئتها « وجئتها بشوق » وجدت الجمل ينقلب عصفوراً : سمّها على الأصحّ القنوات أو قل فيها (حنفيّات) أو صنابير باللغة العربيـة ، ولـكن « وما أقوى لكن هنا » لـكن أبنـاء الشام يبنُون من الحبّة قبّة . فالحق أقول انك لاتندم على أن تزور هذه العيون والمنابع . فحولها اتّخذ اخوانك ملهى جميلا لك ، وامتدّت بهم الدّعوى إلى إعطاء أحكام لهذه المياه



المؤلف وزميله الشيخ محمد رزق أمام الشاغور يسقيان بمائه

تقضى على بعض الأمراض . وفى الطبّ الحديث والطبّ القديم صدقت المداواة بالوهم ، فكثير شُفى بشرب الماء من بعض هذه الأمواه . وأنا شخصياً أعتقد الآن فى عين الدوق بزحلة فقد أكثرت الشرب من مائها أياما وكان بى ألم فى بدء القولون زال، وما زلْت أندم الآن ألاّ أكون أطلت المقام والشرب على العين ؟ إنما اللطف فى هذه المنابع أنّ القوم أخذوها بالصنعة وانتفعوا بها أيما انتفاع ، أكثره طرح الموائد عليها وتزيين الأماكن فيها واجتلاب الناس لها ، وأهمها فى نظرى « مغارة قاديشا » أو المقدّس : فمن هذه المغارة يندفع الماء بقوّة استخدموا تيّارها فى استخراج الكهرباء بيلدة « بشرّى » ومدّوها على أكثر من أربعين كيلو مترا إلى طرابلس ؛ فهم يضيئون بها بلاد مابينهما ، ويدير بعض المطارنة وابوره فى طرابلس لصنع السمنتو . وهنا « والشىء بالشىء يُذكر » أهنّىء رجال الدين فى لبنان الشمالى ، فقد استعملوا الاسم الكريم وأطلقوه على مايخرجه الله من الأرض فصارت (مغارة قاديشا) بوصف أنها مقدسة لهم ، وانتفعوا بتيّارها فما يكسبونه منه داخل إلى جيوبهم ، بل إنهم سموا الأرز « أرز الرب » ، فلما صلحت قطعة منه لاستخدامها قهوة بنوها قهوة وصارت وقفاً على رجال الدّين وذهب ريعها اليهم ؛ والدين فى شمال لبنان ظاهر بين أهله من المارونيّين ، وألطف ماتراه لهم تلك المنازل التى سمّوها أديرة وشادوها على حروف الجبال وذرى الرّبا هادئة مطمئنة تطمئن النفس بها وينعم الساكن فيها

أما أهل دمشق فبودّى أن أكلفهم إقامة تمثال للشاعر حسان

فوق قنطرة «بردَى» فقد طالما طن بيته فى مخّى :

يسقون من ورد البريص عليهمو «بردى» يصفّق بالرحيل السلسل

فكان كل مايهمّنى من مدينة الأمويّين أو «أولاد جفنة» أن أشرب من بردى وهو يصفق بالرحيق ، حتى إذا دخلتها ورأيت بردى «وليتنى ما رأيته» فاذا به أشبه شىء بمسيل الجامع ، ذابل أخضر ، فى قاع المجرى ، لاتطوله يد ؛ وإن طالته قذِرته ، فلم أر مصداق شعر وهو «التخييل» أصدق من بردى حسان

أكبرت القنوات فى الشام ووددت لو أن المصريين فى مصر قدروا النيل ، قدّروه بقيمته ، أو قدّروه كما كان آباؤهم يحفِلون به حتى غالوا فصاروا يتخذون له من العام الى العام قرباناً من الخيّرات الحسان ، أو ليتهم تركوه لطبعه فلا يرذُلونه ويزْرُون به ؛ وقد جبْت مصر كثيراً فأيان سرت وجدْت النيل ومجراه أقذر ماتراه . ولم أر بلداً غير المنصورة وميت غمر انتفع به بعض انتفاع كأنه ليس يجرى بماء الحياة

حمص ـ حماه ـ معرة النعمان

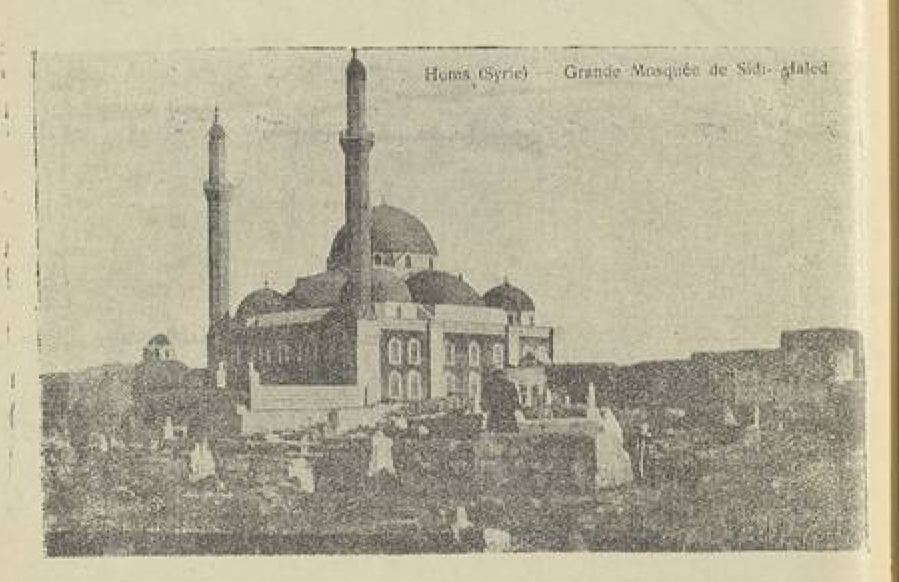
عود الى خالد

تتميز حمص بثلاث تأخذ عين القادم : مسجد خالد . ونهر العاصى . وشباب البلد فى مجمع البلدية

فقد أقامت بلدية حمص بناء جمعت فيه نزل الغريب والحلى ، مطعم نخم ، ومسرح نخم ، ومقهى نخم ، وأعدت سطح هذا كله لفندق لم تبنه بعد . فى هذا المجتمع ترى جمعاً راقياً فى منظره ، تختلط بهم فتأنس ، وقد تعجب أن تنجب حمص مثل هؤلاء وهى فى منظرها لاتزيد عن بندر قديم عندنا . أما الطعام فيقدم بالوجبة كاملة فى ترتيب وخدمة راقيين ، والقهوة والشيشة كأحسن ما تطلب . والمكان يحوى حديقة بديعة تناسب جمال المقعد ، وتأكل وتشرب القهوة والشيشة فاذا قدمت لك قائمة الحساب كان جميعه نصف ليرة سورية أى ثمانية قروش مصرية يوم كنا هناك ، إن زدته قرشين كنت السيد المنظور

ونهر العاصى أشبه شىء بالرياح التوفيقى أو بترعة كبيرة تقرب منه ولكن ظرفه شدة تياره ومجالس مفروشة بالحصر والسجاد على حافتيه ، لكل مجلس حائط من حصير تحت شجر الصفصاف ، ولكل صحب مجلس مبتعد عن المجلس الثانى ، ويقوم بالخدمة هنا رجال أشبه شىء بمن كنا نراهم يجيئون مصر فى تجارة الخيل ، شداد لكل منهم صدار متراص العرى ، ونغمة البدو عليهم فى رقة الحضر ، وقد صدقت فراستى فيهم ، حدثنى صاحب المجلس أنه كان تاجر خيل من خيل عنزة التى انقرضت سوقها

من مصر وكانت تروج للسباق ، وتروج لأرباب « البرجاس » والخيّالة من الأهلين قبل أن يهجم الاتومبيل ، وهى دون خيل نجد فى الثمن والعدو ، وقد عفت المدنية على هذه وتلك فأصبحت دابة اليوم طعامها الزيت والبنزين بدل الشيح والقيصوم



مسجد خالد

أما مسجد خالد فهو بهجة العين فى حمص ، على شكل مسجد القلعة بقبّة عالية تُحيط بها قباب صغار تعلوه مئذنتان على جانبيه ، ولأنه مبنىّ على الارض فلا يبين فى نظر العين بالسموّ الذى امتاز به جامع محمد على ، وقيل لنا إن بناءه كلف اثنى عشر ألف جنيه عثمانى دفع المرحوم السلطان عبد الحميد نصفها والباقى جمعه رجل سموه لنا « الدجانى باشا » وكان رئيس البلدية ، وبقياسه على مبانى القاهرة يكون رخيصاً جداً ، إلا أنى لاحظت فى حمص أنهم يبنون عمائرهم بالحجارة من صفّ أبيض وصفّ سنجابىّ

من الحجر الذى يكسر فى مصر وترصف به الشوارع ؛ وقالوا إن مقالعه قريبة من حمص

وخالد مدفون فى حمص على الموثوق به ، والصحيح فى التواريخ أنه اختار حمص مقاماً بعد أن كان بالمدينة حتى إن ابن جرير الطبرى لم يذكر غير حمص مكاناً لقبره . ومن اللطيف أن أبا الفداء صاحب حماه وكاتب « المختصر فى أخبار البشر » مع أنه لايذكرُ إلا نتفاً مختصرة فى سوق التاريخ لمّا ذكر وفاة خالد قال : (واختلف فى موضع قبره فقيل بحمص وقيل بالمدينة) . فهل نفس المؤرّخ العظيم على حمص تفرّدها بمواراة هذا الجدث الخالد ؟ مع أن حمص كانت كرسى مملكة هذه البلاد

ومع قبر خالد قبر صغير قالوا إنه قبر ابنه عبد الرحمن[1] ، ولكنى اطلعت على رواية فى الاغانى ربما تبعد هذا المكان عن عبد الرحمن ، فقد ذكر أن ابن أُثال طبيب معاوية سقاه السم بدمشق فمات لما رآه أهل الشام أهلا لولاية العهد بعد معاوية — والله أعلم —

* * *

بعد الذى كتبته عن خالد لاشك أنه رجل حربى بطبعه فمن الفضول

---

(١) كذا قال ياقوت . وتملأ الجرائد آذاننا بذكر ابن المريشال « هندنبرج » اذا ذكرت أباه فالولد « ياور » الوالد ويرى القراء فى قرن الاسمين نشوة فخر يحسها بنو الألمان ، فليعلم بنو العرب أن قائدهم العام فى موقعة اليرموك خالد العظيم الذى ضرب الروم ضربته النهائية ، كان على رأس فرقة من فرقه يومذاك ولده « عبد الرحمن » وعبد الرحمن سنه يومئذ ثمانى عشرة سنة ، وقرن التاريخ للعرب اسم الابن باسم الأب فى أعظم وقائع الأيام

الاكثار فيها إلا أنى أذكر كلمة ختامية فى هذا . وقد يندهش القارىء اذا علم أن صفحات المجد التى نشرت بعضها لخالد كتبها كلها قبل أن يتم الأربعين من عمره وتوفى صاحب هذه الاعمال الجسام وهو فى الثالثة والاربعين وقد أوصى بسلاحه وفرسه أن يجعلوه عدة فى سبيل الله

فى أيام الحرب كنّا نرى بعض الفرق الهندية أو الانكليزية أو الاسترالية تَسُوق فى رحلاتها مِعزى أو جحشاً أو قطاً الخ . وقيل فى سبب هذا ان الاورطة تتفاءل بحيوانها الذى تجعله فى « الطليعة » وتعنى به ، وأخبرنى بعض قوادنا أن كثيراً من أبطال الحرب تكون فيهم ناحية روحية تحملهم على التفاؤل بأشياء لاتجعلهم يفارقونها ويستمدّون منها كثيراً من قواهم بل بعضهم يتشاءم بفقدها إلى حدّ الموت ـ وجدت هذه الظاهرة فى خالد ، فقد روى صاحب الاصابه أن خالداً فقد قلنسوته يوم اليرموك فقال اطلبوها فلم يجدوها فلم يزل حتى وجدوها فاذا هى خلفه ، فسئل عن ذلك ؟ فقال اعتمر النبى ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم الى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالا وهى معى إلا تبين لى النصر . اه

ولما مات خالد وغسلوه وجدوا الضربات التى أصابت جسده كلها ضربات أمامية لاضربة منها فى الخلف وهكذا صدق كعب فى قوله :

لايقع الطعن إلا فى نحورهمو   ومالهم عن حياض الموت تهليل

أخذنا القطار من حمص الى حلب ، وهو القطار الدولى الفخم ، سار بنا خمس ساعات فى منبطح من الارض كأنه الوجه البحرى بمصر لولا

أن النيل يُزهر بكل زرع عندنا فى جميع الفصول ، وهنا كان فصل المطر انقضى بنبته ثم حصاده ؛ فالأرض خالية من المحصول إلا جذوره وإلا حشائش أو خضر يسقيها مخلّف السيح . ولاحظت فى بلاد الشام ملاحظة جديرة بنظر المؤرخ أنها تصلُح لحروب العرب أو الجيوش الزاحفة بالرجل والبهيم ؛ فأرضها تُنبت الكلأ وتَكفِى الدابّة ، وأشجارها فيها مايُقيت الجند ، ولعل هذه الأرض كانت أصلح للعرب وأمرأ فيما مضى حتى دوّخوها بالسهولة التى يرويها التاريخ ، ثم كانت فيما بعد مجالا للحروب الصليبية وهى لما تخرج فى آلاتها وحركاتها عما سَبَقها من الحروب ، ثم هى بجبالها وتعاريجها وتفجرّ العيون فيها وتلوّى الاخاديد بمائها ، تصلُح لدفاع أهلها ؛ وتتعِب المغير عليها إلا إن كان بطبع أهلها ومعرفته بهم وتقشفه تقشفاً يساعده على الكفاية بما يناله فى خارج الاسوار

ويجب أن نقلع عين الشيطان بذكر حادثتين من قلة الذوق صادفتانا فى رحلتنا . فقد ركبنا القطار ومعنا جراميزنا ألقيناها فى ديوان ظننّاه فارغاً فاذا به مشغول لبعض العسكريّين وبعض أبناء البلد ، وكان بجواره ديوان به امرأتان خلناه « للحريم » فلم نلتفِت اليه ؛ وارتبك عمّال القطر معنا ؛ فسار القطار وجاء أهل الديوان الأول يرومُون أن يلقوا الجراميز ويخرجونا ، فأما الفرنسيون فلم نعتب على غلظتهم وقلة مبالاتهم وتجرُّؤ أحدهم أن يضَع يده على زناد « مسدّسه » وهو ثمل ؛ وأمّا إخواننا أبناء الشام فقد مُلئنا غيظاً من قلّة ذوقِهم وشدّتهم بأكثر من المحتلين حتى لم نحفظ أنفسنا من توبيخهم ، ونقلنا « الكمسارى » الى الديوان المجاور

فاذا به للرجال ، والمرأتان كل منهما تحتلّ طاولة بينتها وجراميزها ـ بلا حق ـ فأما إحداهما فسكتت على مصيبتها بنا ، والثانية صبّت غيظها فى الكمسارى ، زعمت أنه ضغط اصبع ابنتها بباب الديوان فأخذت تولول وترطُن بالفرنسوية ، فما شككنا أنها بنت باريس ، ولكن الحق أنها كانت صنعة ربويّة منها ؛ لعلها كانت ترُوم طلب التعويض فتكلّمنا فيما بيننا بالعربية أن الرجل مظلوم ، وهى لاتزداد وصاحبتها الفرنسوية إلا رطانة على فدْح المصيبة فى إصبع البنت ، والرجل ورئيسه ورئيس رئيسه يعتذِرون ولا يجدى ، وبقينا كلما تحرك أحدنا فامس لها حقيبة أو مسّ أصص الريحان التى كانت تملأ بها الديوان رطنت ، خمس ساعات ونحن فى ضيق من المرأةونخشى أن تكون فرنسوية أو أن يكون رأى « عبد العزيز فهمى باشا » سبقنا الى حلب فلا أقل من أن تدّعى ماينفعها به ، واذا بالسيّدة المتصنّعة « عربية حلبية » صهيونية على ما يظهَر : وقد سمعت كلامنا كله ، وأنها مدّعية بغير حق ففهمت أن عملتها كشفت ،فلوت عن مصيبة البنت قرب حلب ورفعت رباط الإصبع وقابلها أهلها من شكلها يكلمونها بالعربية ففرخ روعنا ولم يسَعْ أحدنا إلا أن قال لها : ياشيخة حرام عليك فلقتينا خمس ساعات كأننا فى « الزنزانة » . ورمقناها جميعاً بنظرات مصرية تفرّد بها المصرى اذا غيظ

أما قلة الذوق الثانى فقد رأيناها بسوق الغرب من صاحب نزُل بها ومن نزله وخدمه حتى طرنا منه بعد يومين ونحن أحوج مانحتاج إلى المقام به ولا اطيل فالله يُوقع فيه كل ثقيل ـ وحقاً لقدصح فيه ماقيل (لكل

شيء من اسمه نصيب) واسم هذا مشتق من مادة الحجارة وكفى

وأقمنا بحلب ثم عُدنا بالاتومبيل فمررْنا على معرّة النّعمان وعلى حماه

فأما معرّة النعمان فلا مزية فيها إلا أن بها قبر الفيلسوف « أبى العلاء

المعرّى » ومن يزره ومسجده يتصوّر صاحبه بشكله الذى أودعه

الواصفون ترجمته



الجزء الأعلى لواجهة من قبر أبي العلاء مكتوب عليها :
أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان

والمسجد والمدفن فى بقعة قديمة تكاد تكون من زمن صاحبها ،

وتُريك خياله فى خلقته .. ململم مضغوط . ومعرة النعمان هى كانت

معرّة حمص فلما أُضيفت الى النعمان بن بشير الأنصارى على ولايته

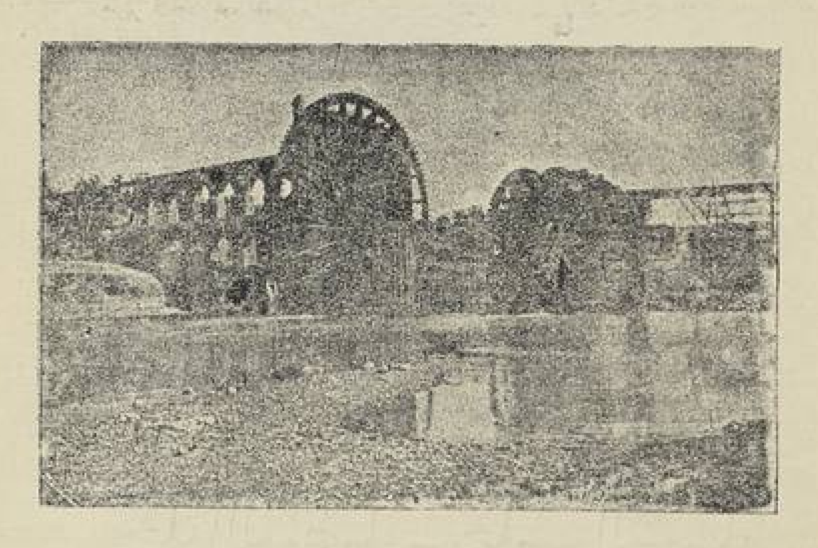
حمص زمن معاوية سميت به ؛ وهكذا عَظَمة الوالى تنسب الولاية له ،

ولا كذلك الحقير إن ولى فهو بمنصبه قائم قاعد يستفيد منه ويحيا به ولا

حياة له إلا فى مداه ، وبعض الخاصّة يغلط فى « شقائق النعمان »

وينسبها إلى النعمان بن بشير ولا كذلك وانما هى منسوبة إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة فانه أعجبَ يوما بموضع اعتمّ نبته وراقه ما فيه من الشقائق فاستحسنه وقال : احموها ، فكان أول من حماها

***



النواعير على نهر العاصى فى مدينة حماه

وقطعنا بالاتومبيل نحو ساعة و نصف ساعة فوصلنا إلى حماه وهى التى سماها ناصر خسرو « عروس البلاد » فلم نر فيها أثر العرس ، ولا رأينا بها شيئاً مما يصفه ياقوت ولا يُجديها اليوم ما ذكره صاحبها (أبو الفداء) فى تاريخه أنها كانت زمن داود وسليمان مدينة عظيمة ، فقلعتها خربة ولا أثر لسورها وأبراجه ، وكل ما استوقف نظرَنا فيها نواعيرها الدائرة على نهر العاصى ، فهى سواق يديرها التيار . عظيمة الدائرة من خشب أشبه شىء بما نسميه فى مصر « بالتابوت » فى وسطها صليب

طويل الأقطار ، وعلى الدائرة مراوح مثبتة . يدفعها التيار فتدور على محور مركوز فى جدار عال قام من أسفل النهر إلى مستوى حائط آخر ، فى أعلاه قناة أشبه شىء بما نراه عند « فم الخليج » مما نسميّه بالقناطر ، فالساقية تدور بلا ثور ، وتصب العيون ماءها فى هـذه القناة العالية تحمله إلى البساتين المرتفع سطحها عن ساحل النهر

ويظهر لى من هذه الرحلة أن ما يسميّه المؤرخون بالممالك والدّول فى تلك الأرجاء كدولة آل حمدان بحلب ، وإمارة حماه وملكها أبى الفداء الخ الخ إنما يشبه فى زمننا مانسمعه عن سلطنة لحج وإمارة الكويت وشيخ المحمرة وهـذا يكون فى عصر الانحطاط الذى أعقب أيام العز الاسلامى ووحدة الدولة العربية فى تلك البلاد

حلبا البيضاء ــ حلب الشهباء

الدعوة العربية ــ وحظ مصر

حلبا بالسريانية اسم المدينة العظيمة التى تضارع دمشق اليوم فى الدولة السورية حذفت ألفها تخفيفا ، معناه البيضاء ، وترجمها العرب بالشهباء ترجمة مرادفة أو ترجمة صحيحة ، لأن بياض ذلك البلد يختلط فهو إلى الشهبة أقرب إلى الصواب . بلد قائم فى سهل أفيح يرقّ هواؤه ويخفّ جوه ، وينشرح صدر ساكنه إذا زوّد عينه بتلك السَّجيحة التى يتبدّى بها منفسح أرضه ــ عاصمة دولة بنى حمدان التى أراق الشعراء

فيها أمخاخهم واستخرجوا لها كلّ وصف بديع وقول مليح، وزادوا فذكروا «خورا» بها جعلوه غديرها واسمه (قويق) ولعله مأخوذ من كلمة مصر العامية (قوّق) أي فرغ، فهو شقّ لا يكاد يبين إلا في شعر الشعراء، لاماء به ولا حس لناظره . ولما عقدت معاهدة الترك أخيراً مع فرنسا شرطوا في العقد أن يَسْكُرُ الترك ماءه عن أهل حلب، فاستكثرتُ عليه مدادا صرف في كتابة بنده ، بل قل إن مداد الشرط كان أجود من ماء «قويق» . وقد أجهد النحاة أنفسهم في تصريف هذا النهر وتصغيره، كما أتعب الشعراء قصائدهم في تضمينها سر ضموره وغور مائه، إلى أن قرأت عنه بحثا جيّدا لكاتب هناك، أنه مأخوذ من (قوق) بالتركية معناه شجر «الحور» الذي ينبُت بكثرة في منبعه بعينتاب في بلاد الأناضول على نحو ميلين من حلب . فلم يخسَر العرب شيئاً من صرف الترك هذا الماء، لأن الله صارفه عنهم من قبل الترك

وحلب كانت قرية صغيرة فتحها العرب سنة ١٥ هـ وكانت تتبَع قنَّسرين التي اشترط خالد على أهلها في صلحه معهم أن يخرّبها، ثم دارت بها الأيام إلى أن اتسعت وعمرَت وضخُمت ، ولو انتصر الترك في حربهم الأخيرة لكانت اليوم عاصمة الامبراطورية العثمانية، فان الألمان رأوها في مكان القلب من هذه الامبراطورية، وواسطة العقد بين بلاد العرب وأرض الأناضول؛ ومجمع الشرق والغرب، فهي مهبط التجارة من هنا وهنا، لذلك عمدوا إلى المشورة على الترك بنصبها عاصمة لملكهم الواسع، فبنوا بها محطّة بغداد على طراز عربي قلّ نظيره، غير محطتها التي يقوم

منها القطار إلى حيفا ثم يتابع المسافر سيره منها إلى استامبول

والمصرى فى حلب لايظنّ نفسه خرج عن منطقة الحسين والجمالية . فالعمائم الغبانى ، والقفاطين الملفوفة ، ودكاكين الكنافة والبسبوسة ، وباعة الشراب فى مواعين النحاس المبهرجة والطاسات الرنانة والفستق المحمر ، وأمثال هذه الاشكال هناك وهنا بزى واحد وعمل واحد ، وظاهرة لطيفة فى حلب يراها الغريب أن تكون قهواتها « وما أكثرها » خلواً بالنهار فاذا قرب الليل ندر أن ترى بها مكاناً خاليا

ونزلنا حلب فى المساء فتخطفنا سماسرة الفنادق حتى كادت عجلاتنا تضيع بينهم ، وضايقونا مضايقة المعدم ، من راكب مع السائق ، وجاذب فى البالطو ، وحامل للحقيبة ، لولا أن الله سلّم ، ومع هذا فقد نزل بعضنا فى فندق والآخر فى آخر ، ثم قضينا بها أيام هناء وراحة ساعد عليهما حسن الجو ، وهو إنما يحسُن هناك من منتصف سبتمبر أما قبله فقالوا إنه النار الموقدة ، ولا عجب أن ترتفع بها رؤوسنا فأهلها يذكرُون بها أهل مصر بكل خير وكرامة ، وفيها يدا بطل مصر ابراهيم باشا ، مستشفاها الذى يداوى الناس فيه هو بناؤه ، أقامه مستشفى للعسكر فبقى ، وعلى رأس قلعتها المخربة ثُكناته العامرة لاتزال مستعملة ، وإن كانت مع الأسف يسكنها الفرنسويّون

وتنقسم المدينة الى قسمين متباينين قسمها القديم ، شرقىّ بحت ، على ماوصفه ابن بطّوطة فى رحلته ، قيساريات مسقوفة تُحيط بمسجدها الجامع من جنباته الأربع على شكل الفحّامين بمصر ، وفيها كل ماتحب

أن تشترى ، وبها الدور القديمة وسكن أصل البلد . أما قسمها الجديد فهو القسم الأشهب ، شوارع واسعة مستطيلة مفروشة بالمكدام والقطران ، تزينها دور جديدة متراصة مبنية بالحجارة الشهباء ، لايعلو أكثرها عن ثلاث طبقات . والسماء بها متدانية اللون ، متباهية النور . وفيه كثير من اليهود وأهل الثراء ومحالّ الفسحة وأبنية الفنادق . ويقول صاحب «قاموس الأمكنة والبقاع» إن الزلازل دمرّتها فى سنتى ١٨٢٢ و ١٨٢٣ ميلادية فلعلّها كانت أزيد مما رأينا ، وإلا فانها أعمر بلاد سوريا وفلسطين ، بل لا أثر فيها للحرب الكبرى وفتنة الثورة على الانتداب الفرنسوى ، كأن ابتعادها عن العمار دفع عنها الخراب ، ولكن كاتب الفندق الذى كان يخدُمنا على الطعام أبان لنا سبب سلامتها من البلاءين ، قال : إن أهل حلب يحفظون ويعملون بالمثل القائل : (من تزوج أمّى قلت له ياعمّى) فنحن كنّا مع الترك الى أن جلوا فصرنا مع الفرنسويين الى أن خات حلب للعرب فلم ننازع أحداً

وصبغة حلب لاتزال تركية ، واللغة التركية فيها فاشية ، ولكن لا بد أن تنقرض فى الجيل الناشىء ، لأن الترك لم يبقوا لهم فى بلد احتلوه أثراً يذكّرهم أو يعلّق أهله فيهم ، فالعربيّة اليوم فى سورية قويّة مستولية على مناحى الحياة فى أبنائها يدعو بها الناشىء والذاهب — وهذه النعرة خالصة لأرومة العرب ، سمعت فى كل مكان نداءها والدعاء بحياتها لايقولون سورية ، ولا لبنان والحجاز ، ولكنهم يقولون « العرب » وهى دعوة فى مصلحتهم بحقّ ، إذ يتعلقون بثمانين مليونا ينطقون الضاد

ويفتخرون بهذه الجامعة التى نشرت حضارتها فى العالم وركزت راياتها من قديم على هام الدول

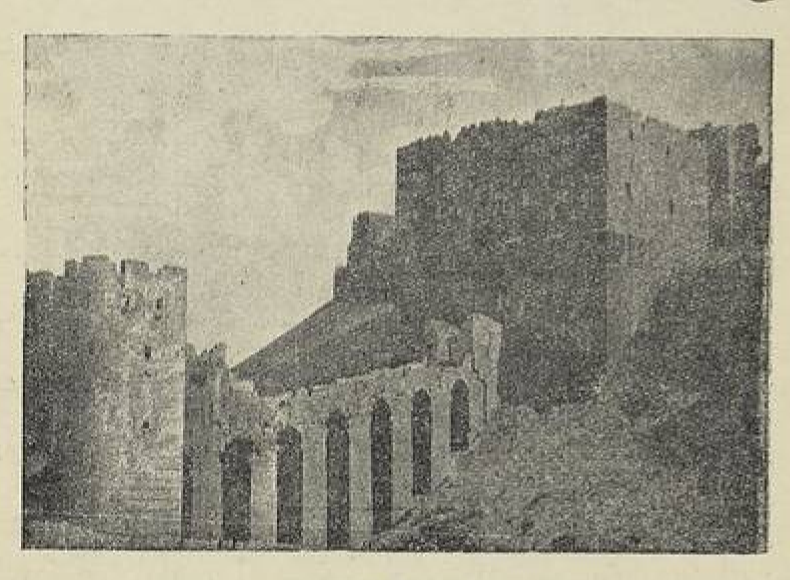
وبهذا الروح العربىّ فاتوا مصر ، ومصر بتخلفها عن تقمّص الروح العربى تخسر فى بلاد العرب وأرض الشرق خسارة لا يحسّ بها أبناؤها والخسارة تلاحقها فى كل يوم عمّا قبله بميزان طاغ ، وقد ظلّت مصر قلب العرب وروح المشرق مادامت رافعة يدها بمصباح العربية تنيره للمشارقة من صحن الأزهر ، وتديره على أرجاء الإسلام من قلوب علمائه الذين لهم أعطر ذكرٍ فى أرجائه . فاليوم وقد أُخذت بالدعوة « الفرعونية » طوراً ، وطوراً بالدعوة « الوطنية » وهجمت عليها ريح التفرنج ؛ وتقدمت « الجامعة » تضغط الأزهر ، وتلهّى علماؤه بفتات الدنيا وفرغوا للراتب والمظهر ، ثم جاء الحجاز يظلَع على أتانه يصدُّ « المحمل » عن الحرم ، فلا تُحمَل كسوة الكعبة لها من مصر ، ولا تغدِق خيرات مصر على أهليه ، وطلعت « فلسطين » فى الزمن الأخير ببدعة « المؤتمر الاسلامى » وفكرة « الجامعة الاسلامية » ونعَق الناعبون من جنبات الأرض على مصر ، فتعدّى كل ناعق صوته ، وسكت الأرفعون صوتا ، والأعلون رأسا ، وهم الذين كانت مصر تُشيِر بهم على الاسلام ، وتلوّح للشرق ، أقول ان مصر بهذا أخذ مجدها يأرِز من بلاد الاسلام وأرض العربية ، وإن لم يتداركها ذوالقوة وَالحول وصاحب النظر الصادق بما يمدّه به قلبه ويقينه ويحفظُه لملكه وسلطانه ومصره وشعبه ، فيَهيب بأصحاب هذا التراث ان يهبُّوا للحفاظ عليه والعمل للانتفاع به واستبقاء مجده بل مدّه وإمداده

ان لا يكن هذا فان العواصف تنوح من النواحى وهاهو المصباح يومض ويخفق ولا أرانا الله يوما ينفد فيه الزيت من فتيلته

قلعة حلب ـ ومساجد الشام

حكاية الكنافة وقسمة الأرزاق

قلعة حلب قديمة قبل الإسلام عليها الطابع الرومانى ، والصور المنحوتة على الصخر تمثل الحيوان المفترس والثعبان النافث والطير المقتنص وجاء المسلمون فاستعملوها وانتفعوا بها ، ثم وضع ملوك مصر أيديهم عليها فأطّروا جبينها بأسمائهم ، وكتبوا على طرازها آيات القرآن وحوادث التاريخ ، ويقول « أبو الفداء » إن « هولاكو » أمر سنة ٦٥٨ هـ بتخريب



قلعـة حلب

أسوار قلعة حلب وأسوار المدينة تخربت عن آخرها ؛ ووصفها « ابن جبير » وصفا متقنا وذكر أن لها سورين ، ثم عقّبه في القرن الثامن « ابن بطوطة » فنقل وصف ابن جبير كأنه استغنى به عن وصفه لها ولم يذكر بها خرابا مثلما شاهدناه في زيارتها ؛ فقد أصبحت الآن كأنها كومة تراب ، ولا أعرف تاريخ خرابها إلا أن يكون سنة الزلزال فلعلّى أعثر عليه أو يفيده من يعرفه

أما القلعة فجنوبي البلد : بنيت على تلّ وحوّطت بالأسوار ، وجعل لها خندق يحيط بها كان مغمورا بالماء ، لم يبق منها اليوم إلا هدم ونقض ، ولا قائم بها إلا مسجدان صغيران : أحدهما ينسب لأبينا الخليل عليه السلام ، والثاني كتب عليه اسم « محمود بن زنكي » كانت جدرانه مكسوّة بالقيشاني وسرقت ، وكسره باق تحت الجدران ، ولها على أعلى القمّة مئذنة مربعة قائمة في الهواء صعدتها ورأيت البلد منها في منظر يشرح الصدر لا يفوقه في حسنه إلا منظر دمشق وقد رأيتها من سطح الفندق ، فهي درارىّ منظومة في دائرة تحوطها ، نصفها جبل ونصفها شجر : فمن شماليّها وشرقيّها يحنو عليها جبل (قاسيون) ، ومن الغرب والجنوب غوطة دمشق بأشجارها الغلباء وخضرتها الحوّاء ، ومنها تسلّل جيش خالد بعد أن ملك قرى الغوطة وكانت مساكن غسّان ؛ وهناك على ثنيّة قاسيون أثره في فتوحه ونصرته ، ومنها إلى اليوم يخرج طريق الحاجّ

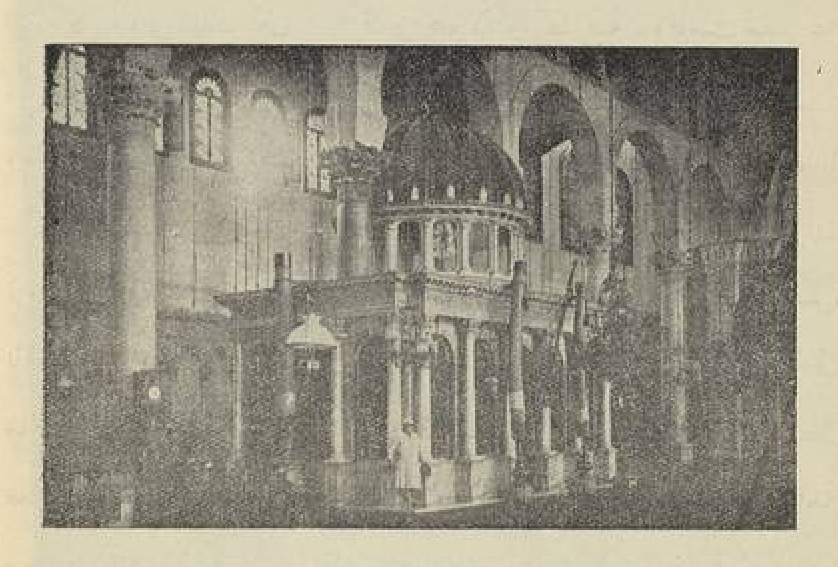
وقد أخذوا في حلب يبحثون القلعة فنقّبوا في التلّ وعثروا على سرداب يؤدّى إلى مخبأ مبنى تحت الأرض يصلح لمقام الجند وادّخار

الزاد ، دخلناه فاذا به صلد والنور ينبعث فيه من قبّته على رأس التل ، وكشفوا مقعد السلطان بيبرس وهو فى عظمته يناسب هذا الماجد الذى طوّق الاسلام منّته الباقية بإعادة الخلافة وإقامتها بالقاهرة بعد أن هزم أسلافه التتر على أيدى المصريين الذين قتلوا هولاكو الطاغية ، وقامت مصر عن الإسلام بإزالة هذه الغمة الخانقة ، وتحت المقعد ظهر حمّام السلطان بأجرانه وأحواضه ، ومن جانبى المقعد دخلنا سور القلعة الباقى وهو جدار ضخم ذو صفحتين يسير الراجل بينهما ، وفيما بين الخطوات والخطوات ترى برج السور مربّع البناء فى وسطه طاق يرمى منها المحصور حاصره بالمقذوف فى ذلك الزمان حيث بنى صحن صغير تحت الطاق لمناولة القاذف مايرمى به ، وتحت القلعة من بابها القبلى مسجد صغير منسوب للسلطان صلاح الدين الأيوبى كانت تقام فيه الجمعة ويصلّى فيه سلطان القلعة ، وبجوار المئذنة ثكنات القائد ابراهيم باشا المصرى الذى اخترق بجند مصر هذه البلاد وكتب بسيفها سطور عزّها على شوامخها وعلاليّها وبيده راية النيل يظلّل بها أعالى دجلة والفرات ليركزها على ماتستحقه مصر فى ظلال الغمام

⁂

وزرنا مسجد حلب الجامع وفيه قبر منسوب لسيدنا زكريا ، ويخيّل إلىّ أن المسجد قبل الاسلام ، وهو على شكل المسجد الأموى ، وعلى شكله أيضاً مسجد حمص القديم ، وبقيّة ما رأينا من المساجد الضخمة فى الشام على هندسة واحدة ، بناء مستطيل نحو نصفه الطولى مسجد قائم على اسطوانات تعلوها الحنايا ويكسوها السقف . والقبلة فى مكان المذبح

عند النصارى ، ونحو ثلثه صحن بطول المسجد فى وسطه نافورة تنبثق فى ميضأة ، وباقيه من الجهة الشمالية « باكية » طولية فوقها غرف سقفُها فى مستوى السقف العام



مقام سيدنا يحيى فى الجامع الاموى بدمشق

فلو نظرت المسجد الأموى لرأيته من وسطه الطولى بنى بارتفاع عن السقف وقد قبّب فيه بابان ، وسار هذا العلو إلى مكان القبلة حيث يقطَعُه خطّ آخر فى السقف عال من الشرق إلى الغرب ، كأن الخطين يكوّنان صليباً إلا أن الترك أزالوه وجعلوا السقف خطوطاً طولية عالية هابطة أشبه شىء بسقوف «الشون» عندنا أو بسقف سوق الخضر الجديد ، ولا يزال فى المسجد الأموى قبر سيّدنا يحيى بن زكريا وهو كان فى الكنيسة قبل أن تصير مسجدا ، وعلى جزء من الجدار القبلىّ للجامع

الأموى علامة مكتوب عليها « قبر النبي هود » ويقال إن هذا الجدار وضعه نبي الله هود ودفن فيه ولكن أين الشام من الأحقاف بلاد عادٍ قوم هود ؟

أما حكاية الكنافة فهى تريك كيف قسم الخالق الرزق بين عباده ، وتصوّر لك مثلنا العامى (تبق فى يدك وتقسم لغيرك) فحلب الشهباء اشتهرت بأكلة « الكفتة » ولا نظير لها فى الشام ، واشتهرت بصنع « الكنافة » المحشوة بالقشدة فعزمنا أن نأكل الشهيرتين . وجىء لنا بهما فى الفندق ولكن بطّيخ حلب وحلاوته كفتنى عن تناول الكنافة فحفظ رفيق الأخ الاستاذ الشيخ محمد رزق صقر نصيبي من الكنافة ثم سافرنا ونسيه وأنسيته حتى جئنا الاسكندرية بعد خمسة أيام ، فلما فتح سفطه رأى نصيبي ملفوفاً محفوظاً فجاءنى به فى الغرفة يقول : « ألا تذكرُ كنافة حلب ولمّا تأكلْها ؟ » فأعطيته بحاله لخادم الغرفة ، سرّ النوبىّ وقال : « ما هذا ياسيدى ؟ » قلت له « ياسيدى أنت ، هذا كنافة حلب المشهورة حملها من مكانها قاضيان حفظاها وحرم أحدهما نفسه منها لتأكلَها أنت ياصاحب القسمة فيها كما أراد خالقها مقسّم الأرزاق »

بعلبك - كرك - الارز - النجعة

لعل أقدم اسم عندى باق فى خزانة الحافظة من أيام الأزهر وحضور دروس النحو هو اسم (بعلبك) ساقه النحاة مثالا على التركيب المزجى يُمنع من أجله الاسم عن الصرف ، ومرّت علىّ ثلاثون سنة للآن لم أحصّل فيها أكثر من أربعة أسماء أو خمسة أضمها الى هذا الاسم الذى تفنن الشراح فى معناه ، وكان الشيوخ يقولون لنا عنه العجب ، وهو اسم فينيقى مركّب من « بعل » و « بك » فسرها العرب « الصنم » و « البلد » وترجمته اليوم « بيت الرب » وهو هيكل قديم فى ركن من أركان البلد الذى سمّى باسمه ، قائم فى سهل البقاع ، ما إن عامت قربه من « زحلة » وأنا بها حتى امتطيت له « أوتومبيلا » قطع نحو ساعة حتى وصلناه ، فاذا بالهيكل خراب ، قائم ومنقوض ، تدخله فيدلّك على عظمة بنائه أولا . وعلى عظمة ما نزلت به الحوادث ثانياً ، وقد استغلته جمهورية لبنان فأقامت عليه مَكساً يدفعه الداخل « ليرة سورية » غير نصفها أخذه من زعم أنه دليل وهو شرّ جهول

والهيكل شامخ البناء عظيم الاحجار ضخم العمد ترى العمود على بعد فتظنه فى قيامه ممشوقاً ، فإذا قربت من عمود نائم أعظمت ضخامته . والشرفات الباقية ذوات رواشن ، كلّ روشن صخر منحوت على شكل حيوان أعدّ مجرى للسيل وفم الحيوان ميزابه ، وهو فى الاصل ثلاثة أواوين للكهنة والهيكل وأظن الثالث كنيسة بناها المسيحيّون فى فنائه



المؤلف و هيكل بعلبك

تهدّمت الآن إلا آثار جدرانها ، والهيكل الباقى بناء به مكان المذبح والأبواب التى كان الكهّان يدخُلون منها فى جوف الجدران ليقولوا وسط الصنم ما شاءوا من غير أن يراهم أحد ، ويُحيط به دائر يقوم على الأعمدة الضّخمة بسقف رفيع مستطيل مثبّت على جدار المعبد ورءوس العمد ، وزينة ما فيه الأعمدة بعمائمها وعليها تلك الحيوانات الحجريّة المنقوشة أو الملوّنة بهندسة واحدة تُعطيك صورة بيزنطيّة تراها فى أبنية الترك القديمة بقصورهم الموقوفة فى القاهرة أو مساجدهم الباقية للآن

حاشا فم الحيوان . وفى ركن منه بناء أقامه العرب قلعة لجندهم لاتزال باقية غير مهدّمة ، ولعلّها هى التى يذكرها التاريخ فى كثير من المبالغة

وهناك بناء منفصل صغير قالوا إنه بقية من دار المحكمة التى يجلس فيها قضاة الدين فى ذلك الزمان ويسميه بعض المؤرخين « هيكل باكوس » أى « إله الخمر » أصبح سائره اليوم أرضا تُزرَع ؛ وألطف ماحفظته ما نبهنى اليه المصوّر فى الهيكل ، قال : إنّ هذا هو (هليوبوليس) بناه أصحابه على الحرف الأول من اسمه (H) باللاتينى وقد كشف الآن فنزلته فاذا بأقباء ثلاثة على رسم هذا الحرف ، قبوان مستطيلان يصلهما قبو ثالث فى جدرها أبواب ومغاور وغرف كأنها « البدروم » للهيكل ، وصحيح ماقال . فان اليونان يُسمّون هذا المعبد « هليوبوليس » أى « مدينة الشمس » ويزعُم الزاعمون أنهم نقلوها عن مصر ، ويقال اليوم إنهم سيعيدونه على شكله الأول ، وما أدرى من أين يجىء المال ولا من هو صاحب تلك الهمم

ثم ذهبت إلى الجانب الآخر من البلد حيث « رأس العين » التى يَسقُون منها ، فرأيت مسجدا لم يبق إلا حوائطه ، نسبوه إلى السلطان بيبرس فترحّمت على السلطان بيبرس ، لم يبق من مساجده بالقاهرة وبعلبك وحلب إلا حوائطها على عظم بانيها وسعة مبانيها ، فسبحان وارث الامم

واذ كنا بزحلة عرفت أن « الكرك » بجوارها . وجوارها بلد اسمه « المعلّقة » كانت مع لزقها بزحلة واتصالها بالجبل تابعة لسوريا أيام الترك

ولم يرضوا أن يدخلوها فى حدود لبنان . وهذه « كرْك » بسكون الراء غير « الكرَك » بفتحها فتلك فى البلقاء أوشرقى الأردن . كنت سنة ١٩٢٢ أزورُ بالخليل قبرا منسوبا للنبي نوح فعرّفنى المرحوم السيد ابن عقيل ونحن فى الحجاز ، أن للنبي نوح قبرا آخر بالكرك فبقى علمه بذهنى وظننت ماسمعته بزحلة محلّ فائدة الشيخ ، فإذا به الكرك بالسكون قال سادنه : إنه الكرك بن نوح : قبر طويل نحو من ثلاثين مترا ، فى ضيعة صغيرة يسكنها المسلمون وبجواره مسجد ضائع وعلى القبر أثواب نساء وأطفال يهديها المتبرّكون والناذرون ولا ذكر له فيما قرأت

أما الأرز ، فهو تلك القنّة الشاهقة فى ذرى لبنان حيث احتجزوا لها سوراً على نحو أربعمائة شجرة بهذا الاسم لانظير لها فى الجبل ، والأرز شجر أقرب شبهاً الى شجر الأثل ، يرفعون أمره الى آلاف السنين ويذكرون عنه حوادث لأبينا الخليل . ويقولون إن هيكل سليمان أخذ خشبه منه ، وبه شجرة طولها ٤٥ متراً وأخرى محيطها خمسة عشر متراً ، وهو أملس مستقيم الأغصان رفيع الورق متضامّه تسمع منه ذلك الصوت الموسيقى الذى طالما سمعه الفلاحون حفيفاً طالعاً من ورق الأثل إذا صفا له الهواء خرج بإيقاع يُعذَر الناس فيه إن قالوا إنه صوته وهو يذكُر الله

وفيه شجرة مكتوب عليها اسم (لامارتين) وهو الشاعر الفرنسوى الذى طار بذكر لبنان وتغنى بشجر الأرز ووادى حمانا ، وفى منبسط منه بين دائرة من الشجر قهوة تحس بردها فى حمارّة القيظ ولا غنى لطالع

الأرز من جلسة بها ، وأهل الجبل يقولون للسائح هناك : إن لم تر الأرز فكأنك ماجئت ولاسحت : وهى شنشنة يعرفها الزوّار من أهل الجبل ، كلما حللت بلداً ذكروا لك محاسن غيره كأن الإحثاث طبع فيهم ، وإلا فبلد تقيم فيه وتنعم براحته يغنيك منظره عن سائره

قال لى صاحب الفندق فى بيروت « شتاء مصر ، وربيع دمشق ، وصيف الجبل ، وخريف بيروت » أخذ صاحبي لبلده ثلاثة أرباع العام وترك لمصر ربعه . فأمّا الصيف فقد صدق ، لاصيف إلا بالجبل ، وساحل الشام فى الصيف لامقام به ، أو كن بمصر فى الصيف فان ريح البحر يهبّ من الشمال فصاحت ثغورها أن تكون مصطافاً حين لاريح يهبّ من الجنوب على ثغورهم فهم لهذا يصطافون بالعالية ، فأهل بيروت ومن اليهم يصعدون الى لبنان الجنوبى ، وصوفر مصيف « البيارتة » ومنهم من رأينا بإهدن ، وأهل جونية ومن إليهم يطلعون ذرى كسروان وهو وسط لبنان . أما ساكنو طرابلس فلهم شمال الجبل ، بل لقد رأينا من أهل الجبل من لهم فيه المشتى والمصيف كأهل « زغرتا » يسكنون « اهدن » فى الصيف فإذا جاء الشتاء عادوا لها ، وقيل لنا : إنّ صاحب كل دار فى زغرتا له دار بإهدن ، واهدن حىّ على المصيف بها لولا أنها للآن خلو من المدنية ودواعى الراحة المصطاف ، ومترفو دمشق يصطافون بالزبدانى ، وهو بلد استضافنا فيه السيد تاج الدين الحسنى رئيس الحكومة حين كنا هناك وتُعنَى به حكومته فبنت فيه فندقا يكافها أربعين الف جنيه يعدّونه لمنافسة فنادق الجبل واجتذاب الناس إليه

قال لنا جبلي من أهل بشرّى : إذا كان الشتاء حصرَنا الثلج فبقينا في الدور أربعة أشهر لا عمل لنا إلا أن نصطلي النار مما نحطبه في الجبل ونُعِدّه لها ، وبجوارنا الزيت والبطاطا نأكله — قال سامحه الله على دينهم — وشرب العرق وحلو الحديث

القرآن والسياحة

شغلني رمضان عن متابعة الرسائل ولكن رنين الاستحسان الذي شجّعني به القراء غالب الكسل ، وأريد اليوم أن أكتب في موضوع إن لم يكن من الرحلة ووصفها وذكر مالقيته بها فإنه فصل جليل القيمة عظيم الأثر أضعه أمام المفكّرين والمصلحين الذين يأخذُون بأيدى أممهم إلى العلا ويزكّون عن مواهبهم التي رزقهم الله زكاة الجاه والفائدة للبيئات اللاتى يعيشون فيها والبلاد اللاتى أخرجتْهم وجعلت لهم بين أهلها مكان القدوة والتأسية — موضوع السياحة في القرآن أو القرآن والسياحة ، فقد تفرّد القرآن إذ يذكر أوصاف المؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والمتصدّقين والمتصدّقات الخ ، فذكر لهم عطفاً على هذه الصفات الفاضلة المكمّلة للإيمان والراقية بالإنسان في درج الإحسان ، وصفَ السياحة وفضيلة السير ، فقال جل شأنه فيهم «السائحون [1] الآية ، وقال سائحات [2] الآية

---

(١) في قوله تعالى بسورة التوبة (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين) (٢) في قوله تعالى بسورة التحريم (عسى ربه إن طلقكن

فالسياحة فى نظر الخالق وصف للمخلوق مشرّف ومكمّل ، معطوف على الأوصاف التى تواضع العلماء على عدّها من كمالات النفوس وفضائل الخلق ذلك لما فى السياحة من فوائد وعوائد يعْرِفها ويذوقها من يعرفها ممن ساح وسار ودخل الممالك والأقطار ، يعرفها فضلا فى نفسه وسعة فى علمه وزيادة فى يقينه وبرهانا حقاً تزداد به تثبيتاً فى اعتقاده بالله وأنه الخالق الواحد المنفرد بالخلق والايجاد والقائم على كل نفس بما كسبت والظاهر بآياته فى مخلوقاته ظهوراً يجتليه السائح ويلمسه فى مظاهر أوسع ومشاهد أمتع وآثار مختلفات ومناظر متعددات : مجتمعات ومتفرقات الى آخر فوائد السياحة التى نبسُطها ونشيد فيها ... ولكن بعض المفسّرين عفا الله عنهم ، فسّر قوله تعالى : السائحين والسائحات ، فأخرجها عن لفظها ونأى عن مرادها الى ما رآه هو لا ما قاله الله ..؟؟ قال الشيخ: السائحون والسائحات أى الصائمون والصائمات ؟؟ قال : لأن نفس الصائم تسيح فى الملكوت ؟؟ ويخطر ببالى فى هذا التفسير حديث صحيح أذكره بمعناه وقريبا من لفظه أن النبى ﷺ دخل المسجد فرأى أعرابياً يدعو ويقول فى دعائه (اللهم ارحمنى ومحمّداً ولا ترحم معنا أحداً) فقال له النبى ﷺ (لقد حجّرت واسعاً يا أعرابى ، إذا دعوتم فعمّموا) . فشيخنا المفسّر إن لم يكن مخطئاً فى تفسيره تماما فقد حجّر واسعا بقصره السياحة على نفس الصائم تسيح فى الملكوت ؟؟ وأين إذن نفس المفكّر فى الملكوت وهو غير صائم ؟

أن يُبدله أزواجا خيراً منكنّ مسلماتٍ مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيّبات وأبكارا)

وهو ينظر فى الملكوت ويتفكر فيه بأمر القرآن (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) الآية وقد كتبت إلى الأستاذ البركة الشيخ عبد الحافظ عمّار عالم سيناء فجمع لى فى كتاب أرسله إلىَّ من العريش أربع عشرة آية نزلَتْ كلها فى حثّ المؤمنين على السير فى الأرض والمشى فى مناكبها والتفكّر فيما صنع الله بها وما فيها من آية ؛ وأن ينظُروا عاقبة من كان قبلهم من الأمم عمروها أكثر مما عمروها وجاءهم أمر الله فلم يغن عنهم ما فرّطوا فى اتّباع سنَن الله الذى سنّه لعمارة الكون وسنّ هلاك مخالفيه، سنّة لاتبديل فيها ولا تغيير ولا محاباة لمسلم على كتابىّ ولا لكتابىّ على وثنىّ بل هى سنّة طبيعية تتبع نتائجها مقدماتها وتُنتج مقدّماتها نتائجها قاضيةً على كلّ مخلوق بحكمها، لافتةً كلّ ساكن فى هذه الأرض إلى قضاء ربّها، وأنه قضاء يصدُر عن قانون اجتماعى وضعه الربّ فى أزله وكلّف عباده اتّباعه، وجعل وراثة الأرض للصالحين منهم وضياعها للمترفين الخارجين عن أمره الخ الخ وهى آيات ترى الخلف أىّ شأو كان للسلف فى إكبار فضيلة السياحة والتمسّك بها والانتفاع بآثارها ونقل العالم بالرحلة بعضه الى بعض حتى يمتزج ويتداخل ويتقارب ويتعارف فما جعلكم الله شعوبا وقبائل إلا لتعارفوا

السياحة وأثرها

تنقّلتُ بعملى الحكومىّ فى مناطق متعدّدة بمصر : كفر الشيخ. بيا . أسيوط . دمياط . العريش . شربين . زفتى . ديروط . الجيزة . قليوب . مصر الخ الخ أى غير مناطق أخرى اقتضى العمل نقلة لها وبلاد قصدناها للزيارة والفرجة ، وخرجت من مصر إلى الحجاز وفلسطين ولبنان وسوريا وطوّفتُ بعض مدنها وقراها وعرَفت عدداً من إخوان هذه وتلك لولا النقلة والسفر ما كنّا نعرِفهم ولا ترتبطنا بهم صحبة ، كما عرفت مما شاهدت ميزات اختصّت ببعض البلاد والأفراد ، فهل يدْرِى القارىء أنى أتتبّع أخبار هذه البلاد كما أتتبع أخبار بلدى « كوم النور » وأقرأ ما أراه مكتوبا عنها فى الصّحف أو الكتب بشوق واهتمام كأنها كلّها بلدى ، وأنباء أهلها وساكنيها تهمّنى ، والسؤال عمّن عرفت فيها أو سمِعت بهم يجْرى على لسانى ، ولكلّ من هذه النواحى ناحية من ذهنى حتى لأحسّ بعطف متبادل بينى وبينها ، بل لقد اشتدّ تعلّق بعضها حتى يعدّنى بحق (بلديّه) وأعرِف له أنا هذا الحقّ وأجد فى قضائه لذّة الوفاء ، ولا أزال فى سرور منذ سنة ١٩٢٣ م وسنتها حَجَجْت وكنت مندوبا عن الحكومة فى باخرة فأزكى خروجي للحجّ الرغبة فى عدد كثير من أهل العريش وعربان سيناء أن يخرُجوا ويكونوا معى حبّا فى الرفقة بسبب المعرفة وأنى كنت ببلدهم . كذلك من يقابِلنى من أهل هذه البلاد يقول لى إنه يتتبّع أخبارى ويشغَف بقراءة ما أُكتُبه ويتأثر

لما يُكتَب عنّ أو فىّ إذا رأته عيناه فى الصحف ، بل لقد يذكرُ لى أشياء
ربما لم أرها أو ربما أنسيتها فهو يعيدها علىّ ويذكُرها لى كدليل على بقاء
الصلة واستدامتها فى الوفاء . سرّ من أسرار التآلف الإنسانىّ ، الإنسان
مدنىّ بطبعه فهو يألف ويأتلف وبالألفة تتسع المعرفة ويكثُر الخير ،
وأصل الألفة المعرفة ، وأكثر مايتماوَج أهل الأرض بعضهم ببعض معرفة
وألفة إنما هو بالزيارة والسفر والنقلة والنّجعة والتواصل من هناومن هنا ،
هذا ينشُر عن هؤلاء وذاك ينُوب عن أولئك ، وفى النفس حنين إلى سماع
الأخبار عن الآخرين كأن أفراد هذا العالم يشعُرون أنهم مشتقّون جميعاً
من أصل واحد فى السّماع عن بقية الفروع التى خرجت من الوشيجة
الأولى تروّح بالروح الجامع الذى لايتخلّص منه الفرد مهما أجهد نفسه
طلباً فى الانفراد . لسنا ننشىء فى فوائد السياحة ولكن نُذكّر بتلك
الخليقة التى ترى ذكرها ظاهراً فى ترجمة السّلف الصالح ، فأكثر ماتقرأ
فى تاريخ العالِم أنه « طوّف الممالك ودخل الأقطار والأمصار » . وكبار
السالكين للحق يجعلون من أهم أسباب الرياضة تكليف المريد أن
يَسيح ، وفى مقاسم الزكاة الإسلامية نصيب لابن السبيل مما يُعدّ بحق
تنشيطاً من الدين الاسلامى للسياحة ؛ ومن أمثالنا قالوا « من عاش شافَ
كثيرا قيل من ساح شاف أكثر » والذى أريد أن أتوسّل به من هذه
المقدّمة « وقد اختصرتها ولمتُها جدّا » القول بأن السائح إذ يرى فى
غير بلاده خيرا يَهُم بطبعه أن ينقُله لبلده ، وكثيرا ما رأينا بعض الذين
تقلّبوا فى البلاد يحفَظون منها ذكريات عندهم وقد يَتبْعون فى معايشهم

أو طرق حياتهم بعض ما استحسنوه فى الغربة وألفوه ورأوا أنه خير مما كانوا فيه ، فأحب أن أعرف تأثير نفس السائح المصرى الذى رأى بعينه فى غير بلده خيراً كثيراً ثم عاد وهو يستطيع أن ينقل لبلده مثله ويفعله فيه ثم يكسَل ولا يَفعل ؟ ؟ لما عُدت العام من سياحتى هذه كان همى « أن أكتب » وهذا ما أقدر أنا عليه فى هذا البلد أن أكتب وأذكّر . وهمّى الآخر كلما رأيت قومى فى جهلهم ، فى ضعف صحتهم . فى تباعدهم عن بهجة العيش وسرور الحياة ، فى تعلّقهم من الدّنيا بنصيبها الأتفه الأرذل ؟ الخ . همّى هنا الحسرة ؟ حتى الشام ولبنان رأيت فيهما وجه الدنيا أبيض وأنفع وأرفع من مصر ! هناك صحة الأفراد بادية على الأبدان ، والفرح ظاهر على تقاسيم الوجوه ، وخفّة العيش يُحسّونها فلا يُثقلون تحت كلكله . ركبنا الاتوموبيل من حلب إلى بيروت نحو ثلاث عشرة ساعة فى طريق معبَّد ، أكثر من نصفه مكدّم مقطرن ولا يجىء الصيف المقبل حتى يكمُل باقيه ، وهنا ترى طرق مصر الزراعية كلّها مصائب فى السفر ! هذا طريق مصر والاسكندرية بعد أن تخرج من « شبرا » لاتكاد تجد مكداما ، ويسافر المسافرون فى الطرق عندنا وكأنهم فى سرادق من العِثير مضروب عليهم لا يرفعونه حتى يصلوا ، لست أنعى على الغبار والعثير فقط ولكنّ الطرق الزراعية التى تعد طرقا يتقابل فيها السابلة وتوصّل البلاد بالعجلة والاتومبيل كما هو عند غيرنا تكاد فى مصر تلْحق العدم ، وقد قرأت فى حديث بالاهرام قريب أن طول السكك الزراعية فى القطر المصرى كله تبلغ سبعة آلاف

كيلو متر ، وهى لمليون كيلو متر مربع مساحة مصر ، أى بنسبة $\frac{٧}{١٠٠٠}$ مما لا يأخُذ منها الفدّان طولا يذكر

ولقد قلت لوزير من وزرائنا بعيد النظر سليم الفكر : ترى ياباشا لو أردت أن تبقى فى مصر بقاء أبى الهول ؟ ترفَع عن مصر الاسم الملعون فى التاريخ وتفتح عيون بنى عمك فلاتعود ترى العمى ولاالحول ولا العور ولاتمرض العيون بالرمد الحبيبى الذى يسمّيه أطباء العالم « المرض المصرى » والذى ورثناه من أول جيل سكن هذا الوادى ، فاذا عملت ما اشير عليك به أتيت بما لم يأت به الأوائل .. ؟! قال : ماذا ؟ قلت : تنزل على جميع الطرق والجسور فى مصر فتعبّدها وتقتُل الغبار منها فلا يثور ولا يهجم على العيون ولو استنفدت فى هذا السبيل المال الاحتياطىّ ؛ فعين كل مصرى عزيزة تساوى الحياة : وافق الوزير على صواب العمل وضرورته ووجوب السير فيه قال : ولكن المال ، المال ثم روى لى قصةً عن شركة فورد أنها عرضت على الحكومة فى سنة ١٩٢٩ تعبيد السبل فى مصر فتأخذ النيل من أسوان الى رشيد ودمياط على شاطئيه بطريق مكدّم مقيّر فى عرض ستة عشر متراً على حافتيه الأشجار ، فى نظير أن تترك الحكومة أوتومبيلاتها تدخل مصر بلا « جمرك » مدة عشر سنين ، وقال إن حكومة تلك السنَّة رفضت ، ولكنى قلّبت المشروع فوجدتُ العرْض فى صالح مصر جداً فأعدت الكرّة على الشركة أسألها فى أمريكا فكان جوابها الرفض ؛ لأنها وجدت نفسها ستتكلّف حوالى ثلاثين مليون جنيه فى حين لاتخسر مصر مازيد على أربعة أوخمسة مليونات موزّعة على عشر سنوات

(١٠٠)

أحكام السائحين

وقعتْ فى رسائلى أحكام عامّة هى بلا شك مأخوذة من جزئيّات وقَعتْ عليها عينى، وفى ظرف يكاد يكون خاصًّا هو ظرْف السفر، وفى ظاهر من الأمر تحدّه طبعاً الغُرْبة، وأن المسافر سائح لامنقطع للبحث والتحرّى والاستقصاء والمقابلة. ومع أن الشام ومصر قطر واحد متقارب العادات متّحد اللسان مختلط بالطبيعة من أزمان، ومن أبنائه عدد عديد عندنا يَصِحُّ أن يكون عنوانًا على أهله وبلده، ومع أنّ مثلى يصحّ أن يصل إلى قلب المجتمع هناك ويتّصل بمختلف الطبقات والبيئات الخ. مع هذا كلّه فانى — كقاض — لايمكننى أن أقول بجزم: إن أحكامى التى تضمّنتها رسائلى هى أحكام قضائية، مبحوثة بالدّقة والضّبط والمقابلة والمناقشة: كلّ مافيها أنّ الظاهر يجعل لها أرجحيّة الصواب، لان السائح الدقيق النظر والملاحظة النّاوى أن يكتب فى رحلته، يدفعُهُ طبعه الفطرى الى تحرّى الحقّ ومجاهدة الوصول الى الحقيقة خصوصاً اذا كانت أحكامه فى مسائل عامّة شائعة يحويها نظر المسافر والمقيم. أما الدُّخول فى دقائق العادات وأصول التقاليد وبواطن النُّفوس ودخائل العقائد؛ والكتابة فى منازع الاهواء وقوالب البيئات وحقيقة التربية وطبيعة الاقليم وأثره فى تكوين ساكنيه؛ ووجهة فهمهم؛ وطريقة معرفتهم وعقليّتهم الخاصة فى فهم الأشياء؛ فهذه مسائل عويصة لايليق بسائح يكرّم نفسه أن يكتب فيها إلا بدرس وإمعان واقامة وتفتيش، وان كتب فيها بالنظرة العجلاء

والخطفة الجامعة فهو إما أهوج وإما مغرض ، واما مريد أمراً مدسوساً بنفسه من أجله ، لذلك كنّا إذا قرأنا لبعض السائحين الذين وفدوا على مصر كتابة غير ناضجة ، مجموعة بالعجلة أو من سيئي النقلة كنا نضحك هنا ويثير نا منها العجب ، لكن مع الأسف الشديد الإنصاف عند بعض الناس معدوم ، فأمثال هذه المقالات النيئة قد تقابَل من كاتبها مقابلة الكتابة المستوية ، ويتلقّى شعب الكاتب عنه ما يقوله فى شعب غيره بالصدق والأمانة وربما تناقل الناس عنه ما كتب وأذاعوه أو أودعوه بطون الكتب فيصبح مع مرور الزمن كأنه حقيقة ناضجة عن ذلك الشعب المكذوب عليه . فمهمّة كتّاب الرسائل عن الرحل مهمّة دقيقة أظن أنها لاتقل دقّة وأمانة عن موقف القضاء من حيث علوق واجب الحيطة والتحرّى بعنق الكاتب ، التحرّى عن المعلومات . والدقّة فى الاستنتاج منها حتى تبرأ ذمته فلا يظلم من يكتب فيهم ولا يغش من يكتب لهم ، وكثيراً ما رأينا معلومات مقلوبة أو أسماء خاطئة طاش بها كتّاب العجلة فأضلّوا بها الناس وظلموا فيها الحقيقة . وكتّاب الشعب نفسه هم أقدر على وصفه والكتابة فيه اذا أرادوا بيانه والابانة عن حقيقته ، منهم من يُظهِر العَوار ليصلحه ، ومنهم من يشيد بمواطن الافتخار ليَحتج به ، فمن هؤلاء تؤخذ الأحكام بحقّ عن الشعوب ، وعلى هؤلاء تبعة السكوت إن لم يجلوا شعوبهم على عذبات أقلامهم تجلية يرى القرّاء فيها عوارها وفخارها ، وهذه كانت ميزة كتّاب العربيّة فى الصدر الأول ورواة الاخبار والآثار وكتّاب الوعظ والسير ، ومن يقرأ كتاب « الأغانى » مثلا يتبين منه

صفحة تَعرض عصرها كشاشة الخيالة ، ومثل كتاب « الإحياء » للغزالى أو « قوت القلوب » لأبى طالب المكىّ مرآتان لكثير من الأخـلاق والنُّفوس ، ورحلة ابن بطّوطة إن كان صاحبها كتبها حسبما شرطنا فانها رحلة جديرة بأن تُكتَب بماء الذهب ، وإن كان العلامة المؤرخ ابن خلدون تشكك فى بعض رواياتها واستبعد ما ذكره السائح فيهـا ؛ ولكنّ المثـل الفقهىّ : « من حفِظ حجّة على من لم يحفَظ » والشـاهد يرى مالا يرى الغائب

مقارنـات

(١) أظن أهل سوريا والجبل يصدّقون إن قالوا « الشام للشاميين » ولا أقارن بمصر إن قلنا هذه الكلمة فحالنا معروف فى المادة والأدب ، لكنّ أبناء العمّ يقطع السائح بلادهم فلا يرى أجنبيًّا بينهم ، وكنتُ كلما وجدْت نظافة ووجدْت نظاما ورأيْت خِدمة جيـدة وفـكراً منسّقة ومقاهي وفنادق ومصارف ومكاتب ومبانى وأثاثا ، كنت أظنـه نعيم الغرب ونظام رجاله فتبين لى أن من رأيت وما رأيت « شاما وشاميين » وعلمت أن أهل تلك الديار لايعرفون الدَّين (بفتح الدال المشددة) ولم يمُدوا أعناقهم لبنوك أوربا تغلُّها وتغلّهم ، والمدنية بعدُ لم تُترِفهم فما ولجوا أبوابها التى ولجها بعض أبنائنا والتى فتح الصهيو نيون مصاريعها لإخوانهم فى فلسطين فدخلها الطائشون منهم بالخف والحافر ، ورأيت الصناعات الشامية هناك مزهرة فصناعة الحرير والنحاس والجلود والأقمشة رائجة

مستعملة ، أما صناعة الأدب التى حذقوها فى المهاجر وانتفعوا بها فليست هى فى الرواج والانقطاع لها والتعيش منها بالكثرة التى كنت أظن ، أى ان هذه الصناعة ليست كصناعة المادة رواجا واقتياتا . وليس العمل الاقتصادى مقصوراً على طائفة فلعلّ القرّاء سمعوا بانتخاب المطران عريضة « بطريركا » للجبل ، هذا المطران يكاد يكون أكبر اقتصادى هناك ، وهو صاحب القسط الأوفر فى مصانع الكهرباء وملحقاتها بشمال الجبل المركبة على تيّار مغارة قاديشا ، والدّنيا الطيبة لاتنافى الدين الصالح ، والطّيلسان الأسود لايعادى عمل الاقتصاد الأبيض ، ورجال الدين كانوا عندنا رجال عمل يكتسبون من قبل أن يصير الدين مستغلا خاصاً ، وصاحب مذهب الفقه الحنفى وإمامه أبو حنيفة كان بزّازاً يتّجر ويُنفِق من ربح تجارته على نفسه وتلاميذه إلى زمن الشيخ الإنبابى شيخ الجامع الأزهر فهو رحمه الله كان تاجراً كبيرا ومثريا من عمله ، فتعجّبْ معى إذن لمنع حكومتنا موظّفيها أن يكونوا تجاراً مثلا ؟ ماذا عليهم لو اتّجروا فى غير ساعات العمل واستعانوا بربحها على توفير مشاغلهم للتفكّر فى العيش من سَمّ الوظيفة وهو سمّ الخياط

(٢) ويسرُّك هناك أن ترى المتعلّمين عاملين . سائق الاتومبيل يتكلم الفرنسوية ويُدرك معلومات قيّمة يقدُر بها نفسه وتقدُره أنت بها ؛ وتراه أفنديا نظيفاً يصحّ أن يجالسك وهو يجالسك من دون غضاضة عليك أو عليه . وتاميذو المدارس لايستحيون أن يقطعوا إجازاتهم فى مساعدة ذويهم على أعمالهم «جرسونات» فى المقاهى أو كتبة فى الفنادق أو

مساعدين للمناولة فى الدكاكين . أما الطربوش عندنا فاذا وضعه الأفندى على رأسه صار كمانعة الصواعق ، يمنع عنه كل فكرة تحوم به إلى العمل المثمر إلا الوظيفة والتبنّك على كرسيها ، وهاهى ذى الوظائف قد ضاقت فسيضطرون إلى النزول لميدان إخوانهم ولكن هيهات بين نزول الاختيار ونزول الاضطرار حيث الرغبة وحيث السأم وحيث عشق العمل وحيث سدّ الحاجة على نية التفصّى عنه لأول فرصة

(٣) والدين هناك محترم ورجاله معظمون ، يوم الأحد دكاكين النصارى مغلقة ويوم الجمعة دكاكين المسلمين مغلقة ، بل فى دمشق لا تزال الساعة تدور على عقارب الحساب العربى وأيان رأيت قسّيساً وجدت حوله هالة من عطف واحترام ، وفى دمشق وجدنا الشيخ بدر الدين الحسنى محدّث الشام يقعد له المستمعون يوم الجمعة فى انتظاره الساعة والساعتين والمسجد غاصّ بالناس ، وهنا تلمح عاطفة لاهى غربية ولاهى شرقية عاطفة التمرّد على رجال الدين واقتحام رجاله وخاصة من المسلمين وعلى الأخص من الشباب الناشئين ، وتسمع الرجل الذى تظنه عاقلا يُلقى كلمته الجوفاء لا يبالى أن تُصيب أكبر عمامة فى مصر وكأنه لم يأت أمراً إدّاً ، ونتيجة هذا وبال أخلاق وانحلال من الروابط التى عصَمَت سلفنا تلك الأحقاب بعِصَم الإسلام وإجلال علمائه حتى كانوا يقولون « النظر فى وجه العالم عبادة » ويقولون « من سبّ عالماً فكأنما سبّ نبيّا ومن سبّ النبى عدا المذهب » الخ نعم قد يكون هناك أسباب من أنفُس العلماء بعضهم مع بعض أو من حالاتهم الخلقية ولكن هذه الأسباب إن كانت خفّها أن تقصر على

دائرتها ، ولكن ما نحن فيه فمن ريح صرصر عاتية تنزع رجال العلم بلا جريرة ولا سبب إلا أن يشاء الله ويغيّر الحال

(٤) والصّحة هناك ظاهرة جيّدة والعيون لاتكادُ تجد فيها القذى فنتحسّر على صحّة المصريين وعلى ما نراه فيهم . اصفرار وهزال نشئا من تراكم السّكّان وضيق البلد بهم أعنى ضيق بلد الرزق وإلا فمصر أرضها تسع أمثالهم عشرات المرات فهى ١٦٣ مليون فدان لو وجدت من يستثمرها لا ثمرت كلّها جبلا وسهلا بلا تلكّؤ ولا ممانعة ، ولكن حبّ الطينة جعل السّكان يتراصّون ويتداسّون كأنهم « علب السردين » ، ورجال صحّتنا معهم أشبه بمن يحضر « الشّوالى » قبل اللبن فهم يحافظون على النّسل ويَحْمون الطفل ويمانعون الطواعين وأسباب المنون من غير أن يتّصلوا بمن يفكر فى عيش هذه الملايين اللاتى تزيد على السنين

(٥) لو أطلقت القلم للمقارنات لطالت وربما أملّت وربما أخطأت ويجوز أن نتأنى لها فيما بعدُ أما اليوم فيجزئ عنّى فى كتابة أهمها هذه النبذة ، أنقلها من مذكراتى (بنات التجارب والفكر) مقيدة فى سنة ١٩١٥ م تحت رقم ٦٢ :

ـ كنت مسافراً الى بيا ، فقابلنى الشيخ مصطفى عبد الرازق (تعلم فى الازهر ثم ذهب الى فرنسا) فتكلّمنا عن الحياة فى مصر وفرنسا ، فحدّثنى بما يحبّب فيها عند القوم . قال لى « أنا كنت هنا شابّا وكنت أحس بأنى هرم فلما ذهبت الى فرنسا أحسست بابتداء الشباب وميزته ورأيت عندهم نشاط الأمل بما لايقاس » قلت « إن هنا ارتباكا فى الحياة وقلّ

أن ترى من يَسْلَم من غمّ أو همّ أو فكر أو تبلبل بال » قال « ياليت يوجد عندنا المحزونون ، ان الحزن دليل على رقّة الإحساس ، أما ماتراه فى مصر فهو ارتباك جاء من تشويش الحياة » ـ ولقد عجبت هنا فى نفسى وفيمن رأيتهم ، أنّى أرى الألم فى معيشتهم أكثر من السرور والراحة ، إننا بعد أن خرجنا من المدرسة كأننا دخلنا معترك الهم وعالم الحزن ، عندنا خُلق ضارّ هو ما يسمى « سوء التفاهم » أوّل ما يتبادر اليك من قول أُخيك أو عمله إنما هو قصد الشرّ فتكيل له بهذا الصاع . للآن لم أر جليساً ، أو موظفاً مرءوساً أو رئيساً سمعته يتكلّم عن رجل فأوّلَ أعماله على قصد الخير ، ذلك كله انمـا هو من الظلم الذى تأصّل فى النفوس ولم تصنع التربية فيه شيئاً . أما الدين فلا أتـكلم فيه فان مصر ، مصر المتعلمة التى تزعم أنها راقية كادت تخلع بقية الرّبقة الباقية منه فى أعناقها فلا أثر له عندهم ، لقد كنت أشاهد آبائى وأعمامى رءوس العصر المنصرم يتكلّمون ويتحادثون وتجىء سِيَر الناس أمامهم فيحملونها على كلّ خير ويدفعون عنهم كلّ سوء وذلك من أثر تديّنهم ، أما الآن فنحن فى زمان كجلد الأجرب . اه

والنبذة قد تكون قاسية ، ولعلّ العذر فيها شباب القلم وشدّة الحقّ حين يقول الشباب الحقّ فلا يبله ببلال مابعد الشباب ، ولكنّ الواقع أن السائح متى عاد لمصر أحسّ فرقا ، وشعر كأن تقسيم الحياة إلى فصول منتظمة ليقضيها المرء فى سعادة ، هو تقسيم بعيد عن الحياة المصرية كثيراً أو قليلا بحسب الظروف والأحوال

المصرى الأحوى ـ الخاتمة

أما المصرى الأحوى الذى أكتب فيه فهو « أخى البربرى » ابن النوبة واسوان . لست أنسى يوما فى سنة ١٩٢٢ كنت فيه بالقدس فدخلت متنزّه البلدية هناك فلم أشعر إلا بضجة تشرح الصدر ، وكنت وزميلا لى بزىّ الشيوخ ، وفى المتنزه نوبيون أربعة « جرسونات » ما كادوا يروننا حتى تركوا ما أمامهم وهرولوا لنا ولاقونا أحسن لقاء ، لقاء الأخ لأخيه الغريب ، صفوا الكراسى ونظّموا المائدة ووقفوا على خدمتنا فلفتت حركتهم هذه جميع المتنزّهين وسرّتهم وسمعناهم يقولون « ايوه إخوتكم بارك الله فيكم » . وهذه الحركة عينها رأيتها العام فى فندق أمية بدمشق حينما لمحنا من به من النوبيين هرولوا للسلام والتحيّة وهم البرابرة الوحيدون الذين رأيناهم بلبنان وسوريا . أما فى فلسطين فآخر بلادهم حيفا وفيها يبلغ عددهم نحو تسعين ولهم ناد ، ومنهم رأينا الإخاء ورفعة الرأس المصرى ، وطنية من المصرىّ الأحوى نذرت إن كتبت أن أشهد لها وأشيد بها وأخصّ إزاءها ببعض المصريين البيض الذين صادف أن رأيناهم وكانوا وكأنّنا ما رأيناهم ، يغفر الله لهم وبارك فى سمر المصريين

***

وشارفت المركب أرض الوطن فتفزّزت النفس ومشى القلب فى الصدر وكِدنا نرى ماترى كأنه تمام لنا ، وكأنّ صائماً كان فى نفس كلّ

منّا فلقيه فهو يتشوّف أن يضمّه إليه

كنت ليلتها نِمتُ من أول الليل بعد أن غادرْنا يافا وَعهدى بماء البحر الأبيض تجرى فيه الفُلك كأنه ذائب الفيروز أو على الوصف الأدق كأنه ماء الزنجار (الجنزارة) فأنا أتقلّب على ريح الفجر وأسارق النظر من الطاق فأرى البحر كدراً واللون مغبرّا وكأن تيّاراً عائماً يغطّى ذلك اللّون الجنزارى ! هل للون الماء رائحة ؟؟ لا . ولكنى شممْت ريح مصر فى نومى من هذا اللّون الجديد إذ قد حسبَت أننا قُبالة دمياط أو رشيد وأن ما أرى إنما هو من النيل فكان ريح النمل روح الغبطة ودبيب النّشاط وأَحسست ثقل النوم وبودّي لو كان كالثوب أَخلعه

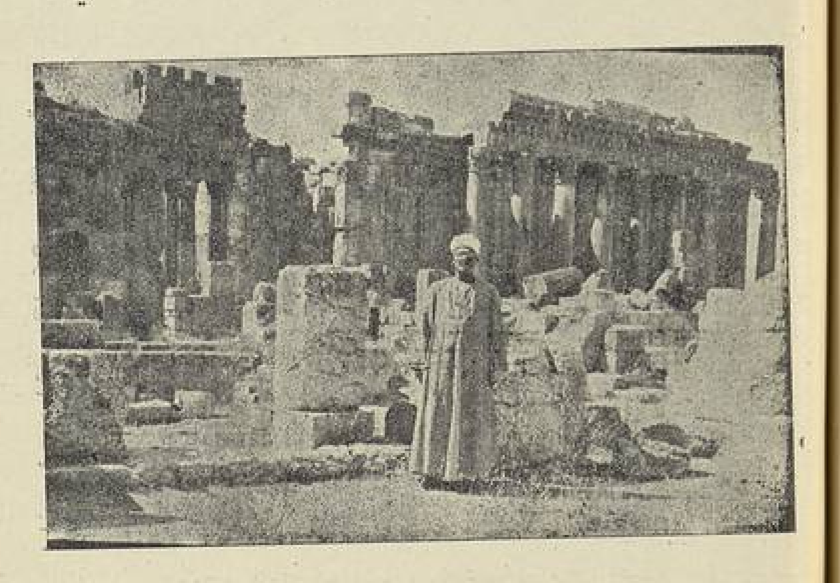
إن كان للغرباء الآئبين إلى أَوطانهم فرحتنا يوم أبنْا إلى مصر فما أَظن أن لهم سرورنا بمنظر الشاطىء المصرى ومرأى مدينة الإسكندرية وتسامى روح مصر على الوادى يتراءى للقادمين كأنه يقول لهم : هنا أَرض الخلود وأَرض الأجيال

غسل السفر أحقاد الفؤاد . وصفّى العقلَ من وساوس الإقامة والعمل ورجّ الجسم ومزج خلاياه بما لقيه ولاقاه ، وعاد المسافر كأنه خلق جديد يرى من يلقاهم كلهم إخوة على أَصل الفطرة يودّ أَن يرى بشاشتهم وينسى إساءتهم ، يريد أَن يستقِلّ قطار الحياة من محطة غير التى خلّفه فيها إلى وجهة ينشد فيها السعادة عسى أَن يجدها فى مصر كرّة أخرى

(كلمة شكر) كلمتى بالشكر للمقطم الأغرّ على تفضله بنشر رسائلى هذه التى كتبتها عفو الخاطر وأثر مابقى فى الذاكرة، ولو كنت أحسب مالقيته من اهتمام القرّاء بها لكنت أخذت مذكرات بما رأيت ودققت أكثر مما رويت ، على أن هذا وإن كان من الصعب الحصول عليه هناك لعجلة الظعن ولقلّة المواتاة فان لطف إدراك القراء أغنى الكاتب عن الإطناب.

وأخص بالشكر « بارومتر » الصحافة العربيـة صديقى الأستاذ خليل ثابت بك الذى ألقبه بحق « الدرّاكة » فهو منقطع النظير فى فهم حقائق الأشياء وإدراك ماحقه أن يُكتب ومالا يُكتب . وبفضل منه شجّع صاحب القلم على أن أتمّ رسائله فى سهولة جيّشت المعانى أمام قلمه. حتى استطاع تسطيرها بهذا البيان

الجيزة — تحريراً فى عيد الفطر المبارك سنة ١٣٥٠ هـ محمد سليمان



المؤلف فى هيكل بعلبك

كتب الرحلات ورسائل سائر

كلمة المقطم فى افتتاحيته يوم ٤ شوال ١٣٥٠ (١١ - ٢ - ١٩٣٢م)

ما برحت كتب الرحلات فى جميع اللغات فى مقدمة الكتب التى يُقبل الناس على مطالعتها لأن النّاس مولعون بالوقوف على شؤون أشباههم من جيرانهم والبعيدين عنهم ، ولأن هذه الرحلات تدنى منهم البعيد وترسم لهم صوراً يعلمون أنهم قد لايرونها بعيونهم ، والبشرية مفطورة على حبّ الاجتماع

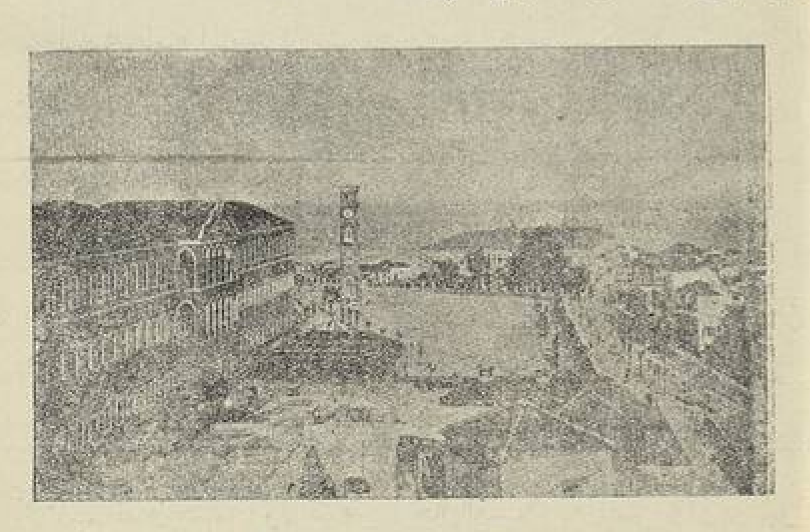
وقد نسى الناس أسماء ألوف من الملوك والامبراطرة والقواد والامراء والاغنياء ولكنهم لم ينسوا أسماء هيرودتس ، وعوليسوس ، وزنفون ، وكولمبس ، وابن بطوطة ، ودى غاما ، واستانلى وأمثالهم . ولاتزال رحلة ابن بطوطة من ألذ مادوّن من الكتب بالعربية

ومن النّاس من رزق قوة الملاحظة وحسن البيان ولهذا كان إعجاب القرّاء كثيراً برسائل سائر التى نشرت تباعاً فى المقطم وختمت بالرسالة المنشورة أمس ، فان كاتبها العالم الفاضل والقاضى البارع والكاتب البليغ الشيخ محمد سليمان العضو فى المحكمة الشرعية العليا جمع بين هاتين المزيتين وأضاف اليهما روح عطف كالتى صار الشرقى المهذب يشعرُ بها نحو أخيه الشرقى فيسعى للبحث عما يتجمل به من فضل وفضيلة ويعمد الى معرفته ودرس أخلاقه بما تنم عليه فعاله وأقواله وبناء قريته ومسكنه وما يحيط بهما وكيفية مقابلته لزائريه ومايبدو من مظاهر ثقافته فاذا رأى ماهو جدير بالنقد لم يُغمض العين عنه بل نبّه عليه بروح المحبّ الذى ينقد

ليصلحِ ولا يغمِز ليجرَح

وقد كان همّ كتّاب الرّحلات من الشرقيّين مُتجهاً فى هذه الأعوام الماضية الى موافاة مواطنيهم بوصف رحلاتهم الى بلدان الغرب ولهم فى ذلك كتب ورسائل كثيرة العدد ولكن قلّ من كلف نفسه درس هذا الشرق الذى نحن منه وهو منّا ، والذى كان بعيداً عنا فيما مضى فقرُب باصلاح المواصلات حتى صار البعد بين القاهرة وبغداد كالبعد بين القاهرة وأصوان

وعندنا أن الشيخ محمد سليمان وضع رسائله هذه مثالا لغير واحد من كتّاب الشرق نرجو أن يحتذوه وأن يعمل القادرون منهم على زيادة أسباب تعارف الشّرقيّين وتفاهمهم بما يدرسون من حالات أحوال شعوب الشرق ومزايا كل شعب وفضائله وعيوبه وحاجاته وجهاده وماميزته العناية به وما أفرغت من عطاياها وهباتها على بلاده ، فهذا الشرق عالم عظيم وفيه قوى كامنة والمستقبل له إن شاء الله . اه



دار الحكومة ببيروت

كتبت سنة ١٩٢٢ م

فى فلسطين

سكة فلسطين الحديدية

تمتدُّ سكة حديد فلسطين فى أرض مصر نحو مائتى كيلو متر لم تنزع ملكيتها للآن من أربابها ، ولا أُعطوا عنها تعويضاً بدلا من رقبتها أو منفعتها ، وهم لا يستطيعون أن يطلبوه ، ولو طلبوا ما أجيبوا !

ومعلوم أن لمصر فى هذه السكة شركة ، فقد قامت بيد العامل المصرى وساعدت مصلحة السكة الحديد المصرية فيها بقضبانها ومعاملها ورجالها و « عرباتها » وقواطرها ، ولم تُصَفَّ هذه الشركة للآن بين الحكومتين ، وأذكر أنه فى العام الماضى قامت عجاجة حول هذه السكة ببرلمان انجلترا انجلت عن وعد القوم ببقائها على ما هى عليه حتى يفصل فى أمرها بين الحكومتين فيما استبق للمفاوضات

أما حكومة فلسطين فكأنها لا تعرف هذا الوعد ولم تعترف به ، أَو لم تعلم أن لمصر شركة فيها ، أو لا تدرى أن هذه المائتى الكيلو من رفح الى القنطرة تدخل فى حدود دولة مصر المستقلة ذات السيادة ، فإدارتها وعمالها ولغاتها وجميع نظمها بحكمها وتحت أمرها من غير عهد منها ولا كتاب اتفاق بينهما ، ولم ترضَ لرجال العسكرية المصرية أن يركبوا فيها بنصف أجر ولا لرجال الدين المصريين . وفى العام الماضى طلبت ذلك

الى مديرها فبعد أن ردّ على بانتظار جوابه أجاب برفض الطلب آسفا. ومع ذلك، ومع أن أرضها مصرية تحرسها حكومة مصر وتقوم بحفظها وكل مايتعلق بها، وما من سكة حديد بمصر للحكومة أو للشركة إلا تخضع لهذه الميزة فانى لم أعاوده ولم أوسط مشيخة الأزهر لعلمى بالنتيجة سلفا.

هذه السكة مزدوجة الخطّ، وللتوسعة فيها ضُيِّق على مصر من أجل إنشائها، فكم من جَنْبِيّة مجنّبة بمصر رفعت، أو خطّ للسكة الضيِّقة بالصعيد أزيل، أو محطة بعيدة استغنى عنها، أو مخزن رفع منه أكثر قضبانه، ومع الوعد السابق ببقاء الحال على ماهو عليه فان حكومة فلسطين ابتدأت تنزع خطاً من هذين الخطين بكل مافيه؟ ويقال انها ستستقيم بها الى الاسماعيلية بدلا من القنطرة فتوفّر بذلك خمسين ومائتى كيلو متر أو ثلثمائة كيلو متر من قضيب الحديد تنتفع بها فى جهات أخرى من فلسطين. وقد رأيتها مبتدئة بنزع هـذا الخط فعـلا من رفح الى القنطرة، فأوجه إلى هذه المسألة العظيمة الشأن أنظار من تعنيهم المحافظة على حقوق مصر

بدء الرحلة

اعتزمنا السّفر إلى فلسطين فطالَعتنا أنباؤها بالمزعجات، وصادف يوم شخوصنا منتصف يوليو الذى ضُرِب موعداً فيها لمقاومة الانتداب، فلم نقلَق ولم ندْبِر إذ كان الاتكال على الله قويا، وليس يحزننا أن نرى

قوما من اخوانتا بنى الشرق يكدحون ويجدّون فى سبيل الحياة ، ولا خوف علينا إذ كنّا عن الشغب مبتعدين ، على أننا رأينا السكينة والهدوء فيما مررنا به من المدن والقرى وإن كان الكلام بدءاً وعوداً فى هذه القضية التى تهمّ أبناء تلك البلاد ولا يكادون ينسونها ، كما أنها تهمّ بنى الشرق قاطبة ، وقد أتيح لنا أن نختلط بطبقات عدّة وكنّا نتسمّع لهم فرأينا أحاديثهم تدور على ثلاث كلمات يكاد الإجماع ينعقد عليها «أولا» الحسرة والنّدامة على حكم الترك وتمنّى أيامهم أن تعود «ثانيا» الغضب على الشّريف ورميه بكل كريهة «ثالثاً» التواصى بمقاطعة اليهود .

بئر سبع

آثار ملك زائل شيدت على أمل الخلود

تلك آثار الدولة التركيّة ببئر سبع وغيرها ممّا رأيناه للآن بفلسطين، آثار ملك زائل شيدت على أمل الخلود ، فبئر سبع بلد كأنّه فى مناخه وأرضه وبنائه عين شمس أو مصر الجديدة ، أقامها الترك من نحو عشرين عاما على رسم الهلال ، فى سرّتها مسجد أفيح أفسح بمئذنة من طراز مآذن القسطنطينية ، وفى وسط الهلال «سراى» الحاكم وداره ومكان «البوليس» والمدرسة ودار البرق والبريد ، مبنيّة جميعها من الحجر الصلد على نظام يسرّ العين بهاؤه ورواؤه ، مبانيها ذوات سقوف من القرميد مدحيّة للمطر ، والشوارع واسعة متقاطعة ، وبها الماء والنور ، وفيها من بقايا الترك أيّام الحرب ما يهول منظره ويبقى على وجه الدهر يسجّل أن النصر

بيد الله يؤتيه من يشاء ، فلم يقيموا من استعداداتهم ماتقضى به الحرب ، بل أقاموها مشيَّدة من الصخر والحديد حتى «فنطاس» الماء موضوع على برج ؛ ومحطة الحديد مبنية بالحجر ؛ وهناك آبار حفروها على أعماق لاتكاد العين ترى فيها ماءها ؛ وسكة الحديد التى سافروا بها إلى قلب سيناء من المكدام ، ومفارش الحديد أشبه بقطع الخشب التى توضع عليها قضبان السكة فى ديارنا ، وقد نحتوا طريقاً آخر للعجل يمتدّ ثمانين كيلو متر من بئر سبع إلى القدس يمر فى وديان وجبال ، يتهم وينجد وكأنه خدّ العين من حسن استوائه ، فى متانة وظرف تنظيم ، وهناك أسلاك البرق والتّليفون وأنابيب الماء وما يسهّل الحرب مضوا بها إلى قريب من «نخل[1]» إذ كانوا ينوون أن يمدّوا سكّة الحديد إلى السويس نصّا مبتعدين عن الساحل وأساطيله ، ولا يزال المقاولون ينقلون تلك الآثار للباعة الذين استولوا عليها إلا قصوراً شاهقة فى قلب جزيرة سيناء لم تهدم ولا أظن هدمها بمستطاع .

وبئر سبع مركز كبير للاتّجار مع الأعراب وفيها الآبار السبع التى سُمّيت بها ، ويقال لها « بئر شيبة » وهى تحريف شعيب فإنها آباره أو آبار الخليل عليه السّلام ، وهى عذبة لاتنضب ، عليها السواقى عالية فوق الدابة التى تدور تحت دائرة تسمى عندنا « الكبير » وفوقه « الصغير » وبه سهم متصل بالساقية يديرها ، ولكلّ بئر حرم مزروع نامى

---

(١) بلد بسيناء كان عاصمتها أخيراً قبل مسألة الحدود المصرية التركية

الزرع بهيج

يرفرف العلم الانكليزى على دور الحكومة . وكنت أظنّ الانتداب لايطوى فى عامه مملكة انتدب لها كما فى العراق حيث رفعوا له علما ، وفى سوريا حيث أقاموا دولا بأعلام ، أما هنا فلا علم ولا دولة لفلسطين ومظاهر الحكم والسيادة والأمر والنهي للانكليز ، وقد استبدلت لغتهم بلغة التّرك ونشر تعليمها فى المدارس وحذفت تلك وسبحان من يداول الأيام بين الناس

الخليـــل

حَبْرون ، أو الخليل : أو خليل الرحمن ، مدينة حسنة البنيان ، مورقة الأغصان ، ذات كروم وعيون ، واليها يُنْسب العنب الخليليّ ، وترى دورها كأنّها أشجار ؛ وفى وسطها المغارة المدفون فيها سيّدنا الخليل ابراهيم عليه السّلام ، وهى مغارة فى «حَبْرون» التى استوهبها تميم الدارى رسولَ الله ﷺ ومعها ثلاث ضِيَع قبل أن يفتح بها على المسلمين فكتب له بها ولا تزال ذرّيته فى قرية منها الى اليوم ، يحيط بها على أبعاد تكاد تكون متساوية كروم العنب وأشجار الزيتون والفاكهة وأرضها صخريّة صلدة وطينها جيد تنمو فيه الخضر والزروع نماء كأنّه يُسقى بماء النيل ، ويُشَمّ أريجها والشمس فى طفلها تلق أشعّتها على تلك الأغوار المكسوّة بالأشجار وهي من أبهج ما تراه العيون وتقرّ به النفوس .

وبيوتهم مقبّبة لاخشب فيها ، وهى أشبه بما تراه فى مصر من

الحمَّامات إلاَّ أن هذه من الحسن وجمال المنظر بحيث يظنّ الغريب أكثر الدور مساجد ، وكذلك يظنّ هذا الظنّ فى بيوت « بيت لحم » لضخامتها وبقاء الشرقيَّة عليها . ولها عيون تتفجّر من الجبال ولكل حارة عين فيها ، وفى بعض الدُّور والمساجد عيون خاصَّة ، عليها المضخَّات وماؤها نمير سائغ عذب يروى الغليل ويشفى العليل

ركبنا من بئر سبع إلى الخليل على « كرُوسة » جاءتها مصادفة يوم أحدٍ فانتهزناها فرصة وقضينا عليها ثمانى ساعات فى طريق شقّه الأتراك وهو يبتدىء من القدس إلى بئر السبع وقد يعلو النجاد ويتهم فى كل واد بهندسة لولبيَّة فى منازله ومصاعده ، مرقوم بحجر على كل كيلو متر منقور فيه عدده ، وعلى كلّ خمسة كيلو مترات دار أقاموها لحرّاس الطّريق ومصلحيه ، وقد نزع الانجليز أنصاب الحجارة من القدس الى الخليل فلم نرها ؛ وأمَّا من الخليل الى بئر سبع فقد بقيت ورأينا على رءوسها أعدادها بلغتهم مكتوبة بالحبر الأحمر فوق نقر الصَّخر الذى نقره التُّرك للأعداد والطريق من الخليل للقدس معْنىٌّ بها ولا تكاد السّابلة والحاملة تنقطع منها . وأما مابين الخليل وبئر سبع فقد كاد يهمل وتطرق اليه الفساد .

زُرْنا خليل الرحمن عليه السلام فى مسجده الذى شيّده المسلمون فوق مغارته ويقال ان سوره من بناء سليمان عليه السلام ؛ ولعل ذلك لعظمه وضخامة أحجاره وسمك جداره ، وذكروا لنا أن بنى أميّة هم الذين شادوا بنيانه وفيه أعمدة على طراز مسجدهم بدمشق ، وتولاَّه سلاطين الأتراك بالاصلاح وآخر ما كان منهم أستار القبور الشريفة من نسيج

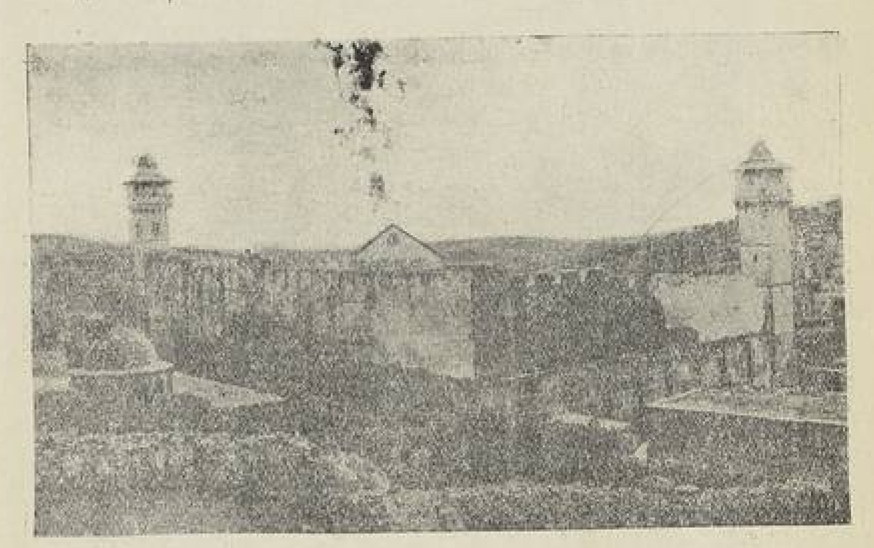
القسطنطينية بأمر السلطان عبد الحميد رحمه الله ،وله لوح من الرخام فى المسجد سنـة ١٣١٣ هـ وقد أمر بكتابة سورة يس على جبينه فعمّت جهاته الأربع كعصابة الرأس. وفى مدخل الباب آيات من القرآن الكريم فيها ذكر ابراهيم عليه السلام . ورأينا هناك حجرين فى جداره الايسر ، أحدهما قيل انه باللاتينى ، والثانى من المرمر منقوش فيه اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأنه أمر أميره تنكيز الناصرى كافل الممالك الشريفة الشامية باصلاحه وانشاء هذه الرخامة فى سنة ٧٣٢ هـ . وللملك الناصر هذا وأشباهه فضائل على أهل الخليل يذكرونها بكل لسان ممزوجة بشكر المصريين ، فهو الذى أنشأ بركة الحاجّ وقد رأيناها لسقاية المحملين المصرى والشامى ، ووقفوا على المسجد ما يَرِيع أكثر من ستة عشر ألف جنيه فى العام ، وقد حدثنا قاضى البلد أنه يصل الى عشرين ألفاً تفيض عن المسجد فينتفع بها أهل البلد أكثرهم ، وهناك رخامات نقشت عليها أشعار للسلطان عبد العزيز سنة ١٢٩٠هـ وكتابة كوفية على جبين المنبر وغيره شىء كثير

يحيط المسجد بقبرى سيدنا إسحاق وزوجه رفقة عليهما السلام ، ويواجهك من بابه قبر السيّدة سارّة وأمامها قبر أبينا ابراهيم وبينهما طريق الى صحنه وبعد الصحن الى الشمال قبرا سيدنا يعقوب وزوجه لائقة ، ويحيط بالجميع سور سليمان الضخم الذى ارتفع به سلاطين الاسلام حتى أعلوه وسقفوا عليه المسجد والقبور ، فكأن هذا الغار يحوى أولئك الأنبياء الثلاثة على أبعاد متساوية توازيها قبور زوجاتهم ، ومن وراء

السور قبر سيدنا يوسف عليه السلام ، وليست الانصاب التى كسيت بستور الحرير والذهب أبنية القبور ، لا ، وإنما هى علامات فوق تلك العظام الشريفة، وهى فى غارها على عمق يقال انه ٤١ درجة ، وكان فى المسجد على يمين المنبر طاق يهبط منه على درج يفضى الى ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ، ويقال انها محاذية لها قال ابن بطوطة فى رحلته : (وقد نزلت بهذا الموضع مرات وكان هناك مسلك الى الغار المبارك وهو الا ن مسدوداه)وقد حدثنا قاضى البلد أن جده ولّى نظارة الاوقاف فسدّ هذا الطاق أيضاً ، وقد رأيناه نحن مسدوداً ورأينا أمامه فى شمالىّ المسجد طاقاً معلقاً فيه قنديل رأينا به تلك السّاحة وباب الغار. حقق ابن بطوطة مدفن الخليل فى ذلك الغار ، وذكر مثله السيوطى فى حسن المحاضرة . وقد ذكرنا لهم فى الخليل أن الصلاة فى هذا المسجد هى الصلاة على القبر المنهى عنها . فقيل لنا : أن اعيان القبور عرفناها وعلّمناها بتلك الانصاب عليها فلا بأس من الصلاة فى غيرها وقد مضى السلف على هذا . وفى مدخل المسجد ست درجات عليها علامة فى الجدار لليهود لايتجاوزونها إذا جاءوا لزيارة الخليل ابراهيم وأبيهم يعقوب الذى هو اسرائيل . وهناك فى شرقى المغارة قبر يوسف عليه السلام بعد سور سليمان ، وقد ذكر السيوطى أن عظامه عليه السلام جعلت فى صندوق من الحديد مكث مقبوراً بمصر نحواً من ثلاثمائة سنة فلما خرج موسى ببنى اسرائيل حملوه معهم الى بيت المقدس والله أعلم بالحقيقة . وذكر مثل هذا عن يعقوب عليه السلام لما مات بمصر فقد أوصى أن

يدفن بمغارة حبرون مسجد ابراهيم فلطخوه بمر ّ وصبر وجعلوه فى تابوت من ساج وخرج به يوسف من مصر ومعه أشرافها حتى دفنه ثم انصرف

يضاء المسجد اليوم بكهرباء من آلة خاصة به وهو بالليل بديع المنظر والنهار فيه ضياء من أنوار أولئك الانبياء على نبينا وعليهم السلام



﴿ مسجد سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ﴾

منبر المسجد — ومما يحسن ذكره أن منبر هذا المسجد قنية غالية من تفحات مصر . كتب إلىّ العالم الباحث احمد زكى باشا « والكتاب يطبع » أن هذا المنبر أثر من أعظم آثار الفاطميين بقى بكماله وجماله الى اليوم عمله بدر الجمالىّ أيام المستنصر لمسجد عسقلان المنسوب لرأس الحسين « رضى الله عنه » واستظهر مجد الدين صاحب « الأنس الجليل » أن صلاح الدين هو الذى نقله لمسجد الخليل ورجح الباشا هذا الاستظهار إذ قضت ضرورة الحرب الصليبية على ذلك السلطان أن يخرب عسقلان ، والمنبر نفسه

يوضح تاريخه فى جبهته منقوش بالكوفية بعد البسملة مانصه (نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معدّ أبى تميم الامام المستنصر بالله صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه البررة الأكرمين صلاة باقية الى يوم الدين ، مما أمر بعمل هذا المنبر فتاه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصرى ، عضد الله به الدين وامتع بطول بقاء أمير المؤمنين أدام الله قدرته وأعلى كلمته للمشهد الشريف بثغر عسقلان مسجد مولانا أمير المؤمنين أبى عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليه فى شهور سنة أربع وثمانين وأربع مائة) اه

قال الباشا : وهذا خط واضح ، أمّا ما على جوانب المنبر ففيها قوله (.. وكان من معجزته تعالى إظهاره رأس مولانا الامام الشهيد أبى عبدالله الحسين بن علي بن أبى طالب صلى الله عليه وعلى جده وأبيه وأهل بيتهم بموضع بعسقلان كان الظالمون لعنهم الله ستروه فيه .... الخ) وفى جانب آخر ان ظهوره وإظهاره كانا فى أيام أمير الجيوش « فاستخرجه من مكانه وخصه باجلاله وكريم مقامه وتقدم بأنشاء هذا المنبر برسم المشهد الشريف ... »

مشاهد الخليل

بعد أن قطعنا خمسمائة كيلو متر الى الخليل وجدنا أنفسنا أمام الحرم الشريف عند أذان المغرب أول ماسمعناه هناك وإذا بنا فجأة وقد نسينا مشاق السفر ، فى غار حبرون أمام مقام سيدنا ابراهيم وآله الذين نصلى عليهم ونسلّم ونبارك فى كل صلاة كما نصلّى ونسلّم ونبارك على سيدنا محمد وآله فى العالمين . أولئك الألى تجرى صلواتهم فى مشارق الأرض ومغاربها على لسان كل مسلم فى كل تشهّد من يوم جاء الاسلام الى أن تقوم الساعة تحية مباركة من الله ومن عباده المؤمنين لمن أنعم عليهم من الأنبياء المطهرين ، ورأينا قبر الخليل أبى الأنبياء وخليل الرحمن فتمثّلنا أبانا ابراهيم الأوّاه الحليم ، أوّل من سمّانا المسلمين ، وشرع الحنيفيّة السمحة ، مكرم الضيف بالعجل الحنيذ ، ومضرب المثل فى الجود والكرم حتى لقد قيل سُمّيت مدينة حلب لأن مبتغيه كانوا ينتظرون فيها كل غدوة وعشية يقولون حلب دوابّه ليشربوا ، وأوّل من استدلّ على الله بآياته (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكوننّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجّهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) وأوّل من أقام الحجة

على أبيه وقومه فى عبادة الأصنام إذ كانت مما عملت أيديهم ؟ ثم راغ عليهم ضرباً باليمين وقال « بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » وأول من رفع القواعد لاوّل بيت وضع للناس بمكّة مباركا وهدى للعالمين ، والذى صدَّق الرؤيا وقدّم ولده للذبح استسلاماً لأمر ربه الأعلى حتى أكرمه وفداه بذبح عظيم وجعل الفداء سنته على وجه الدهر ماضية ، ومشاهده فى مكة لازالت الى يومنا هذا شعائر الحج وعمل الحجيج ، وهُداه الذى أمرنا أن نقتدى به ، أبو الانبياء وشيخ أولى العزم وسيّد من أجمعت على احترامه الديانات كلها ، وعظّمه أتباعها أجمعون من يهود ونصارى ومسلمين ، فهو السَّلام عليهم ومنهم له السَّلام تمجيداً لمعجزاته الثابتة التى اختصَّه الله بها إذ قال للنار التى أعدّت لحرقه : « يا نار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم » فمضت معجزته أبد الأبيد . وعقِدَت عليه أواصر المحبّة ، والتقت فى رحابه بسلام تلك القلوب التى أحرقتها نيران الاختلاف وحرّ التنابذ . تمثَّلْناه هكذا بجماله وجلاله فى قبره الذى به ، وفوقه ستور الحرير والقصَب كأنها طيالسة فوق تلك المناكب المباركة والذات المكرَّمة ، وفوق حجرته آية القرآن (سلام على ابراهيم) فحَيَّيْناه بها وبالقلب إخبات ، والجسم هامد ، وقشعريرة الذكرى تسرى فى كل خليّة فيه فتفيض من العين دمعاً ساخناً وآهة كآهته فى حياته عليه السلام ، ودعونا الله فى مشهده لخلقه أن يهديهم سبيل الرشاد ، ويرفع عنهم إصرهم والأغلال التى عليهم ، وأن يُبرد عنا تلك النار التى أجّجها قوم من الطامعة أوقدوا الدنيا جمراً فعادت

لا تطيقها نفوس ولا تصبر عليها أجساد وذلك عمل القوم المفسدين

وأمام قبره الشريف قبر زوجه سارّة العجوز التى أقبلت فى صرّة حينما بشره الملك بولده إسحق فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم لا تلد ولا يولدها زوجها ، قال كذلك قال ربك ، فرزقت بإسحق النبيّ الكريم ابن النبيّ الكريم ، ورأينا قبر سيّدنا يعقوب الذى ابيضّت عيناه من الحزن ولم يشك بثّه وحزنه إلا إلى الله فعوّضه الله من عسره يسرا وألقى البشير على وجهه قميص يوسف فارتدّ بصيرا ، وجمع الله شمله بعاقبة صبره على بنيه وقد مكّن الله لصدّيقه منهم فى الأرض لأنه اتّقى وصبر كما قال لإخوته (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين) وعزّ على مصر ، وقام على خزائنها ، فوقاها الجوع والقحط وما حواليها سبع سنين دأبا بعد أن هندسها ووزن أرضها وساق الماء اليها راحة بلا تعب ، وبنى الفيوم وسوّاها ، وأبْقَى له فى مصر كلّ صالحة : أولئك آل ابراهيم الذين سعَيْنا إليهم ونلنا من بركات المثول فى حضرتهم : أهل البيت الذين رحمهم الله وبارك عليهم بلسان ناموسه الاعظم جبريل الأمين فى قوله (رحمة الله وبركاته عليكم آل البيت إنه حميد مجيد)

وصعد نامئذنة الحرم فإذا بناثرى البلد كفراشة ذات أجنحة قامت من بطن الوادى وتعلَّقت بسفوح النجاد فوصلت منها إلى قممها أو أوساطها أو خلاخلها فى درجات تتخلّلها البساتين مفجّرة فيها العيون ، وتمدّ الطرف إلى أقصاه على خضرة من أشجار قامت فى صخور الجبال ، وزروع نبتت بين مخلّلات الصخور كاسية أغوارها وسفوحها ثوبا من غثاء أحوى

وقطيفة كماء البحر أو بساط الزبرجد أو زرقة السماء ، والوديان محمرّة
بطينها الطفلى هابطة إلى القاع صاعدة فى السفح بالخضر والأعناب أشبه
ما تكون عندنا بزرع الطماطم ولا موضع للعين فى غير اخضرار فسبحان
مالك الملك الكبير المتعال . ورأينا فى سور الغار السليمانى صخراً من حجارة
جداره الأيسر بظاهره ، طوله خمسة وثلاثون شبراً فى عرض متر وبعض
متر ، وقد شبره ابن بطوطة سبعة وثلاثين ولا يزال فى متانته وإن كان
شقّ فى رأسه الشمالىّ بدأ يظهر فيه عرضاً ، وبالخليل مزار سيدى « على
البكّاء » وهو مسجد أو زاوية على بابها مئذنة قصيرة قيل لنا إنه
ليس فى الشام لها مثيل إلا مئذنة واحدة . فذكرنا مئذنة مسجد « المعينى »
بدمياط وقد ذكره فى خططه المقريزى وهى ممشوقة ذاهبة فى الجو
صعدا على منظر بديع فوق قنطرة الباب الشرقىّ العالى العقد والبهىّ
الرُّواء ، قيل ان بانيها فخر بهندستها وقيامه بها فوق عقد الباب نسيج
وحدها فى عالم المساجد ، فبنى تلميذه فى المسجد عينه مئذنة بمغربه تفنّن
فيها بأن جعل لها سلّمين يصعد عليهما الرجلان ويهبطان فلا يرى احدهما
الآخر ، وقد بقيا حتى هدمت لجنة الآثار إحداهما وبابها لا يزال ظاهراً
بها للآن ، وكان ذلك المسجد بجوار دارى أيام كنت بدمياط ، ومما يذكر
هنا بحسرة عن مسجد المعينى هذا أن مهندس الآثار قدم الى دمياط من
بضع سنين فرأى حجارة كأنها ناشزة تحت مسند باب المئذنة الأيسر
لم يفهم سرّها ، والمرء عدوّ ما جهل ، فأمر بإزالتها ، فما رفعها حتى مالت
المئذنة نحو اليسار لولا أن تداركوها بأسندة من الخشب الضخمة أقاموها

حواليها فى واجهة الباب ، ولا زالت للآن شوهاء تنادى بحمق الخلف ، وحذق السلف (وبلغنى الآن أنها سقطت)

رجع الى مسجد البكّاء ـ فقد قصُّوا علينا حكاية عن صاحبه أضربنا عن ذكرها إنما الذى وقف النظر حجر نحو ثُمن متر مكعب موضوع فوق سارية رخامية صغيرة بروشن المسجد ، مرسوم على وجهاته الثلاث أسد متلفع بثعبان ، وكل رسم متّصل بجاره كأن الأسد يعاطى الثعبان والثعبان يعاطى الأسد ، وقال قوم إن هذا رصد المسجد ، وآخرون رووا عن السلطان عبد الحميد أنه سووم عليه بمال كثير فأبى فيه عطاء رغم ما بالغوا فى ثمنه ، ولعل هذا لفرط حسنه وبديع نحته وأنه يكاد ينطق كل جزء فيه ، وحقاً إن حياة الفنّ فى المشرق غارقة فى الأزل

وقبل أن نغادر الحرم نذكر عادة خدمه الحسنة ، فإنهم لايفتحون قبور السيدات أزواج الأنبياء للزائرين من الرجال ويعدّونه تهجماً على الحرم لايليق فيكتفى بالسلام عليهن من طيقان أبوابهنّ الفضية ، أما مفاتيح الأبواب فيحملها أفراد منهم بالمناوبة ، وندر أن تدخل تلك القبور الطاهرة فى مرة واحدة لتعدد القوّام وتفرقهم اللّهم إلا إن كان وقت صلاة

شرّقنا ساعتين إلى بنى نعيم (أو بنى كرين) كما كتبت فى الخريطة فى طريق صخريّة لولبية الى حرم النبى «لوط» وهناك فى القمّة مسجده ويحس قلبك من نوره أنه نبيه ، فتلونا ماجاء عنه فى القرآن بجوار قبره ، وآوينا عنده الى ركن شديد آوى اليه فى وقت الضيق فنصره وعصمه ،

وترى من مئذنته أماكن مدائنه التى قلبها الله تعالى وقد مسخت وساخت فى الارض فصارت بحيرة تسمى : (بحر لوط أو البحر الميت أو بحر الشريعة) ومن العجب أنك تقدّر بينها وبينه مسيرة قِطْع من الليل الى الصبح ، إذ امِر أن يَسْرِى بأهله بقطع من الليل ، فلما نجا ووصل ، صبّحهم العذاب وأمطر الله عليهم حجارة من سجّيل مسوّمة عند ربك المجرمين ، ولا يزال يراها عباده العادون إلى يوم الدين ، وهناك فى مسجده صهريج مملوء بماء المطر يتمنّى المتمنّى شربة منه كأنها من السلسبيل .

ثم ودعناه إلى المدينة فى طريق مغرّب فى الصخر نحو ساعة إلى مسجد «اليقين» وهو بناء من حجر قائم فى أرض من حجر . لا أنيس عنده ولا جليس ، وقال ابن بطوطة من نحو ستمائة سنة وكسور كان بجواره دار قيّمة ولم نر له قيما ولا جارا ، وفى وسطه قطعة صخر منخفضة عن أرضه نحو شبر عليها سور حديد ولها قِبلة إلى قبلة المسجد لاتسع إلا مصلّياً واحداً وفيها آثار قدمين قيل إنهما قدما سيدنا الخليل حينما سجد شكراً لله تعالى على إهلاك قوم لوط (ابن اخته) والقبلة قبلة المسلمين إلى مكة كأنه عليه السلام لم يكن يتوجه إلى بيت المقدس على ماهو المشهور ، وقسنا موضع قدمه (شبرا وخمسة قراريط) وبجوارها مغارة بها قبر فاطمة بنت الحسين بن علىّ عليهم السلام ، ولهذه السيدة مسجد بالقاهرة مسمّى باسمها وقد قرأت سيرتها فى الأغانى كله فلم أرها خرجت من المدينة ولا ذكر مدفنها فى هذا الصخر النائى ، فلعل أهل العلم يبحثون

عن هذه الحقيقة ، وقد رأينا مصرياً عنى بقبرها و نقش عليه لوحين من الصخر بخطٍّ كوفيّ لم نستطع قراءته لولا ابن بطُّوطة فطبقنا من رحلته ماقرأناه به ، لوح على يسار الداخل فى جانب الجدار مكتوب فيه بالنَّقْر (بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ماذ رأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفى رسول الله أسوة . هذا قبر أم سَلَمَة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه) واللوح الثانى على أعلى القبر الى يمين الداخل ، ويقول ابن بطوطة إن أحدهما كان أسفل القبر والآخر أعلاه ، فلعل الذى كان أسفله نقل على يسار الداخل فى الجدار ، والله أعلم ، ونقش هذا اللوح (صنعه محمد بن أبى سهل النقّاش بمصر) وتحت ذلك هذه الابيات :

أسكنت من كان فى الاحشاء مسكنه ... بالرغم منّى بين الترب والحجر
يا قبر فاطمة بنت ابن فاطـــمة ... بنت الأئمّة بنت الأنجم الزهر
يا قبر مافيك من دين ومن ورع ... ومن عفاف ومن صون ومن خفر

وغرّبنا ثانى يوم من المدينة نحو ساعتين إلى قرية تدعى «دوره» كأن بيوتها قبور منقورة فى نجدها ، إلى قبر النبي نوح عليه السلام ولما رأيناه لم نشعر فى قلوبنا ببشاشة أنوار النبوة . وحدّثنا بذلك بعض المطّلعين فقالوا إن لنوح عليه السلام حرما فى الكرك كبيراً مقصوداً وكذلك كنّا نقرأ عن الكرك « كرك نوح » فى كثير من الكتب ، ولا ننسى أن جلال ذلك القبر هديّة من مصرىّ زار قبره فكساه

وركبنا الأوتومبيل نحو ربع ساعة فى غرب الخليل إلى «المسكوبية» وهناك شجرة البلوط التى ارتكن عليها الخليل من أربعة آلاف عام

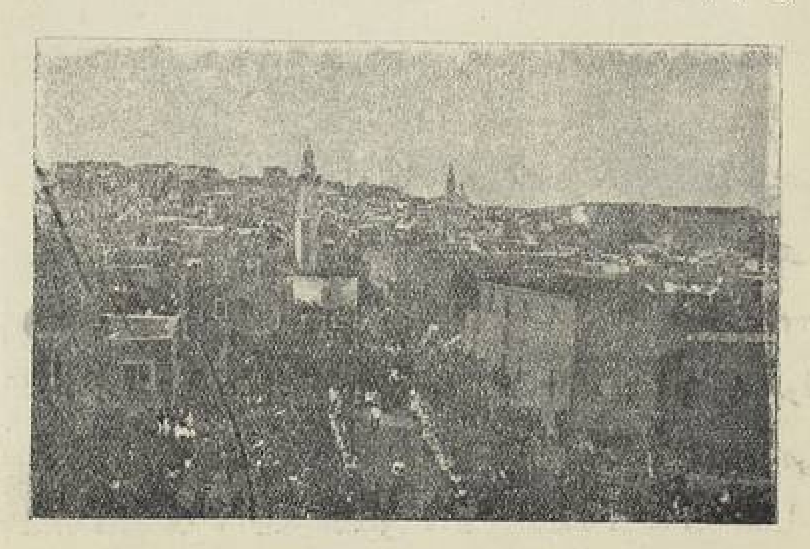
محاطة بسور من حديد ومسندة بسواعد حديد وهى ضخمة تخطاها الكبر وبجوارها نُزُل للمسكوفيين إذا قدموا لحجّها ، وهى تحت أيديهم ولا يستطيع أحد أن يأخذ منها غصناً أو شظيّة وكانت الحروب قد قطعتهم من سنين ، وهؤلاء لهم ذكر فى بلاد فلسطين ، فهم أكرم الحجاج على الأديرة والكنائس وأكثرهم وأتقاهم فى دينهم ؛ وقيل لنا عنهم انهم يقدمون من القدس الى الخليل مشاة ، ورأينا لهم منازل وفنادق فى الطريق معدّة لهم ، وبجوارها كنيسة لها منارة رأينا منها البحر الابيض المتوسط ولم يبق هناك إلا عجوز وبعض النواطير ، ومكر بنا سائق الاتومبيل فلم يعرج على « حلحول » بلد النبي « يونس » فودّعناه عليه السلام ونزلنا فى بيت لحم عند مولد المسيح على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام

بيت لحم

« أنت يا بيت لحم لست الصغرى بل منك يخرج مدبّر شعب إسرائيل »

هكذا ورد فى نبوءات « أشعيا » وهى المكان القصيّ الذى انتبذته مريم البتول الطّاهرة لمّا حملت بالسيّد المسيح روح الله وكلمته فوضعته هناك فى تلك القرية لست خلون من كانون الثانى سنة ٣٣٣ للإسكندر أو سنة ٣٣ ق م ـ لا خلاف بين العلماء فى أن بيت لحم مولد سيدنا عيسى عليه السلام وهو مذكور فى القرآن بوصف المكان القصى وحقاً انه قصيّ عن « المكان الشرقيّ » الذى انتبذته مريم من أهلها ،

ولا زال للآن فى شرق بيت المقدس عليه قبّة عالية ويعرف بالمهد ، وبين المكانين نحو ١٢ كيلو متراً ، وإنها لمسافة طويلة على السيدة مريم التى وهبتها أمها حنّة بنت فاقوذ لله وسمتها بهذا الاسم ومعناه فى العبرية (العابدة) وكانت بنت ثلاث عشرة لما حملت بالسيد الأكرم من روح الله وهى فى مكانها الشرقى محتجبة عن أهلها ، فلما أحست الحمل خرجت كأنها تستر نفسها فباعدت إلى بيت لحم وهناك رأت آية الله الكبرى إذ جاءها المخاض إلى جذع النخلة والوقت شتاء والشجر يابس فاخضرّت الشجرة وأثمرت فى غير أوانها وناداها من تحتها أنْ هزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . هناك فى مكان الوضع أقامت القديسة « هيلانة » فى القرن الرابع كنيسة ضخمة تعرف بذات العمد أو كنيسة الميلاد يقصدها الناس من جنبات الأرض وبها أو بمكان الوضع منها ذكرت بيت لحم وطار صيتها فى الآفاق



بيت لحم ايام عيد الميلاد

وصلنا لها من رحلتنا فى المساء فتذكرنا توًّا ما جاء عنها فى بعض أحاديث الإسراء قال صلى الله عليه وسلَّم : لما اسرى بى الى بيت المقدس مرَّ بى جبريل على قبر ابراهيم فقال : انزل فصلِّ ركعتين فإن هنا قبر أبيك إبراهيم ، ثم مرّ بى على بيت لحم وقال : انزل وصل ركعتين فإن هنا وُلِدَ أخوك عيسى عليه السلام ، وتذكرنا ما جاء به الانبياء من الإخاء وأنهم فى الدعوة أخوان حكماء يتمّ الثانى للأول ما ناسب زمانه وينسخ من شريعته بأمر الله مافات أوانه ، مصدرهم شرعة واحدة ، من ربّ واحد ، وغايتهم إتمام مهمّة واحدة هى صلاح العالم

وسَمِعنا أول ما قدمنا أذان المغرب وما كنا نتصوّر أن نسمع الأذان من « بيت لحم » مولد النصرانية : فإذا بمسجد هناك ومسلمين يساكنون المسيحيين فى بيت مسيحيتهم وقد ألَّفت بينهم طوارق الحدثان ورأينا البلد أنيق البناء ، شاهق العمران ، ظريفاً لطيفاً ، وجئنا مكان سقايته والماء يسيل لها من عين فى أنبوب على أمد غير بعيد وقد ضبطوها بالصنابير فرأينا بنات (بيت لحم) يستقين بالقِرَب والصفائح على ظهورهن

وأصبحنا على زورة الكنيسة فاذا بصفّين من عمد ممدّدة كأنها أعمدة الهياكل المصرية : أربعة صفوف فى أحد عشر عموداً ، وكان الأرمن يصلّون ومذبحهم موضع الميلاد فأبى الشماس أن ندخل عليهم فانتظرناهم ثم هبطنا إليه فاذا مكان مظلم يوقد بالشموع فى رسم الصليب ، باباه من الشمال والجنوب فى خط مستقيم ثم نقر من المغرب الى المشرق ينتهى

بباب مغلق على مغارة الملك هيرودس الذى ينسب اليه قتل أربعة عشر ألف طفـل أو يزيدون ، وفى ذلك النقر الى يسار المُغرّب النقب الذى ألقت فيه مريم بابنها بعد أن وضعته كأنه جيب الزاوية . ففى مكان المولد دقّوا قطعة فضيّة كرسم النجم علامة على مكان الملامسة ، وقيل انها كانت ذهباً وسرقت من ذات الشحناء بين فرق النصارى ، وفوقها صفان من القناديل ستة عشر ، لكل فرقة منهم عدد معلوم ، ومن فوقها علقوا أمثالها لأمثالهم من قديم لا يزيدون ولا ينقصون ، وفى هذا المكان المطهر يجلس عسكرى من قبل الحكومة مناوبة بالليل والنهار يحرس لا يغفل . وقد أقامته الدولة العليـة إذ تعبت من تلك الشحنـاء وما تجريه فى تلك الأماكن المقدسة من سرقة أو زيادة ونقصان فأراحت بالهـا بتولى حراستها بنفسها وورثتها فيها حكومة الانتداب ، ورأينا مذبح اللاتين على عظم متفرّد به بين مذابح غيرهم . وهنـا يجب أن نذكر عن اللاتين وهم الكاثوليك الذين يتبعون البابا ويقطنون جنوب أوربا ، وعن الروم الارثوذكس وهم المسكوف وأهل البلقـان أنهم هم المتفرّدون بالعزة فى الارض المقدسة ، فالعزة فى كنيسة الميلاد للاتين ، وفى كنيسة القيـامة اختص الروم الأرثوذكس بحراسة القبر المقـدس وصورة السيدة مريم المجوهرة الغالية الأثمان ، وأكثر الكنائس والمشاهد وأكبرها وأقدمها بأيدى هؤلاء وهؤلاء ، ولا ننسى عزة اخواننا الاقباط فى كنيسة القيامة فقـد اختصوا من بين فرق النصرانية بإقامة مذبحهم على جـدار القبر المقدس مكان الرأس مما يحسدهم عليه كثير

خرجنا من كنيسة المولد إلى غار الحليب وهو الغار الذى يقال ان السيدة مريم خرجت اليه بعد الوضع وأرضعت فيه روح الله ، ولا تسل عما فيه من زخرف وتزيين ، وليس ببيت لحم من المشاهد غير هذين المشهدين فيممنا منه القدس الشريف وهو شماليه مشرقا

وفى بيت لحم جرى لنا حادثان فكيهان ؛ فقدكان فى النزل الذى نزلناه ضابط « الضابطة » فلما رآنا شيخين رغب إلى أحدنا أن يعطيه ثيابه يتخفى بها على العسس ويسمون الواحد منهم (حرسى) وزعم أن حفظ الأمن العام يهمنا نحن السفار ومما يقويه تخفيه بثيابنا ، فأذعن له رفيقى وأعطاه ما اشتهى من عمامة وجبة وقفطان طلع فيها كأنه مجاور صميم ، ولكنه سار وقبله عسكرى فلم يخف على الحرس ، وقد سألنى أحدهم وكنت أسير فى البلد ليرى إن كان من الحكومة فيهتم به أو منا فلا يسأل فقلت له تحر أنت بنفسك واتخذ الاحتياط

والثانى أن شماس كنيسة اللاتين أمرنا أن ننزع عمائمنا وندخلها حاسرين، فسألناه السبب وقد عرفنا دليلنا « أنطون » أن الأمر جديد ، فاحتج علينا : (لماذا تكلفوننا أن نخلع نعالنا لدى المساجد ؟ فكذلك أنتم تفعلون) فأبينا عليه وقلنا له : متى كانت العمامة والنعل فى مكان واحد ياهذا ؟ فتمتم ورطن على أنطون ماشاء أن يرطن . وقد شاهدنا نساء بيت لحم يتزين بقميص فضفاض يغلب أن يكون سواداً مع نطاق أحمر فوق صدار مشغول بالحرير وعلى الرأس طرطور مرتفع ثم يلقين على رءوسهن ملفعة بيضاء تسترهن الى الصدور ، وأما البنات فعلاماتهن ألا يضعن

هذا الطرطوز وباقى الزّى بحاله ، وتراهنّ فى المصلّى بأوقات كل قبيل وفى الطرقات وأثر التمدين على الوجوه ، وأغلب من ترى فى الصلاة العجائز

القدس الشريف

أورشليم أو يبروشالاَيِم أو أوساليم أو شالِم أو إيلياء أو القدس أو بيت المقدس هى تلك المدينة العظيمة الكريمة القائمة من بطن وادى ساوة بين جبلى طور الزيتون وعلية صهيون متعلقة بالسفحين ذات اليمين وذات الشمال كأنها تسيل فى الوادى من الجنوب الى الشمال .

بيت المقدس أنت (ياقاتلة الأنبياء) مقدس اليهود ومحج النصارى وحرم المسلمين .

فيك هيكل سليمان الذى يبكى على جداره الآن عجزة بنى اسرائيل يتلون المزامير ويدعون الله بكرة وعشيا أن يردّه عليهم ليعيدوا مجد الرب فيه وتصحّ عبادتهم إذا صار إليهم وحازته أيديهم ، وبه كان التابوت (فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون) يحجه أحد عشر مليونا من اليهود منتشرين فى جنبات الأرض من يوم قصد (طيطوس) أو (تيطس) الرومانى بيت المقدس فأوقع بهم وقتل وأسر منهم ١٤٦٢٠٠٠ ونهب المدينة وخرّبها وخرّب المقدس وأحرق الهيكل وكتبَ اليهود وأخلى القدس منهم كأن لم تغن بالأمس . فمن تلك السنة سنة سبعين للميلاد وأفئدة بنى إسرائيل تهوى إلى البلد المخرّب تنشد يوم مرجعها إليه وعودة الحكم فيه لها وتسلم الهيكل يعيدونه كما بناه

سليمان ويقدسون فيه آله إسرائيل على حكم التوراة ، وفى هذا السبيل كم قامت حروب ودسّت دسائس وفعلت أعاجيب أعان عليها الذهب ـ واليهود ملوك الذهب ـ حتى يرى كثيرون أن الماسونية لم تنشأ إلا لردّ الدولة لليهود ، لقيامها على آثارها ورسومها ورموزها وتقاليدها للآن .



صورة القدس من جبل الزيتون

فيك كنيسة القيامة أو القمامة التى شيّدتها القديسة هيلانة على القبر المقدس عند النصارى ، وهم الآن أكثر شيع الأرض عدداً وأعظم أصحاب الأديان دولا وأعزّ أهل الكتاب قبيلا . ذلك القبر الذى اشتعلت للغلبة عليه إحدى عشرة حربا « وإن شئت فقل العدد لامفهوم له » من يوم حمل بطرس صليبه وطاف أوربا على حماره ، ولا تزال بقاياها إلى يومنا هذا ، وأكبر ظنى أنها لاتنفد مادامت القلوب فى الصدور .

فيك المسجد الأقصى الذى أسرى الله بعبده محمد إليه ليلا وأصعده

من فنائه إلى سمائه ؛ ثالث المساجد التي تشدّ لها الرحال في الإسلام ويقول المسلمون في الشد إليه (ماحجة إلاّ بعد تقديسة) . المسجد الأقصى الذى أدارت جنباته بأسماء الخلفاء الأجلاء والملوك العظام في الإسلام والذى يقابل عند المسلمين كنيسة القيامة عند النصارى في المعزة والمذلة أيام تلك الحروب الطاغية حتى إذا استقرّت القدس للمسلمين أعزّوهما حقا وتركوا كلاّ منهما معبداً لتابعيه على هواهم وقرّة عينهم ، المسجد الاقصى الذى تهوى إليه أفئدة المسلمين واليهود الآن ، ويتسابق لاستقرار اليد عليه خاصة له كلّ من أهل الدينين بينما أتباع عيسى قد أمنوا على كنيستهم وتبر حامل خطاياهم وتركوا هؤلاء وأولئك كلّ يتبع هواه ويستنّ في مضماره إلى الغاية التي يقدّرها الله رب الأديان وخالق بنى الإنسان .

من فوق علية صهيون صعدنا على مجرسة الألمان في كنيستهم التي أقطع السلطان عبد الحميد أرضها لهم من وقف النبي داود أو (داهود) كما ينطقونه هناك فأزالوا منها زرع الكرنب وبنوها كما يبنى الألمان وكما يليق بعظمة ألمانيا التي كانت تنشد يومها نشيدها (أنت ياألمانيا فوق الجميع) . نظرنا القدس من تلك المجرسة التي تعلو كل علاء هناك خلا مجرستهم الأخرى التي تناظرها وتوازيها على طور الزيتون ، فرأينا تلك المدينة التي لايعلم لها تاريخ ، قاتلة الأنبياء ومهبط الأديان ومعجزة الزمان ، فإذا بسورها القديم يخطها ويحوطها فتأبى أن يحدقها وتضيق فيه فانبسطت في الوادى شمالا ثم غربا ثم شرقا حتى زادت عمّا كانت ، وبقيت المدينة القديمة ترى في جنوبيها الشرقي تماما حرم المسجد الاقصى وتشهد أبوابها

الثمانية المذكورة فى التاريخ يقوم كلّ منها بعمارته وإن كان السور عند بعضها ينقطع أو لا يكون . دوّنا مناظرنا أىّ هذه الأبواب كان الذى ابتلى به بنو إسرائيل أن يدخلوه ويقولوا حطّة فى قوله تعالى (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجّداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين .فبدّل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) فاذا به هناك فى الشمال الشرقىّ وله حى يعرف باسمه الآن . وتذكرنا قصّة عبد الملك والحجّاج ، وقد روى التيمى ان عبد الملك بن مروان أمر أن يعمل باب ببيت المقدس ويكتب عليه اسمه ، فسأله الحجاج أن يعمل له بابا فأذن له ، فاتفق أن صاعقة وقعت فاحترق منها باب عبد الملك وبقى باب الحجاج . فعظم ذلك على عبد الملك ، فكتب الحجاج إليه : بلغنى أن ناراً نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج ، وما مثلنا فى ذلك إلا كمثل ابنى آدم اذ قرّبا قربانا فتقبّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر : فسرى عنه لما وقف عليه وضربناه مثلا فى حسن التعليل .

دخلنا القدس من باب الخليل ومنه إلى الحرم شارع مستقيم ،فكان أول ماوصلنا إليه فى أذان الظهر فبدأنا المسجد بصلاة التحية وأداء الفرض .

***

المقدس أو القدس هو اسم تلك المدينة الذى غلّب العرب استعماله

و إطلاقه عليها ، وبيت المقدس هو المسجد الأقصى ويسمّى البلد به أيضاً تسمية له بأشرف مافيه من باب إطلاق الجزء على الكل ، أما الأسماء الاخرى فهى عبرية معناها السلام أو موطن السلام ، وإيلياء اسمها الذى أطلقه عليها أدريانوس الرومانى لما أعاد بناءها بعد خرابها الثانى وهو اسم لبيت المقدس ومعنى الكلمة (بيت الرب) وهو الاسم الذى يذكر لها فى كتب الفتوح الاسلامية . ويتشبّث اليهود الآن باسم (يروشالايم) ويكاد ماعداه وعدا (القدس) ينسى ولا يذكر .

الحق أن تاريخ بناء تلك المدينة مجهول ولكن كثيراً من المؤرخين يزعمون أنها بنيت فى القرن الحادى والعشرين قبل المسيح ولقد كانت مدينة عامرة قبل مجىء بنى إسرائيل اليها وهجرتهم من مصر إلى الأرض المقدسة ، ويقول بعض كتّاب النّصارى إنها كانت ملك ملكى صادق أو (كاهن الله العلى) الذى قابله ابراهيم وتبارك منه ، وينقل غيره عن التوراة اسمه (عالى الكاهن) ويقول : فى زمنه كان النبى (شمويل) الذى انتهت بتدبيره سنو حكّام بنى إسرائيل وقضاتهم ثم أنبأهم أن الله بعث لهم طالوت (شاول) ملكا ، وشتان بين زمنى هذين النبيين .

كان داود النبىّ أو الملك كما يقولون يقوم بحَبْرُون (مدينة الخليل) وقيل بشكيم (نابلس) فلما استوثق له الملك وأطاعته الأسباط كلها اتخذ القدس عاصمة وبنى فيها بيتاً له وأدخل فيها تابوت العهد ومات ، وقد أوصى بالملك لابنه سليمان النبى أو سليمان الحكيم كما يقولون بعد أن ملأ له الخزائن لتنفيذ وصيّته بعمارة (بيت المقدس) . فأقام سيدنا سليمان

الذى أوتى الملك والنبوة وهو ابن اثنتى عشرة سنة ذلك البيت فى سبع سنين وجعل له سوراً طوله خمسمائة ذراع فى مثلها . وهو الآن (٦٦٠ ذراع فى ٤٠٦) ، ووضع التابوت فى الهيكل السليمانىّ ومن ذلك الوقت وقت داود تقدّست تلك البقعة وبارك الله فى الأرض التى حولها بل جعل فلسطين كلّها أرضاً مقدّسة مركزها ذلك البيت المطهّر الذى طُلّت فيه دماء الأنبياء وأهدرت من أجله نفوس الملايين على ممر السنين

وبقيت القدس تزهر ببنى إسرائيل والسيادة لهم فيها ، وقد تتقلص عنها إذا عصَوْا وتعود إذا عادوا ، حتى أفسدوا فى الأرض مرتين وجاء وعد أولاها بقتلهم النبى أشْعيا فغزاها بختنصر ملك بابل (العراق) وأحرقها وهدم بيت سليمان وأباد بنى إسرائيل وأزال دولتهم وأَخذ (صَدِيقا) آخر ملوكهم أسيراً فيمن أخذ من أسراهم إلى العراق وذلك لتمام ألف سنة إلا سنة واحدة لوفاة موسى عليه السلام . ومكث بيت المقدس سبعين سنة خرابا إلى أن أعاد عمارته بَهمَن بن اسفنْديار لما ورث الملك عن جده كشْتاسِف بن لَهراسِف « ولِهْرَاسِف هذا الذى يقال أن بختنصر كان عامله لما خرب المقدس » فتراجعت اليهود إلى البلد ورجع النبي « عزير » المذكور فى القرآن والذى يسميه اليهود « عزرا » مع مهاجرى العراق فدبّر بنى إسرائيل وجدَّد حفظ التوراة بعد أن مثلها الله فى صدره وكانوا أنسوها وعادُوا كما قال الله فيهم ﴿ ثم رَدَدْنا لكم الكرّة عليهم وأمددنا كم بأموال وبنين وجعلنا كم أكثر نفيرا ﴾ أى مما كنتم ، وردّ الكرة لهم على الفرس أن بَهمَنَ الفارسى نفسه هو الذى أعادَ بِناء بيت المقدس وأرجع

مهاجرى اليهود إليه وملك منهم ملكا كان لقبه بعد هذا (هيرودوس أو هرذوس) أيام الروم لما أزالوا دولة الفرس حتى جاء وعد الآخرة بقتلهم يحيى وأبيه زكريا فقصد طيطوس القدس سنة ٧٠ م أو سنة ٧٣ م وأوقع باليهود وقتلهم وأسرهم عن آخرهم ونهب مدينتهم وأحرق هيكلهم وكتبهم ويقول المفسرون إن صاحب الجيش دخل مذبح قرابينهم فوجد فيه دماً يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ما صدقونى فقتل عليه ألوفاً منهم فلم يهدأ الدم ، ثم قال : إن لم تصدقونى ما تركت منكم أحداً فقالوا إنه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم ، ثم قال يا يحيى قد علم ربى وربك ما أصاب قومك بعدك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل ألا أبقى منهم أحداً فهدأ . وهذا النبي يحيى الحصور كانوا قد ذبحوه قبل رفع سيدنا عيسى لما حرم نكاح بنت الأخ مع سيدنا عيسى ابن بنت خالته كما قطعوا الشجرة بأبيه زكريا لما اختفى فيها حينما اتهموه بمريم البتول الطاهرة ، ومن ذلك الوقت زال ملك اليهود ولم يعد للوجود

وقد حكى القرآن هذه القصة بأبلغ عبارة فى أول سورة الإسراء أو سورة (بنى إسرائيل) كما تسمَّى بذلك فى التفاسير . كما حكى قصة عُزَيْر أو أرميا النبي فى خرابها الأول وتقديره تعالى أن تعمر بقوله ﴿ أو كالذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال كم لبثت ؟ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنَّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها

ثم نكسوها لحما . فلما تبين له ، قال أعلم أن الله على كل شيء قدير »

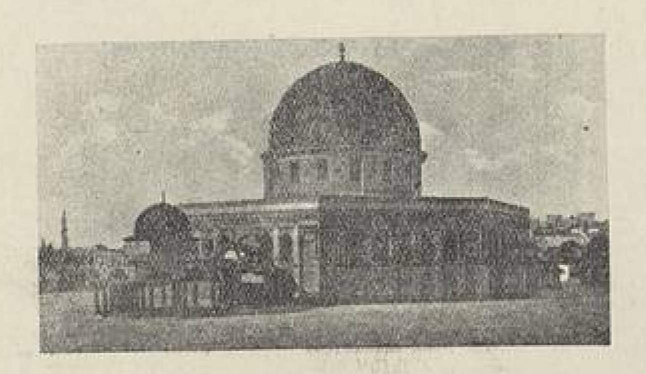
وجدّد أدرْيَانُوس بيت المقدس وسماها (إيلياء) ثم خرّبها ثانية سنة ١٣٢ وقتل من اليهود ستمائة ألف . وباع من بقي . وأعيدت بعد ذلك الى أن جاءت هيلانة أمّ قسطنطين سنة ٣٢٦ ، فبنت كنيسة القيامة ، وخرّبت هيكل سليمان . وعاد أَبْرَوِيز بن كسرى على بيت المقدس فقتل كثيراً من النصارى ونهب الكنائس وقطعة عود الصليب . فغلبه هرقل بعد سنين ، كما جاء في القرآن الشريف : « الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غَلَبِهم سيغلبون في بضع سنين » وكان ذلك يوم بدر الذي فرح فيه المسلمون بنصر الله لهم على المشركين ونَصْر الروم على الفرس ، ولقد كان هِرَقْل عاهد اليهود ألا يؤذيهم فتكفل له البطارقة بالبرّ ليحنث في يمينه هذه . وشرعوا لذلك كفّارته على النصارى صَوْم أسبوع هو مقدمة الصوم الكبير (أسبوع هرقل) . وظلت القدس تابعة للروم والحكام من أهليها . إلى أن فتحها العرب صلحاً سنة ١٥ هـ بكتاب من عمر بن الخطاب بعد مقدمه اليها بطلب أهليها . وبقيت بأيديهم وأخذها الصليبيّون منهم أزماناً الى أن استردّها بطل الاسلام صلاح الدين نهائياً سنة ٥٨٣ هـ وضمت لمصر ثم تولاّها الترك الى سنة ١٣٣٦ هـ فدخلها الانجليز

أمّا بيت المقدس نفسه فهو كما علمت بناء بناه داود وعمّره سليمان عمارته التي تعتبر بداءته في سبع سنين ، وفرغ منها في أواخر سنة ٥٤٦ لوفاة موسى ،

ورممه بعده يوشع (يؤاش) وجدد عمارته (لوشيا) وظل عامراً من حين سليمان ٥٤٣ سنة حتى خربه بختنصر فمكث سبعين سنة خرابا إلى أن جدده بهمن الفارسى الذى يسميه اليهود (كيرش) ولبث على عمارته ٧٢١ سنة حتى خربه طيطوس الخراب الثانى ثم عمره أدريانوس وجاءت بعده هيلانة فخربت العمارة العظيمة التى كانت على الصخرة، وأمرت أن ترمى فيها كناسة البلد بدلا مما كان اليهود يرمون القمامة فى مكان كنيستها الى أن جاء عمر فطهره وبنى فيه المسجد باسمه. فلما كانت أيام الوليد بن عبدالملك ابن مروان وفيها كان سعد المساجد وسعادة الدور الاسلامية: جدده أتم تجديد وبنى قبته الخالدة على الصخرة المقدسة ورفع فيه قباباً أخرى لا تزال إلى يومنا هذا

والمسجد القائم بالصلاة اليوم فوق مسجد آخر يظهر أنه الذى كان أيام دخول الاسلام، تنزل اليه بدرج وفيه ترى قبلتين متقابلتين على ما كان المسلمون فى صلاتهم يتوجهون أولاً إلى المسجد الأقصى ثم حولت قبلتهم إلى المسجد الحرام وتنزل من هذا الى مسجد تحته قيل لنا إن السلطان عبدالحميد أباح للألمان الكشف عنه فأخرجوا ترابه وظهر مسجد بعمد ينسبونه لسيدنا سليمان، ويروى أنه أول مسجد أقيم فى هذا الحرم وفى الركن الشرقى «المكان الشرقى» الذى انتبذته مريم البتول من أهلها وفيه جاءها الملك. وبين قباب الحرم قبة يسمونها «محكمة داود» يقولون إنها مجلسه عليه السلام للحكم. أما اللطيف فيما يروى فهو فى محيط قبة الصخرة، ترى اسم الوليد بن عبدالملك مطموساً باسم المأمون، كأن هذا أمر

به وهوى المنفّذ كان أمويًّا فلم يهن عليه أن يضيع اسمًا رفع الله صاحبه إذ رفع القواعد من هذا البيت فنفذ الأمر على ظاهره وأبقى الحق على ظاهره عبرة لقوم يؤمنون

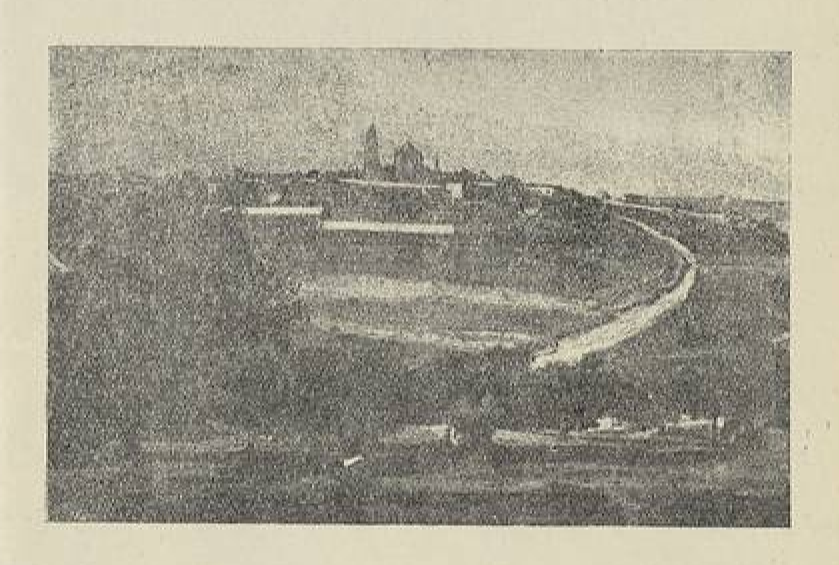


قبة الصخرة بالقدس

ولما استنقذه صلاح الدين من الحروب الصليبية بنى المسجد وطرّز على جبين قبلته اسمه الخالد ، وحقّق أمنيّة أستاذه الملك الشهيد نور الدين فوضع بعد وفاته المنبر الذى أعده له بحلب فى حياته ؛ وترى جوف القبلة مشيداً بحجارة طولية من المرمر المجزّع ذوات ألوان تريك عدد الركعات لكل مكتوبة من الصلوات ، وتولاه ملوك بنى عثمان بالاصلاح والتجديد والتعمير مدة دولتهم ، وأظهر أسمائهم فيه وأبقاها للآن السلطان عبد العزيز خان ، وأمّه هناك مازالت المقصودة بقولهم : (أهل الخيرات) ولهما فاتحة من الفواتح الثلاث فى بدء صلاة الجمعة ، وَفرش السلطان عبد الحميد خان مسجد الصلاة بثمانية آلاف متر من البساط

الهركى يصلى عليها المسلمون الى يومنا هذا وقد تولى الاشراف عليه المجلس الاسلامى الأعلى فى عهد الانتداب أو الحكم الانجليزى

ويطول بنا المقام لو زدنا بسطاً فى ذلك التاريخ العالق فى النفوس بأنواط التقديس ولا يكاد القلم يتخلص منه إذا تعرض له وهو مشتبك لثلاثة أديان يملأ أتباعها جنبات الأرض الآن فعليهم (شالوم) أو (السلام)



جبل صهيون

تنبيه : شُكّلت الاسماء التاريخية التى ورد ذكرها فى هذا القسم بالرجوع الى بعض أهل الذكر وكتب اسم زوجة سيدنا يعقوب (لائقة) كالمسموع وهو الوارد عندهم فى التوراة (ليئة)

يافا ـ حيفا ـ تل أبيب ـ غرفة الساعة

لم نكمّل رحلة فلسطين كسلا ، وتركنا الكتابة عن حيفا برحلة سوريا إهمالا أو قياما مع الحدود التى فصلت بها السياسة بين البلدين ، فإذ جمعنا هذه الرسائل ناسب أن نكملها عما بقى فى الذهن

أمّا يافا ـ فبلد بفلسطين أشبه بدمياط فى مصر بفارق أن الأولى على سيف البحر والثانية تبعد عنه بضعة عشر كيلو متر ، ولكن المناخ يكاد يكون واحداً والبناء والسكان ، ولعل هذا للصلة المتماوجة بين البلدين بواسطة المراكب الشراعية التى لاتفتأ تغدو وتروح بينهما وإن كانت حواجز هذه الأيام ومعاملات الزمان وتقلّبات العمران تقطع هذه الصلات الآن .

وألطف مافى يافا « البيّارات » ، وهى حدائق وزروع تقوم فى ضواحى البلد وينفرد فى البيارة منها صاحبها ببناء قائم يسكنه ، وقد نزلنا فى بيارة منها كان بناؤها فندقا جديداً أصبت فيه بلسعة دويبّة يسمُّونها هناك (الدلة) تهاونت فيها فإذا بها سامَّة ورمت منها ساقى ونغَّصت خاتمة الرحلة وخاصّة لم يكن الأطباء إذ ذاك متوفرين وسافرت لغزّة فلم أجد بها طبيباً ثم نزلنا إلى بريّة غزة ضيوفا على عربى شريف قريب لنا هناك أضفناه مراراً بالعريش وهو لايفتأ ينزلها ؛ فطلب إلىَّ أن أردّ له بعض قرضه فزرته وبقيت فى أرضه بين الخباء والارض والسماء يومين نعمنا فيهما بعيشة الأعراب وبساطة البادية ، وكان دواءه للساق أناء ماء بارد ألقيتها فيه ماقعدت عنده ـ وعلى مقربة من يافا تقوم مدينة « تل أبيب »

خرجت وصاحبي لنراها فعزم علينا أهل يافا ألاّ تنفذ العزم لما كان بينهم من الشحناء زمن السياحة فلم نبال ، وسرنا شيخين بالزى المصرى تنفخنا عزّة العمامة فى بنى إسرائيل ، فإذا بيلد نظيف ظريف من الظلم أن نعدّه من بلاد المشرق ، وعلى شاطىء البحر منه أقاموا « الكازينو » وبنات اليهود وأولادهم هناك مختلطين فى العراء ما بين سابح فى الماء ومفترش ازمل وقاعد بالمقهى ، نظرونا جميعاً شزرا كأنهم غضاب أن يروا فى بلاد الإسلام شيخين مسلمين ؟ فتلقينا نظراتهم بما يشبه الازدراء ومضينا قُدما لا نبالى حتى أخذنا مجلسنا من أعلى الكازينو فتكوّف من فيه علينا ، وأخذوا قفاطيننا وملابسنا يمسحونها ويفتشونها كأن حريرها وتزويقه بهرهم ، وكأن إقدامنا آنسهم فما هى إلا هنيهة حتى ائتلفوا ، ثم تفرجنا فى البلد وعدنا وأهل الفندق بيافا لا يأملون أن نعود حتى إذا رأونا عدّونا فى الأحياء مولودين ، وهكذا قطعت السياسة بين القوم أسباب الحياة ولا تزال أنباؤها ترد بما يزيد الهوة عمقاً والحياة بغضاً وسحقاً

وركبنا الوابور من يافا إلى غزّة وكنت أرسلت لصاحبي بها تلغرافاً قبل السفر بيوم فسبقنا التلغراف !! وجاءنا بعد أن حمّلنا الشريف عتابه على القدوم بلا استئناس فلم ينقذنا منه إلاّ مجىء ساعى التلغراف وهو يحاورنا بالعتاب . ورأينا فى الوابور شيئا من جشع اليهود وطمعهم ، يجلس الرجل منهم على كرسىّ ويضع برنيطته على كرسى ومعطفه على كرسى وعيبته على كرسى ، فإذا جاء عربى من محطة ليجلس بجواره

أشار له أنّ الأمكنة مشغولة بأصحابها فيصدق المسكين ويتضامّ مع إخوانه، حتى إذا جاء يهوديٌّ من محطة أخرى أخلى له اليهودى الأول مكانا، وإن رأى غيره فارغاً شغله بأمتعة الجديد انتظاراً لجديد منهم آخر! وكذلك ترى الرجل منهم يعرف العربية فإذا كلمه العربى بها تظاهر بجهلها ولا يبالى أن يخرج خبؤه إذا تكلم مع يهودى بها؟ والعيش فى فلسطين ضنك، كنا ونحن فيها نحس سأم أهليها، وحدثونا عن ثقل الضرائب عليهم وتعدّدِها فيهم بما يفزع، حتى قيل لنا إن الحكومة لا تكتفى فى أخذ ضريبة الثمار إلا بعد أن تعدها ليمونة ليمونة وبرتقالة برتقالة الخ الخ. بعد أن كانوا فى زمن الترك يَجيئهم (المُخَمِّن) فيخمّن الحاصلات بما يَرَى ويرضيهم. ورأينا نحن أثر هذا إذ كنا فى ميناء يافا فأردنا أن نَرْكَب مركبا نلجّ به أخذوا ضريبة على كل راكب للحكومة قرش صاغ مصرى، وكان النقد إذ ذاك نقد مصر ومعاملتها أما اليوم فلهم نقد خاص ومعاملة مستقلة تسير على حساب النقد الإنجليزى وفى هذا العام كان البنزين فى فلسطين يزيد ثمن الصفيحة فيها على ثمنه فى سوريا ريالا مصريا ضريبة تأخذه الحكومة فلذا كنا نرى سائقى الأتومبيلات المسافرين إلى الشام لا يأخذون معهم من البنزين أكثر مما يخرجهم من الناقُورة وهى حدّ ما بين البلدين.

ورأيت حيفا فى هذا العام بلداً ثقيل المناخ وبه حى قائم لليهود متميز عن حىّ العرب بجميع أنواع المميزات، وجبل الكرمل يطل على البلد

والبلد قائم في سفحه بينه وبين البحر . ترى من الجبل بالعين المجردة شوارع البلد وبيوته كأنك تنظر شاشة الخيالة ، وجبل الكرمل يعد مصطاف حيفا والماء فيه أعذب منه فيها وشاهدت النصب الذي أقامه أمبراطور ألمانيا لما زارها واتخذ الكرمل مستعمرة لقومه فيها على حساب أن يكون بدء مستعمراته فإذا بالنصب مكسّر مطروح من قذيفة مدفع ؟؟ — وتقوم انجلترا اليوم بإنشاء ميناء فيها يقال إنها تشل بها الإسكندرية وتجعل حيفا ثغر البحر الأبيض المتوسط وهي تمد أنابيب « الجاز » إليها خارجة من أرض الموصل يسيل فيها على الأرض حتى يملأ المراكب وسبحان علام الغيوب مالك الملك يعطي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء

أما غرفة الساعة فيظهر أنها فكرة تركيّة رأيتها في يافا وحيفا والخليل والقدس وبيروت وحلب الخ الخ بنظام واحد ، بناء شاهق في الهواء من حجر صلد أعلاه غرفة مربعة تظهر من جنباتها الأربع ساعة كبيرة كانت توقت بالحساب العربي . والآن يدور بها الإنجليز والفرنسيون في مناطق انتدابهم على ميقاتهم ، وبقيت في سوريا بميقات العرب والله وحده يعلم متى تعود الساعة إلى دورتها العربية وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال

استدراك — كتب تحت الرسم في ص ١٤٣ أنه صخرة بالقدس — وهو للحرم القدسي والصورة الظاهرة قبة مسجده

رســـــــــائل سائر

كتبت س ١٩٣٣ م

في بلاد اليونان

بسم الله الرحمن الرحيم

« يابحـــر »

لجّجت بنا الباخرة « إيجيه » فى البحر الأبيض المتوسّط فكلّ ماحولها كان ماء تملأ العينَ زرقته والنفس بهجته والنظر يمتدّ على مداراته، فلا يَرى إلاّ سماء مطبقة الآفاق على دوائر الماء، وكأنّما هذه القبّة الزرقاء تنتقل والباخرة والنظر إيلاف سفر، حيث لاتميل الباخرة عن مركز الدّائرة ولا يرتج البصر فى منكسر المحيط

وسرحت فى هذا الكون المائىّ، فنسيت به الأرض وأكوانها، وخلت أنّى خلعت على الساحل قبل الإقلاع ما كان يعرونى من غمّ أو يلبسنى من همّ، وكأنّى أغسل نفسى فى هذا المنفسح الطهور من أدران العيش فى اليابسة الضيقة، وأخطاء الحسّ فى البيئة النائية. فأخذت أهتِف للبحر وأنشده: أنْ يا بحر لقد خلّفت وراءك آلامى وأوجاعى، وتركت فى ساحلك شواغلى ومشاغلى خلفة ضائعة، لاأسأل عنها بل أسأل الضياع فيها والبداد لها، وقد تقضّى علىّ عام شغلتنى أزمانه بأزماتها، ولفّتنى لياليه بسوادها، وقطعتنى أيامه بقطيعتها، فأنا أَحوَج ماأحتاجه، سكون فى راحة وراحة فى سكون، وأَن أتفصّى عن ذلك الوسط تفصّى

العرق ينفضّ عن الحمّى ، منشؤه مَرَضٌ ومسقطه مُرْض وفى العاقبة رجاء

سفرة سعيدة موفّقة ، فالرفاق كرام ، والبحر رهو ، والريح رخاء ، والظعن الذى شكاه الشعراء ، وجزع منه الخلطاء كان أحبّ إلىّ وأشوق ، وكان الدواء على ماتخيّلته لما بى كان من داء ، داء ما ألمّ بى فى مضرب الأعصاب منّى حتى اشتدّت وتوتّرت وكادت لولا الرحلة تنقطع ، فما كدت أخرج من أميال الحدود حتى خرجت من ميل النفس إلى الكنود ، وأرخيت العنان إلى الإخوان وقد رفع السفر حواجز الحضر ، فامتزج الرفاق وتحلّق السفّار على ظهر الباخرة حلقاً كأنّما هم أهل بيت واحد يحتجز الألّاف منهم مقاعد السمر ومرابد الضحى وكلّ ما أعمله لنفسى أن أنسيها سنّتها ، وأستقبل بها عاماً جديداً ، بطالع جديد أدوّره فى مَنحّى على فلك السعود فى مجرى الهناء

مذ أزمعت الرحلة إلى بلاد الله قدّرت مناقلها ، ورسمت خريطتها . فمن عشر سنين خرجت من مصر حاجّا إلى حرم الله ثم زرت المقدس والشام ولبنان ، وكان العزم فى العام الماضى أَن ارحل إلى بلاد الترك . وأزُور هذه السنة بلاد اليونان ، إلى ان أدخُل ارض الدنيا وقارة الحضارة إقليما إقليما ، فحال فى العام الماضى حائل ما بينى وبين القسطنطينيّة والأناضول ، ولم أشأ العام ان أنكص ، وتركت ما خصّ الترك إلى ان استَوْفى المنازل ، حتى اذا طال الأجل عدت الى مارمت ، ووصلت الخط كلّه بحلقاته كلّها

من بلاد العرب الى بلاد اليونان يتكوّن الحوض العظيم الذى تنقّلت الحضارة على قوسه قديماً تنقل المصباح فى مشاكيه ، أو تقدير القمر فى منازله جيئة وذهاباً ، وذهاباً وجيئة ، حتى ليخيّل إلى الراحل الناظر أنّ حوض البحر الأبيض المتوسط فى حياته ، وطرائق عيشه ، وخلق أهله وطبائع بنيه ، إنما هو دار واحدة ذات غرف وحجرات ينزلها قوم من الأهل فرقُ ما بينهم قليل ، وتميّز بعضهم عن بعض يكاد يزول

مشاهد البلاد ووقعها فى نفسى

لا تبلغ دمشق من أثينا نصفها ولا نصيفه ؟ وحلب الشهباء كذلك ليست فى صفّ سلانيك . وجدّة وبيت لحم وبيروت من بلاد الشرق العربىّ تزيد عنها بلادٌ رأيتها فى بلاد الإغريق زيادة حضارة وزيادة عمران — ولكن الأثر البليغ ، والمشهد الحديث ، واللهفة على الرؤية ، وسريان الإحساس بالارتياح إلى ما رأيت ، وتزوّد النفس بزاد ما شاهدت والإقرار فى عميق الروح بأنها رأت ما كانت تودّ أن ترى وبلغت ما ظلت تصبو إليه حتى فازت به ، والتبسّط بين هذه الأحاسيس بفرح النفس وفرح الحسّ على زهوٍ ببلوغ المنى وإعجاب بوصول القصد إلى ما قعد عنه المخلّفون — كل أولئك معانٍ أحسستها ببلاد الرّحلة الأولى وتغيرت منّى فى بلاد الرحلة الثانية ، ليس نقصاً هذا فى رحلة العام ، ولكن أريد أن أقول للقرّاء إن رحلاتى إلى بلاد العرب أقرّت عينى أكثر مما نعمت به

فى بلاد اليونان ولا تزال بلاد العرب من جدّة إلى حلب عالقة بذهنى ماثلة أمام عينى لو كلفت أن أكتب فيها لما شقّ علىَّ التكليف ، فهى حاضرة بخاطرى ، وتنقلى فيها وغدواتى بها ، ولقياى أهلها ، وفسحى فى منازهها ، وأسماؤها وأسماء الأشياء بها ، فى الحافظة طائعة للذكر ، ولا كذلك لو بقيت قليلا ثم أردت أن أكتب فى رحلة العام فإنه يشقّ علىّ بلا شك الكلام

ما أنا ناس الآن أثينا وهى فى مدنيتها وحضارتها ولطف أهلها وخفّة هوائها بحيث يرتاح المسافر لها ، وكذلك بلادٌ طوّفتها فى هذه الرحلة لها أنسها وموقعها من نفس السائح ولكن هذه المجالى كلها والمشاهد التى حُبّبت إلى من رأوها ، كلّها لا تساوى عندى شيئا يوم دخلْت دمشق ورأيتُها ، ونظرت فيها مجرى « بردى » والربوة على بابها وصعدت فندق « أميّة » فألقيْت عينى عليها بين الغوطة وجبل قاسيون أو يوم دخلت حمص وشاهدت قبر خالد ونهر العاصى ، أو حين زرت حلب وقعدت فيها على روضة السبيل بل لقد زرت معرّة النّعمان لأشهد فيها قبر أبى العلاء المعرى ورأيته فى منحشره إذا قسته بإحساس ما رأيتُه العام فى أثينا من الغار الذى قيل إنه سجن سقراط بجانبه نفَق حارسه وغرفة المؤتمرين له ، إذ لا تزال خيال الزورة الأولى وهو يمثّل لى أبا العلاء وحياته وكلامه ، تمثيل الخيالة الناطقة ، ويطفر منّى بسروز النفس كأنه يخرجه من حناياها المتخفّى فيها ـ ذلك كله يخيّل إلىّ أن سببه واضح جلىّ فقد قرأت كثيراً عن بلاد العرب وتاريخها وحياة عظمائها ونشأة رجال

التاريخ فيها، ولعلّ اسم دمشق طنّ في أذني أكثر من مائة ألف مرّة طنين الصماخ الخارجي أو الصماخ الداخلي مما أقرؤه في الكتب أو أسمعه من الناس، وكذلك قل عن بقيّة المشاهد في تلك الرقعة الأسيوية فلكلّ منها في مخّي ذكر ومقام مجلبهُ كلّه إلى العقل من نافذة السمع، ويظهر أن الحواسّ الموصلة إلى الفهم يغار بعضها من بعض، فما تسمع عنه كثيراً تحسّ في نفسك الحاجة إلى رؤيته والشوق إلى طلعته، كأنما تريد حاسّة العين أن تتمتّع هي أيضاً بهذا الذي أجلبت له حاسّة السمع وأكثرت، فان نلت هذا قرّت العين وسرّت النفس وكأنما ناحية من نواحيها اطمأنّت عليها في نيل طلبتها. كذلك ما تراه العين كثيراً، تحبّ النفس أن تسمع عنه أيضاً، تسمع تاريخه وأصله وحكايته ليقرّ فيها موصّلا المعلومات لها ومن هنا كان سرور النفس الداخلي في رحلاتي الأولى أكثر وأقرّ في معنى نيل الرغب مما شاهدت العام في بلاد اليونان - بل هذه النظرية تأيّدت لي في سياحتي الأخيرة. فلقد وقعت سلانيك في نفسي موقعاً أفخم من وقع أثينا، ثم وقعت (قواله) أحلى من موقع سلانيك، بل وأنا مسافر في الأوتمبيل من «سرس» إلى قواله حينما أشار لي أحد الأخوان على «دمير حصار» كنت كمن لقي لقطاً، وذلك أيضاً منشؤه تكرار وقوع هذه الأسماء على أمخاخنا في حياتنا. ولعل آباءنا الذين سمعوا عن حروب «المورة» وكثرة تردّد اسم أثينا فيها كان هذا الإحساس ينعكس فيهم، أمّا نحن فما نسينا اسم سلانيك ومنستر وبلاد مقدونيا، وذكرها لم يمرّ عليه عقدان، وكذلك اسم قواله وطشيوز واسم دمير حصار الذي أعجز

التلغرافات بتكراره ، وودده أغاج وأمثال هـذه الأسماء ، فهى لقرب طنينها فى الآذان أشوق إلى النفس وأحلى فى مرأى العين تحقيقا للمساواة فى الأفهام

الرفقـــــة

كان عَريفَ السَّفَرْ صديقنا الكامل الاستاذ سامى الجريدنى ، وروحه وريحانه كان الأخ الفاضل ادوار بك قصيرى ، ولقينا على ظهر الباخرة القاضى النابه مصطفى مرعى ، ثم نزلنا فى لوتراكى على فندق فيه الأخوة الاكارم روح الفن والنظـام صبرى بك ، والمهندس الحسّاس رمزى استينو بك ، والمستشار الكبير أمين زكى بك ، ثم لحقنا هناك روح اللطف والايناس مرسى محمود بك ، والرجل الأصيل حامد يوسف منصور ، والكريمان عـلاّم محمد بك المـالى القدير ، وعبد المجيد الرمالى أفندى التاجر الشهير ، وعَرَفَنا فى نواحى الرحلة اخوان كرام حُلْوو المعشر جورج عطا الله بك ، ورئيس إدارة الاسكندرية ، والمهندس حبيب بسطه افندى ، والمفتش نجيب فهمى أفندى ، والرجل الطيب من بورسعيد ، وأخ آخر من القاهرة ، وعمدة من أجا وإخوان وخلاّن من هنا وهناك آخت بينهم الغربة ، وتلاقينا على سُقيا الماء من نبع العين التى قيل انها تشفى الامراض والأغراض ، من كل جنس وصنف وملّة . شاكلتُهم التى جمعتهم واحدة ، ومقامهم فى ذاك المكان قليل ، فهم لهذا يتزوّدون الإخاء من نفوس نائية عن بيئاتها ، ولعلّها تتعزّى بهذا النأى

عن ظعنها من أوساطها — ثم سافرت وحدى فى خطّ سلانيك وقواله وهناك لقيت مأمور أوقاف الخاصة الملكية هو وحده المسلم المصرى هناك ، فلم أر من ينطبق عليه المثل العربى فى الوحدة والانفراد إذ يقولون : (كمصحف بين رهبان) مثل ما انطبق هذا المثل على مأمور أوقاف قواله ، وهو وحده فى تلك النواحى يمثّل معنًى وحيداً فريداً بعد ماجلا المسلمون من بلاد اليونان أو أُجْلُوا عنها وبُودلوا بعددهم من يونانيى آسيا ، فلا تسل عن لقياى إياه أو لقياه إياى وفرحه وأهل بيته بشيخ مسلم مصرى ، بل أكثر من هذا فى اليونان الأسيويّين النازلين حديثاً حين رأونى وحسبونى (خوجه افندى) فقد ثارت بهم شجونهم وفار حنينهم إلى أوطانهم ، وهم والحقّ يقال وأمثالهم لما يدّعموا فى وطنيّة اليونان إلى الآن . ثم ختم المطاف بلقاء صديق الروح وعزيز الإخاء القاضى الفاضل محمد عزمى ، ولما عدت من الباخرة كان مسك الختام فى تعرّف الإخوان كبير أطباء المعارف الكبير فى فضله وَفى نفسه حسين بك زهدى والأخ المؤاخى ابراهيم الحكيم

أما من أشيد به وقد شاد هو بمصر وطبَع وجهه على خير عنوان لها ، وبرز به للملأ فى أسمى وأسنى وجوهها ، فهو من غنِمْت صحبته فى رحلتى وكانت معرفته خير كسب لى ، السكرتير الأول لمفوضيّتنا فى أثينا حسين راضى ، وكذلك قل عن قنصلنا فى بيره حسين رمزى بك ، وكذلك قل عن أبنائنا وإخواننا بقية الموظفين فى تلك الديار ، وحسب أىّ مصرى أن يراهم هناك ليخرُج عن أى عرَض من أعراض دنياه فى

زيادة سفاراتنا وتكثير مفوضياتنا ، ونشر أمثال هؤلاء السادة بين الأقوام الاجنبية ليعلموا أن فى السويداء رجالا ، وأن مصر سامية راقية عالية

مع مثل هؤلاء الرفاق الذين سميتهم ، وأمثالهم ممن لم أحفظ أسماءهم وبذلوا صفحة انسانيتهم فى صحبتى وخدمتى ، قضيت رحلة أعدّ أيامها من أيام الهناء ، وساعاتها فى ساعات السرور والسلام

هوس القومية وجنون الاهمال

ندر أن طرفت عيو ننا فى بلاد اليونان بغير لغة اليونان ، فالإعلانات والعناوين والأسماء والأعلام كلها بالحرف الإغريقى ، لا تقرأ اسم شارع، ولا عنوان دكان ، ولا اسم أثر ، ولا علم محفل ، ولا شيئاً مما يماثل هذا إلا بلغة القوم وهجائهم . ومن يرد من اليونان أن يكتب عنواناً على دكانه أو إعلاناً لبضاعته بغير اللغة اليونانية فإنه يدفع للحكومة هناك عشرة جنيهات ضريبة فى السنة على هذا الشذوذ . وكنا ندخل دور الآثار ونمرّ فى الشوارع ونزور المحافل فلا نرى مكتوباً فيها للدلالة على ما بها إلا الخط اليونانى ، والتراجمة هناك لا يكادون يَبينون أو يُبينون ، بل من العجب أني ذهبت مرّة لرؤية « معرض الاستقلال » فتقدم إلىّ مترجم لا يعرف غير اليونانية وكذلك ذهبت مع صحبى إلى « دار الآثار » فيها فلم يتقدم لنا من يعرف لغة أخرى مما يدريه أصحابى كالافرنسية أو الإنكليزية . والمترجم المتقدم يظن أنه للشرح والتفصيل وقصّ الحكاية والتاريخ على

ما تراه فى تلك الدوز من الأنصاب والأحجار بلغته التى حسب الناس جميعاً يعرفونها ودليل حسبانه أنهم جاءوا بلاده فهم لا شك قرأوا لسانها وعرفوا فيها الخطاب . . . لاحظت هذا لصحافى كبير تطبع جريدته فى أثينا ثمانين الف نسخة فى اليوم وقد تلاقينا فى فندق بضاحية (كفسيا) ورغِب إلى أن أحدّثه عن رحلتى ، فقلت له : يا أخى تدعون الناس الى زيارتكم (وهو من جمعية ترغيب السياحة) فى بلادكم ثم تَدَعُونهم حيارى فيها ، حتى أسماء الشوارع وأعلام الآثار تحبِسونها على اليونانية ! فهلا وضعتم بجانب لغتكم لغة أخرى من اللغات المعروفة فى العالم بالتداول والانتشار كالافرنسيّة مثلا حتى يتسنّى بها لزائركم أن يعرفكم ولا يبقى فى جهله حتى يلتقى بدليل هو عندكم قليل ! وَما ضرّكم أن تشركوا فى هذه الدلالات لغة أخرى هى للغريب أنفع وأشفع ، ولغتكم فيها الكفاية لأبناء البلاد ، خصوصاً أسماء الشوارع وأعلام الآثار فإن الآثار إنما هى للناظر ، والشوارع جعلت للسائر ، والناظر والسائر منهما الضيف والحلّى والضيف عندكم جاء بدعوة منكم وترغيب له فى زيارتكم فمن تمام الدعوة حسن الإرشاد . قال الصحافىّ الكبير : إن ملاحظتك صواب ولكنها القوميّة ، القومية اليونانية لا تريد أن تُشرِك غيرها فى عزّتها ولا أن يَبين فى جانبها قسيم يشارِكها فى وطنها وهذه روح يجب احترامها وتقويتها فى نفوس النشء والأبناء : هذه حجّة الصحافى ، وهى حجّة شائعة على ألسنة أمثاله ممن يقودون أزمّة كثير من الأمم فى هذا العصر ، وبلغنى أنها روح سائدة فى أكثر بلدان أوربا الوسطى ، وأن مظهر القوميّة هذا

غالب على نواح عدة ، مجموعها يقطع روابط الشعوب ويمنع داعى الامتزاج والخالطة ويجعل كل أمة وحدة مستقلة منفردة تجهل غيرها من أمم الأرض وتنسى حقوق الشركة الإنسانية فيها وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، وأنه تعالى خلقنا شعوباً وقبائل لنتعارف لا لنتناكر ونتحادّ . ولهذه الروح آثار أخرى لست أرضى عنها كلها وإن كان فيها بعض المحاسن فهى فى نظرى كالخمر (إثمها أكبر من نفعها) ولا محلّ لبسط الكلام هنا فى هذا الباب لأنه بحث اجتماعى لا دخل له فى كتابة رحلتى ولكن لفت نظرى أثران ظاهران عاينتهما فى بلاد اليونان :

١ — هناك معرض الاستقلال فى أثينا دخلته فوجدته جمع ماغنمه اليونانيون فى حروبهم من الترك حتى استقلوا وفازوا ، وهذا لا اعتراض عليه ولكن بجانبه أو قل أكثره مناظر مرسومة بالزيت تمثل فظائع منكرة يريدون أن يقولوا إن الترك ارتكبوها فيهم ، منظر يمثل قائداً تركياً يشنق البطريرك ورقبته مدلاة من الحبل ، أو آخر عن رجل قاس يقتل امرأة « حبلى » والدم يتفجّر من أحشائها ، أوأخرى مرضعاً يلعق ابنها دمها وهى مضرّجة أمام عينه ولا يعرف أنها قتيل الى آخر أمثال هذه المناظر مما لا أظنّ يونانياً يراه ثم يصفو بعده لتركى ومما لا يتفق وروح العصر الداعى للسلام والوئام وتناسى الشحناء والخصام

٢ — كذلك قل عن « قبر الجندى المجهول » فهناك فى أثينا فى ميدان يطلّ عليه قصر الملك المخلوع قبرٌ منقور فى الصخر على مربّع كضريح لجندى دفن فيه ، وبجانبه مدرجان سمرت فيهما شارات الفيالق التى

اشتركت فى الحرب الأخيرة ، وقبالة سرّة المدفون مصباح يضىء بالليل وبالنهار ، وأربعة من الجند بألبستهم الوطنية يتناوبون حراسته فلا يُترك لحظة واحدة من دونها ، ولا تخبو النار من فوقه صباح مساء . هذا القبر هو بدعة جديدة من بدع الحرب الأخيرة ظهرت فى ثورة النصر عند الحلفاء فعمّت « بلدان القوميّة » عموم هوس ينظرُها الأبناء فيتزوّدون منها حقد الماضى لخبء المستقبل ، وهى إن صحّت فى مثل فرنسا « على تجوّز » وهى دولة تخشى الهجوم ، أو مثل بلجيكا وقد هوجمت فعلا واستبيح حماها ، فما أدرِى معناها فى مثل « اليونان » ولا مثل « انكلترا » اللهمّ إلا إشعال النار فى القلوب استعداداً لليوم المرهوب فى علم علاّم الغيوب ممّا يقوم بالردّ التامّ على دعاة السلام من هؤلاء الأقوام

يقابل هذا الهوس هناك جنون الإهمال هنا ، فهنا تراخت مصر فى لغتها ونسيت أن اللغة من مقوّمات الأمّة وعلامة وجودها ، فأنت تسير فى مدينة القاهرة فى شوارع ، وفى مدينة الاسكندرية فى أحياء ، فلا تطرف عينك بإعلان أو عنوان مكتوب بلغة البلاد ، وتسير فى بلاد وقرى ومدائن تعاملها البنوك والشركات فلا ترى من هذه إحساساً بأنها فى مصر العربيّة وأنها تعامل المصريين الأعراب ، بل اللّغة فيها أجنبية وَالمعاملة باللغة الأجنبيّة والمكاتبة والمعاقدة باللّغة الأجنبيّة حتّى ليُوقع الفلاّح الوارد من « أبى الشقوق » وَ « دار البقر » أو « كفر الجاموس » على أوراق مختلفات كلّها رصّ بحروف اللاتين وَهو لا يعرفها ولا يدريها

والختم العربى الشريف هو وحده قيْده الجامع إلى عنقه أغلال ما فى الكتاب ... ؟؟؟ بل الأدهى والأمر إعلانات المحاكم المختلطة المصرية التى تعلن للفلاحين على أيدى محضريها المصريين ، كلُّها باللغة الفرنسيّة ، سواء منها صحيفة الدعوى وصورة الحكم ومحضر الحجز وإنذار « البروتستو » لايختشى أحد من عباد الله فى تلك المحاكم يعرف أن اللّغة العربية لغة رسمية فيها ، وأن هؤلاء المعلَنين لا يعرفون إلا العربيّة فقط فيكون فى أعينهم قليل من الملح يحملهم على مراعاة الذوق فى مخاطبة هؤلاء المساكين وَقد أمر سيّد الخلق أن يخاطب النّاس على قدر عقولهم ، فما لحكومتنا السنّية لاتراعى فى رعيتها هذا الفهم من حسن الخطاب . ؟؟ أما مانختِم به الكلام فى جنون الإهمال فهو ما يُطيّر عقول الزائرين من المصريّين إذا دخلوا يوما « دار الآثار المصرية » فطافوها كلّها فى دوْرها الأسفل ودورها الأعلى ثم لاتكحل أعينهم بحرف واحد من حروف يعرب بن قحطان غلِط فيه أبناء الدار فوضعوه على أثر من الآثار ، كأن دار الآثار المصرية ليست فى مصر ، وكأنها معروضة لغير المصريين ، هذا والمصريّون هم بناة الدار والمنفقون على من فى الدار وأصحابُ ما فيها من أبدان وأعلاق وأحجار . . . ! ! وحسبنا الله ونعم الوكيل

فى آثينـــــا

ألطف ماقرأته للصحافىّ العجوز إطلاقه اسم « اتينا هانم » على تلك العاصمة الإغريقيّة القديمة ، وهو إطلاق يدلّ على المعنى الذى يحسّه

السائر فى تلك المدينة ، بل فيما رأيناه فى غيرها من البلدان . « أثينا هانم » لفظ يؤدّى فى إطلاقه معنى التركية ، فاذا لمسنا الحقيقة فانه يؤدى معنى الشرقية الخاصّة بحوض البحر الأبيض المتوسط ، فأثينا بلد تراه كأنّك رأيته من قبل ، ولكن الصحافىّ العجوز لقّب تلك العاصمة بالهانم للدلالة على ما نفهمه من إطلاق الهانم بيننا وأنّها امرأة فوق النساء ، ونعم ذلك ، فأثينا بلد يكاد يكون منقطع النظير فى محيطنا ، ولو أننا أخذنا أرقى جزء من الاسكندريّة فى أحيائها الآهلة ثم وسّعنا شوارعه كثيراً وجدّعنا من أدوار دُوره قليلا لأمكن أن نصوّر أثينا بعد هذا الإصلاح والتزويق . بلد جاف الهواء خفيف الظلّ ، انبطح على تلك البقعة من قسم « الأتيكى » بمبانيه وشوارعه وميادينه ، انبطاحاً لم يستوِ فى سهل ولا حجزه ضهر ، فهو ينساب بين سهولها ، ثم يتسلّق ببساطه سفوحها ، فترى أضراس الجبال من هذه البقعة نواتىء وسط المدينة المفرطحة والدّور تلُف بها كمدرجات الهرم إلى أن يكسو قبابها أثر من أعلامهم يشاهد لأهلها ويشاهدهم ويشهدهم من مغانيه قطانها ، ويخيل اليك وأنت تتشوّف البلد فوق سطح عال ، أن مايحجُب نظرك من تلك الأضراس هى حدودها ، وهى ليست حدودها ، وإنما نواتىء فيها تبين لمن يحلّق فى سمائها كقصعة حجرية منقوشة أو منقورة ذات تهامة وحجاز . ثم تمتاز هذه المدينة بميزة سرّتنى ، شوارع واسعة ومستقيمة ، والسعة والاستقامة فى الشارع هما شرطا الحياة الصحيحة والذوق السليم للمبانى والساكن ، والشوارع فى أغلبها متقاطعة وهى على

صعودها وانحدارها يكاد يكون سطحها مستويا ، لايشعر المار بضغط الرئة ولا بخفقان القلب من هندسة هذا الاستواء . ثم تنتثر بها الميادين والمتنزّهات كنشر النثار ، وبينما تنتفع البلديّة بصحة أبنائها بهذا التفسيح تنتفع خزائنها أيضاً بتأجير هذه المنفسحات لأرباب القهوات ، فهى مليئة بالجالسين ينعمون فيها متنزّها ، وينتفعون بها راحة ومشربا

وأثينا هى المعبودة التى نازعت « بوزيدون » شرف الرياسة على تلك المنازل الأولى وقد قامت حول القلعة التى بناها « ككربس » المصرىّ القديم ؛ فتمّ لأثينا هذا الشرف ، وصارت الإله الحارس لتلك المدينة العتيقة ، فحملت اسمها من قديم

مصر وحدها ...؟؟

وقف الدليل بنا على ربوة حجرية لاظلل فيها ولاأثر غير ماتنكشف به عن آثار جدران لانظام فيها ، وقال لنا ويده فى خاصرته فى لهجة خطابية (هنا أيها السادة وقف « بيركليس » يقدّم لاهل أثينا حساب ماصرَفه على بناء الاكروبول وأشار إلى الأكروبول بيده ، وهو قائم قريباً من مكانه ، وهنا كان مجلس الأشراف والقادة فوق هذه المِصْطَبة ، ودونهم هنا فى هذا المنخفض مجلس الدهماء والعامة ، والمكان كلّه كان مؤتمر أهل أثينا فى القديم . ثم أخذَنا قليلا الى جبل من تلك الاضراس فيه نقر بقدر القاعة ، وبجوارها قاعة أخرى وبينهما ممرّ ، وقص فى تأوّه وتحسّر قصة سقراط لما شرب السمّ حين كفَر بالآلهة ، وفى الممرّ موقف

الجندى الحارس عليه ، وفى القاعة الأخرى قال إن أصدقاء سقراط ائتمروا فيها على خطفه ، وأرادوا أن ينقروا فى الجبل نقراً أرانا أثره كى يطلعوه منه فى غفلة الحرّاس ، فأبى أن يخون القانون ، ومات منتحراً بعد أن أسمع تلميذيه «وكان مجلسهم أمام غرفته من وراء الحديد» مادوّنه التاريخ لسقراط فى باب الحكمة والاعتبار . قول الدليل هنا وهنا ، قول تسمعُه كثيراً فى بلاد اليونان فأكثرهم «كُنْتى» من الذين يقولون «كنت وكان» ولكن لا أثر يشهد ولا قديم باق وإنما آثارهم خرائب وأطلال ، والدور التى بنوها وجمعوا فيها آثارهم تدخُلها فلا تمالك خَلْجة هزؤ بها ، فهى أنصاب ما بين مكسّر ومهشّم ، وأحجار بين الكبير والصغير إن دلّت على شىء فكما تدلّ الصفحة الواحدة بقيت من الكتاب الكبير ، أو الغرفة المهدّمة لم تضع مع القصر المشيد . وفى أثينا دار الآثار والمتحف الرومانى وفى «كورنثوس» كذلك دار للآثار بنتها كما يقولون أمريكية مفتونة ، جمعت فيها تماثيل أكثرها رومانى ، بل لقد طغى الغلوّ على يونانيى العصر فأقاموا دوراً لما زعمُوه آثاراً بنوها فى البنادر والقرى ، رأيت منها قاعة فى جزيرة طشيوز إثر ما أبان لهم النقر فيها ، وهم يقولون إن إله البحر كان بها ، تدخلها جميعاً فترى فيها ما كان أولى به البقاء تحت أطباق الثرى ، إنما لها الفضل على المصرىّ بحقّ إذا زارها أن يحُكّ يافوخه بصفحة السماء فخراً وعلاء بمصره الخالدة ، مصر الآثار الظاهرة التى لم يصرَع الدهر منها شُرّفَة ولا طنفا ، والآثار الخفيّة التى تتجلى بين حقبة وأخرى تجلّياً يبهر الدنيا الجديدة حتى تجثو على جبينها وقد خرّت للأذقان ساجدة لعظمتنا

القديمة التى نفخ « مصرايم » الأول روحه فى واديه بها . ثم لم يهدأ فهو من آن لآن ينفثُ من تحت أطباق الثرى نفثاً يكاد يوقظ النائمين الغافلين

لوتراكى

لوتراكى . لوتراكى . هذا هو الاسم الذى كان الصيحة فى هذا العام تأخذ أسماع المصريين ، أشاعها وردّدها إخواننا يونانيو مصر ، وقد طبَعوها على منشورات وَزَّعها كلّ ذى عمل منهم على عملائه ، فذهب المستجيبون إليها ، وهم يحلمون أن سيجدون فيها إكسير الحياة وزيت الحكمة ، وذهبنا إليها من « بيريه » مصعدين شمالاً بغرب ، حتى حاذينا مضيق كورنثوس وتجاوزناه قليلا ، فإذا بها قبالة كورنثوس البلد القديم معبد الآله أبولون ، وبينهما رأس الخليج ومن رأس الخليج يبدأ المضيق



« معبد أبولون فى كورنثوس »

الذى أشرفت على تحسين شقه شركة إفرنسية . فالسفن تجتازه اليوم ذاهبة آئبة ، من بحر الادرياتيك إلى بحر بيريه أو خليجها

ولوتراكى قرية فى لحف الجبل ، قديمها فى أصل سفحه ، وحديثها يمرّ مع عنق ضيّق يمتدّ من الأرض كالعرق بين الجبل والخليج ، وفى هذا العرق تنبجس العين التى يزيد فيها الوهم ما شاء من شفائها لكلّ داء واستغلّت اليونان هذه العين استغلالاً حديثاً ، فهى تصفّق لها فى أنحاء الشرق ، كما تصفّق لعيون أخرى تروى عنها الاعاجيب فى «اديبسوس»



المؤلف ورفيقه دلاور بك فى أحد شوارع لوتراكي
(تصوير جريدة الاكروبول)

وغيرها . والبلد قرية حللناها ، فرأيتها كما أرى القرى الجبلية من بلادنا أهلها أهلها وحالها حالها ، فالمرأة بالقميص الأسود والقناع اللماع ، والحمير بالأكف البلديّة ، وجِجرَة الصوف الحمراء ، والركائب والزنابيل ، والشوارع لمّا يتمّ نظامها ، ولكن الحركة والحق يقال قائمة قاعدة فيها . وقسمها الغربى على اتجاه العين شارع مملوء بالفنادق ومنازل الأجرة إلى نهاية .

حدّثني سريّ من يونان مصر ، أنهم سيجعلونها يوماً فندقاً يربح الذهب أو يبلغه . وقد بنت الحكومة حماماً على العين بثلاث درجات لكل مستحمّ فيهامن أهلها غرفة بها «إبزنّ» أوحوض سلّطت عليه صنبورتان (حنفيتان) تجريان بماء العين سخناً وبارداً يملأ للمستحم على وزن الحرارة التي يشير بها طبيب المصحّة ؛ وهو طبيب الحكومة كل من يرد لوترا كى يرد عليه فيبحثه ويقرّر له ماءه . ومدّة المقام بالبلدة «رسمياً» واحد وعشرون يوماً ، وتتقاضى الحكومة عن الحمام الواحد فى الدرجة الأولى واحداً وثلاثين درخمه غير البقشيش للخوادم . وتشرب الماء ثلاث مرّات فى اليوم بالقدر الذى يقرّه الطبيب من منهله وقد بنى عليه صاحب العين سقاء أبدع فيه بدعا ، وهو من فضل الله يبيع ماء الله كل كوب بدرخمه فيجمع فى اليوم ربح بنك من كثرة الواردين والمستقين وهم كانوا خليطاً أكثرهم مصريّون حتى خلت أننا فى سوق بمصر اجتمع لها أبناؤها . ولا شىء بلوترا كى غير الماء والطعام والنوم والقعود فى المقهى والفسحة عصراً على سفح الربوة . أماغيرنا ، وأكثره من اليونانيين المقيمين ، فسبيلهم هناك سبيل «الكزينو» وهي دار بجوار الفندق تطلّ على البحر يبتدىء عملها ليلا وينتهى صباحا ، قال لى من رآها إنّه لا موضع فيها لقدم ، وأقدام من فيها تحملهم صباح مساء من أرجاء اليونان ومن شذاذ المصطافين إلى بئر هذه الدار أو بالوعتها ، وهى بئر القمار ، فتحتهاحكومة اليونان لمن يتردّى فيها ، وكسبها من هذا الردى كثير . ومن لطيف ما يروى عنا بلوترا كى أن جريدة الاكروبول

أخذت صورة لى وصاحبي دلاور بك ونحن نمشي ولم نشعر وفى ثانى يوم جاءنا بنسختها يونانى مصرى وقرأ المكتوب تحت الصورة أنها لادوار بك قصيرى القاضى المصرى بلباسه الوطنى

موسلنجى

على بعد ١٢ ساعة فى البحر والبر غربى مقامنا هناك تقع بلدة «موسلنجى» وهي البلدة التى بدأت ثورة اليونان منها على الترك وقدحت شرارة النار التى حرقت بساط حكمهم فى البلاد ومنها اهتزّ الشاعر الانكليزى اللورد «بيرون» هزّة الحماسة لأبناء الاغريق وهزّة الغضب على خلائف عثمان فسيرها قصائد خلَب بها ألباب قومه ومن لفّ لفّهم فى تلك العصبية الغربية ثم حمل بندقيته وانخرط فى جيش العصاة يحارب معهم أولياء أمورهم حتى خرّ صريعا فى ميدان القتال ، وحفظ اليونان له هذا الجميل فأقاموا لجسمه تمثالا فى شوارع أثينا وحفظوا فى معرض الاستقلال بها سريره الذى كان ينام عليه فى صف القتال وما أمكن حفظه من آثاره هناك

والذى عنانى بذكر هذه البلدة ماعامته قبل رحيلى الى اليونان من أن لمصر فيها ذكرا وفخراً وصفحة علوية تكتب بماء الذهب فى سجلّ الرحمة أولا ، وسجل الشجاعة ثانيا ، ثم ذكر المروءة على أبهى وأتمّ مثال . تلك الصحائف خلّدها لمصر فى بلاد اليونان بطل الشرق «ابراهيم باشا» فاتح المورة ، ومخمد الثورة ومخلّى البلاد العاصية لوجه السلطان فى ذلك

الزمان . وكنت أعلم أن فى «موسلنجى» أثراً خطياً لإبراهيم باشا معروضاً فى متحفها هو عهد أمانه لأهل تلك البلاد ولكن سبيل السفر اليها على مشقته جعلنى أتثبت من بقاء هذا الأثر هناك قبل الاقدام على الذهاب حتى إذا رأيته ورسمته نسيت نصب الطريق ، فكلفت من يعرفنى هذا ، ثم بان أن الأثر ليس هناك ، ولا يزال البحث عنه من أثر تكليفى جاريا ولما يجئنى خبر غايته الى الآن

كان معنا فى لوتراكى الاستاذ دلاور بك وظعن قبلنا إلى أثينا فحملته البحث لى عن هذه المأثرة وفيها جاءنى جوابه الذى أنشره ، وصورتان يونانيتان لعهد ابراهيم باشا وجواب محافظ «موسلنجى» عليه ، وهذا كتاب الاستاذ ، أما عهد الأمان وجواب المؤمنين فقد ترجما لى فى سفارتنا هناك الى الفرنسوية وهما ذان أرجو المقطم أن يترجمهما الى قرائه بالعربية وله شكر التاريخ والوطنية

سيدى الاستاذ الجليل

سلاماً واحتراماً وبعد فانى أمس بينما كنت مسرعا فى الطريق واذا برجل هرم استوقفنى وظهر أنه مدير الدفترخانة الذى كنت فى مكتبه للبحث عن جواب ابراهيم باشا . وقال لى إنه وجد المستند المطلوب والرد عليه فدعوته الى قهوة لأسمع منه التفصيل فقال: إن إبراهيم باشا لما وصل أمام «موسلنجى» كتب جواباً لعمدة المدينة يقول فيه إنه علم أنه مستعد لتسليم المدينة بدون حرب فهو يعطيه الأمان فجاء الرد من العمدة ينكر ذلك وأن المدينة لا تسلم مادام فيها رجل يحمل السلاح وعلى ذلك

بدأ الحصار وفى أثنائه أطلقت المدافع على المدينة فدمّرت معظم مبانيها وفى النهاية قرّر الرجال الخروج لملاقاة جيش إبراهيم ووقعت الوقعة ولم يبق أحد من اليونان فدخل جيش إبراهيم المدينة ولما دخل إبراهيم ووجد جثّة القائد اليونانى ترجّل وأمر بغسل وجهه من الدماء وقبّله وأطنب فى مدح بسالته . هذه هى الوقائع مختصرة كما هى ثابتة فى كتب اليونان ويؤيدها ثلاثة كتّاب انكليز أخذتُ أسماءهم . وفى المساء أرسل الىّ هذا الأستاذ صورة الخطابين وهى مع هذا ، أما الأصل فيقول هذا الاستاذ « وهو من المشهود لهم بالعلم والمعرفة » إن الأصل لاوجود له فى أىّ جهة كانت ولا يمكن أن يكون فى متحف المدينة لأن أمثال هذه المستندات كلّها تُحفظ فى الدفترخانة وهو أمينها . وقد اطلعنى على نسخ الجريدة التى كانت تطبع فى ذلك الوقت وفيها هذه التفاصيل

أرجو أن أكون قد وفّقت لأداء المهمة ، سلامى وسلام صبرى للجميع وقد عزمنا بمشيئة الله على السفر يوم الثلاثاء بعد الظهر إلى مصر فى الوابور الرومانى « داشيا » وإلى اللقاء فى مصر ، ودمتم فى حراسة الله وعنايته المخلص اهـ — وهذان هما الكتاب والجواب المشار اليهما :

من ابراهيم باشا

والى وسرعسكر جدّة والمورة ومحمد رشيد باشا والى وسرعسكر الروملّى

إليكم يامن أنتم محصورون فى موسولنجى صغاراً وكباراً نقول لكم إننا أرسلنا لكم الرجل الذى طلبتموه وبهذه الكيفية تحادثنا عن عدة أشياء من بضعة أيام . ولكن الأمان الذى تطلبونه يقتضى أمراً آخر

وهو ما نقوله لكم فيما يلى :

أولا : أن تسلموا سلاحكم تسليما تاما فلا يبقى مع أحد منكم ولو مبراة صغيرة

ثانياً : أن تقيموا فى أية بقعة أردتم من تركيا وإذا رغب أهل موسولنجى فى الاقامة بمكان آخر فاننا نمنحهم الإذن فى ذلك وإذا شاءوا المكث فى مكانهم أمكنهم ذلك مع بقاء بيوتهم وممتلكاتهم لهم ونؤكد لكم أننا لن نمس أرزاقهم وأرواحهم بأذى

فاذا قبلتم ماتقدم أعطيناكم الأمان

وهذا آخر جواب لنا

حرر فى ٢١ مارس سنة ١٨٢٦ م من معسكر الجيش

الى وزيرى إيالة المورة وإيالة الروملى السامبين

إنكما تخطئان فلسنا نحن الذين طلبوا المفاوضة أولا بل أنتما الطالبان

ولقد اطلعنا على وثيقة جوابكم ونشكر لكم لأنكم كتبتم لنا الحقيقة المجردة إذ قد تعذر علينا حتى الآن أن نعرفها من رجالكم وقد قصوها علينا بشكل قسوة . وما كنا نعتقد قط أنكم ستفكرون فى طلب استلام ثمانية آلاف سلاح دام لأن حياتنا تتوقف على هذه الأسلحة وعليه بعد ما اتضح لنا غرضكم بعد القرار الذى اتخذناه ليحدث ما تقضى به إرادة الله التى تجهلونها بقدر ما نجهلها نحن ولتكن مشيئته

موسولنجى فى ٢١ مارس سنة ١٨٢٦ م انتهى

فى أثينا أيضا

الجامع - الاكربول - بنا كى - استديوم معرض الاستقلال

أما الجامع الباقى بأثينا اليوم (وكثر مادرس فيها من الجوامع) فهو القائم بميدان مونوستراكى ماأدرى إن كان أصله كنيسة وحول جامعاً أو أنه أسس فى الاصل مسجداً فإن رسمه رسم الأولى ، وبجواره صف من الاعمدة لايزال قائماً بقبة تدل على أصل ضخم لكنيسة عظيمة وهو منها فى موضع المذبح وإن كان استقلاله عنها وتفرده برسم الجامع يفيد استقلال بنائه ولاسيما أن على بابه رخامة تشوف منها الناظر اسم مصطفى وسنة ١٢٨٠هـ وهو مغلق الباب يشبه من وجه بعيد قبة الغورى بالقاهرة ولم أدخله على رغم ترددى ، فبابه مغلق وبوابه غائب ، وقيل انه مجمع اليوم لآثار شرقية لاأعرفها وليس فى أثينا كلها على طول بقائها تحت حكم المسلمين مسجد أو أثر مسجد غير هذا . ومما تحسن الاشارة اليه ماعلمته بمصر من صديقى النبيل على سرى عمر بك وزيرنا المفوض بأثينا ، أن حكومة اليونان تنازلت لجلالة مولانا ملك مصر عن ستة آلاف قدم وسط مدينة أثينا لبناء مسجد عليها يناسب عظمة مصر ويهوى اليه المسلمون

وحضرة الوزير لم يك بأثينا حين زرناها بل كان مصطافاً خارج اليونان فحرمنا من أنس ولطف كريمين

أما الاكروبول فهو بقية مما ترك الأولون ، بناء كان رواقاً بأجنحة

وأعمدة بالطابع اليونانى الذى سبق الطابع البيزنطى ، وعلاماته منتشرة هنا فى أبنيتنا التى أخذت تزول وأظهرها مثلث منفرج الزاوية بارز على عقد الشباك والباب ، وقد خرب وينسبون خرابه للترك حين دخلوا أو حينما اعتصموا به وأريد إخراجهم منه ، ولا يزال بابه سليما وفيه الجامع الذى احتجزه الترك فى رواقه الأكبر وعلاماته الباقية الى اليوم بناء المئذنة الذى وضعوه فى أحد أركانه وكملوا به مربع المئذنة ، فلما زال حكمهم أزيلت ساريتها وجدع منها مازاد على بنائه ، ولم يبق فيه من أثر للترك إلا حجر ملق قرأت فيه اسم (مصطفى أفندى همت حصن قلعة بندو سنة ٢٠ مكرر) ورقم المئات مطموس وقيل لى ان صاحب هذا الحجر هو صاحب الجامع فى ميدان مونستراكى ، والأكروبول فى منظره أقرب الاشياء شبهاً بهيكل بعلبك إلا أن هذا أرق منه طابعاً ورونقاً



« الاكروبول فى أثينا »

وإن اختلف رسم كل منهما وتباينا سعة ونظاما . ويظهر أن الهيكل بنى بعد تدرج الفن وتطوره غير أنه بمقابلتهما يرى أن أصله فيهما واحد

ومن الاكروبول تتبيّن لك أثينا كلّها ويبين لك معبد « ايذبيوس » قاتل الوحش الهائل (اسفنكس) ذى الاجنحة السبعة وبجواره المرصد وهنا ولاشك قد صدق المحامى اليونانى فى تشبّبه بهواء الاكروبول

وترى باب الاكروبول فتلمح منه باب معبد الاقصر ، كلا المنظرين واحد . ولكن شتان بين المنظورين

مصر التى لامصر يبلغ شأوها ولها من الآثار أصدق شاهد

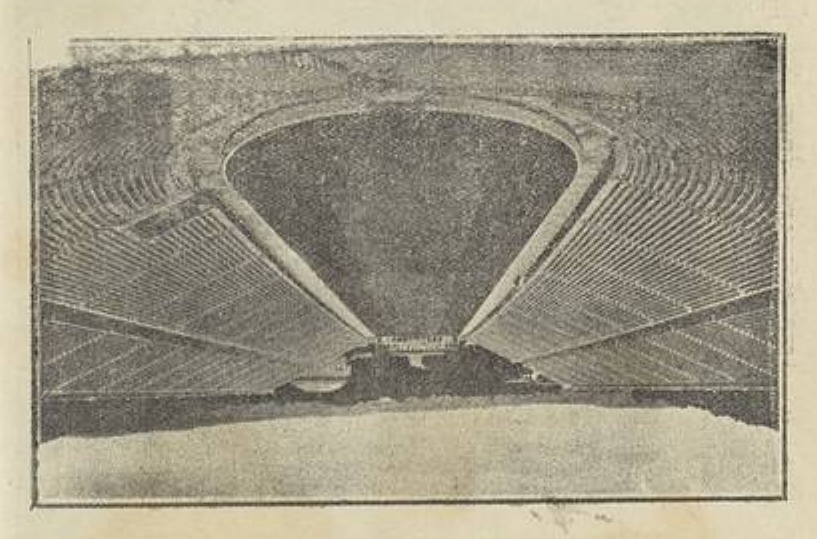


المؤلف والقاضى محمد عزمى فى الاكروبول

أما بناكى فهو اسم تاجر القطن الشهير بمصر بنى لقومه بمالنا فى عاصمته متحفاً لايقلّ ثمنه وثمن ما فيه عن ½ مليون إن كان ذلك المتحف يقوّم . وهو بناء حديث يدخله الزائرون مجاناً فيرون فيه نفائس جمعتها يد المسيو بناكى من مصريّة وعربيّة وفارسيّة ويونانيّة ، أهم مالفت نظرى فيه مجلس شرقىّ بناه بالرخام الملوّن وقد جمعه من هنا ، وفيه «فسقيّة»

ومشارب ومحراب إسلامى يخيّل إليك أنك فى مسجد من مساجد المماليك اللأئى يفخر بها التاريخ ، او كأنه نقل من باب الجوهرية بالازهر . وفى غرفة السّلاح ززد لفارس نحاسىّ محوّط بتعويذة عربيّة تحفظ لابسه من شباة الظّبي وبه «شمعدانان» نحاسيّان عجيبان صنع أحدهما باسم قايتباى وصنع ثانيهما باسم الملك المؤيّد . وفيه الى آخر ما فيه مما أدعو كلّ مصرىّ أن يرى ما فيه ليعلم كيف تكون الوطنيّة وكيف تحمل أبناءها الحقيقيّين على خدمة إخوانهم الحقيقيّين ؟

أما الاستديوم فهو الملعب الفخم الذى شيّده فى أثينا مكان ملعبها القديم الخواجة أفيروف المصرى أيضاً وبمال مصرىّ أيضاً . بناء بيضاوىّ



الاستديوم فى اليونان

سماوىّ حلبته مستطيلة يلفّ بها ستون ألف مقعد رخامىّ رصّت مدرّجة مقسّمة للجالسين يعلو بعضهم بعضاً فلا يحجب جسمٌ عيناً وأنظارهم

تصبُّ جميعاً على حوض الاستديوم ، وفى قاعه متّسع للاعبين من كلّ نوع وفى كلّ مضرب ، وفى اتّجاه الداخل كرسيّان خاصّان نصب أحدهما للملك قسطنطين والثانى للملكة زوجته بقى الكرسيّان وذهب الملكان ، وقد ابتدِىء فى بنائه من سنة ١٨٩٦ ميلاديّة واحتُفِل بفتحه قريباً للّاعبين

ومعرض الاستقلال هو كما قلنا بناء يجمع حسب هذه الأمة الحديثة ممّا غنموه فى حروبهم مع الاتراك وأتباعهم ، لفت نظرى فيه لوحة عربيّة هذا نصّ ماهو مكتوب فيها (قال النبيّ عليه السلام عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة) وتحتها « مقرنصة » ملكية هي شعار الدولة العليّة هذا نص المكتوب عليها (المستند بتوفيقات الربّانيّة ملك الدولة العثمانيّة سنة ١٣١٠) وهذه السنة هى سنة الحرب



المؤلف ورفيقه ادوار بك تصيري امام متحف اثينا

العثمانيّة اليونانيّة التى خاضها المرحوم أدهم باشا ، وبجوار اللوحين لوح ثالث فيه شجرة آل عثمان برسم ملوكهم المعروفة ولم أدر سرّ الجمع بين هذه الثلاث ، أفيقصِد المنظّم أن الحديث الأَول لم يطبّقه أهل الشجرة الثانية الذين ضاع منهم هذا الشِعار الموضوع بين الحديث والشجرة بما صنعوا فى عدل السنين والأَيام أو ماجرى عليهم من عدل السنين والأَيّام ... »

سان جورج

سان جورج الفارس القدّيس الذى طعَن التنين بمزراقه ، والذى تراه راكباً صفحة الجنيه الإنجليزى يذلّل بذهبه لبريطانيا مالا يذلِله حساما ،



صورة المؤلف ورفيقه حبيب بسطة على الطريق الصاعد للكنيسة

والذى يقول السكسونيون إنه حاميهم وحافظ سلطانهم ، هو كذلك فى بلاد الإغريق يرفعون اسمه على أعلى كنيسة فى مدنهم وقرام ، وأينما سِرت فرأيت كنيسة فى الذروة من مبانى البلد فاعلم أنها كنيسة سان جورج

وكنيسة سان جورج فى أثينا هى على قمّة من قممها أعلى مافى قممها ، بل أعلى من الاكروبول وما بنى على سواء الاكروبول ، وضعت قواعدها على شَوى الربوة العالى الى ٢٧٧ متراً ، ثم استوت بعد قامة الربوة بقامتها هى ، فتراها تبين للناظرين متراثية لهم من أقطارها ، وقد أطرت بحبال من كهرباء ووضع فى صحنها برج بلّورى على مصباح قوىّ كنور المنارات الذى يضىء فى البحار يَقِد فى مواسمهم — صعدنا اليها بطريق لولبىّ تعهد بصنعه خواجه من خواجاتهم ، فى نظير أن تركته الحكومة له عشر سنين بلا إتاوة تأخذها منه على ماصنعه فيه ، وقد صنع فيه حدائق غلبا زرَعها على جانبيه ، وهو طريق ممهّد بالأسمنت ، كل درجة منه تستوى على طول ٥٠ أو ٦٠ متراً وفى منحنياته اللائى ظنّ الخواجة أن الصاعد قد وصل تعبه إلى الراحة فيها ، وضع هناك قهوة بكراسى وموائد ، ثم فى وسط المصعد الحديقة الكبيرة ، مملوءة بالمقاعد الكثيرة . وانتهى بنا الصعود إلى الكنيسة ، وهى غرفتان إحداهما للقبور والثانية مقهى فى شرقيّها وغربيّها مقاعد للجالسين ، ومن شاء منهم طلب الحلال وجد القهوة وشراب الليمون وفاكهة مسكّرة وانواعا من الحلوى على مجلس تتناوَحُه الرياح الجافة من مهابّها بقوّة من نشاط الصفاء

الطبيعي فى تلك المنطقــة ، وإذ رآنى قسّيس الكنيسة وتلميذه بملابسى الفقهية حنّا إلىّ ، والربّ على كل حال واحد لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يصفون . وفى سلانيك كنيسة سان جورج ، وفى قواله كنيسة سان جورج ، وفى كثير من البلاد تجِد هذا الاسم ظاهراً عالياً . وبلاد اليونان بلاد دين ويقين ، وهم أهل حشمة وصلاح ، والقسيس عنـدهم فى غاية الاحترام والاكرام ، وأقول إنهم أيضاً فى ذوق وأدب ، والكنائس الصغيرة وهى تشبه الزوايا عندنا منتشرة فى كل جهة ، وهى فى بنائهـا أشبه شىء بمشاهد الأولياء عندنا ، غرفة عالية مستطيلة ، تعلوها قبة يتناسب ارتفاعها مع سعة بنائها ، ومكان المذبح فيها مكان القبلة فى زوايانا كأن هذا الرسم المتوحّد فى أمكنة العبادة الشرقيّة هندسه ذوق متحد ، بل كنت أرى تلك المعابد الصغيرة فى القرى كأنها مبنية بالطوب النىء مما يشبِه زوايا العزب والكفور فى بلادنا

وأغلب ما غلب على أذهان اليونان إذ يرونى بالجبّة والقفطان إلهام فطرى أنى دينى مسلم ؛ حتى لقـد دهشت من خادم الفندق بلوتراكى ، وهو غلام كنت أحسبه غبياً إذ نزل فيه بعد مجيئنا إخوان لنا من قبط مصر معهم قسيس قبطى ، فجاء غلام الفندق يكلّمنى بالإشارة يريد أن يقول لى ، إن قسّيساً مثلك مصرىّ قد نزل ضيفاً بالفندق ولكنّ عمامته سوداء غير عمامتى البيضاء . وقال لى يونانى مصرى إنه لاعجب ألا يدهش اليونانيون من العمامة البيضاء فقسس القرى فى داخل البلاد يلبسونها . أما أنا فتعليلى أن المشايخ الترك لم يتركوا البلاد من زمن ينسى ، وأن

كثيراً من اليونان يعرفون مصر وينقلون عنها فليست هي بغريبة عنهم، ولعلّ وجه الأنس بها أكثر ، ان لبس الجبّة والقفطان ، في وسطهما الحزام ، وعلى الهامة العمامة ، وهو منظر وحيد فريد في تلك البقاع ، يلفت النظر ، فهو في ائتلافه ودلالته على معنى تمسّك صاحبه بمذهبه ، أجلب للأنس ، وأدعى للإلف ، وهنا معنى أحسسته في هذه الرحلة كثيراً وكثيراً ما نفعني ورفع الحَرَج عني حتى لقد كنت مدعوّاً مع وزيرنا النائب في مصيفه ودعا عائلة بجمعها فقالت فتاة الحيّ منهم لمضيفنا وترجم لي عبارتها التي لا أنساها بل أسوقها للزائغين عن عمامتهم . قالت مدموازيل أرور : إن العمامة شارة الرجولة . صدقت الفتاة وكذب الزائغون

« بوسه ليني »

بوسه ليني كلمة إغريقية ، معناها « ما اسمك » أجعلها اليوم عنوان مقالي ، لأن وقعها في أذني من فم الطفل خرالمبي لايزال رنينه متواصلا يحرّك في نفسي أوتار الأمل أن أعيش وأحيا حتى أرى أطفالنا في مصر مثل الطفل خرالمبي ، الذي هو عنوان متكرّر في نشء اليونان

نزلت « كيفسيا » وهي ضاحية من ضواحي أثينا ، قائمة على جبل هو سهل أو سهل في شكل جبل ، فارتفاعها عن سطح البحر ارتفاع جبل ولكن انبساطها في أحضانه ، ونبت النجم والشجر في أحواضه ، وتقلّب الدوح والريحان على أثباجه ، وتفرُّع الأشجار الباسقة بين كثبانه ، وتخلّل النسيم الجافّ لجوّه النقي ، وقيام الدور والقصور على جوانب

الطرق المعبّدة المقطرنة ، وانتثارها بين الغيضات والجنّات ، ومناوحتها للسفوح والغابات ، كل أولئك جعل ضاحية كيفسيا هى جنة اليونان ، أو روضة جناتها وحبّة العقد فى مصايفها ومرابعها ، وكنت أنزل منها فى فندق « بنتلكون » ، وهو أغلى فندق يراه الزائر فى رحلته لبلاد اليونان . فندق ظريف لطيف مع غلائه وارتفاع أجوره بالنسبة لأشكاله وأمثاله ، وكان من بقى من الاخوان فيه ، الصديق القاضى محمد عزمى ؛ وقضينا أياما كنّا نختلس ضحاها وأصيلها للتريُّض فى غابة الصنوبر القائمة إزاءه ؛ وهى غابة متباعدة الأشجار تتخللها الشمس كما يتخللها الظل ، على بسائط منفسحة ، كأنما قاسها القائس ، وفى جنباتها مقاه ومقاعد ، لايلبث الجائس خلالها إن غادر مقهى أن يلقى مقعـداً ، أو يرى جدولا اتخذت حافتاه للسائحين ، وفى تلك الغابة خرج كثير من أهل أثينا ، فاصطافوا بها فى عشش وخيام ، كما يصطاف أهل الشمال فى مديرية الغربيّة ، أو كما يخرج سكان العريش إلى بطائح الرمل ، وفسائل النخل على سيف البحر . وجبّتى وعمامتى كرّمهما الله ، كانتا أظهر إعلان للابسهما ، وبه التفّ حولى صبية الأهلين ، فما إن جلست فى مجلس حتى رأيت الأطفال يحومون حولى ، وإن هى إلا دريخمات طلبت بها حلوى أو كازوزة لهؤلاء الاطفال الأطهار ، حتى كان مجلسى الثانى كأنى عريف وسط كتّاب لفت نظرى منهم طفل لم يصل الرابعة ، حين يرانى كأنما كنّ فى ميعادى ، فهو يقفز للقائى ببشر وترحاب . وهو يهيب بلداته أن أقبلوا ، وهو يخاطبهم بلغته كأنما يقودهم أو يقول لهم خيراً عن هذا الشيخ الغريب وكنت تلقيت

ترجمة « ما اسمك » بكلمة « بوسه لينيك » وهى غلط صحّحه لى هذا الطفل « خرالمبى » فانى لما أردت أن أسأله عن اسمه بكلمة « بوسه لينيك » كان جوابه أسرع من البرق « أوش . بوسه لينى . خرالمبى » وأوش معناها لا فتراه ردّ غلطى، وصححه ، وأجاب سؤالى فى جملة ذات ثلاث، ماونى فيها ولا أخطأ ، وألطف ما كان فيها أن لم يحمّلنى مرارة التخطىء ، بل مرّ على خطئى وفسّر لى صوابه فى قسامة وطلاقة أود والله أن أعيش حتى أرى أمثاله فى أبنائنا وأطفالنا ليفرح بهم الوطن العزيز . وليست هذه واحدة من خرالمبى بل يكاد أولئك النشء يكونونه ، وأذكر وأنا فى لوترا كى أنى دخلت مجلساً على البحر يغصّ بنحو ألف ، فما أن رأتنى طفلة فى سنّ خرالمبى حتى تركت أبويها جارية فى لهف وشوق إلى الشيخ الشرقى ، كأنى أبوها أو جدّها ، وأجلستها بجوارى ودعوت لها بالحلوى وظلّت تناغينى بجرْس لفظها الربّانى ولا تلتفت إلى إشارات أبويها ، وكثيراً وأنا أمرّ ، أن يقابلنى الأطفال، وأكثرهم من يونانيّ مصر بكلمة سعيدة أو صباح الخير ،وبحثت قليلا فى هذه التربية النجيبة وتنشىء أبناء الغد على اليقظة للمستقبل ،فهدانى البحث إلى أن الأمّ اليونانيّة أمّ تلتفت لعقل طفلها أكثر مما تلتفت لبطنه ، بل لعلّ الجوع وترك الأكل هما النظام المتّبع عند أولئك الأقوام ، ولست ألوم الأم المصرية على همّها فيما تدسه فى بطن ابنها ، فإن الحياة عندنا أشبه شىء بالغربال ، هيهات أن تعنى بسدّ خرق فيه وكله خروق

الضرائب فى اليونان

يكاد لايبقَ فى بلاد اليونان شىء يخلو من الضريبة إلا الهواء ، فالمنام والطعام والشراب وجميع المطلوبات عليها ضريبة تتقاضاها الحكومة ، وعلبة السجاير تباع بـ١٦٠ درخمه فى داخل البلاد تأخُذ الحكومة منها ١٢ درخمة والباقى ثمنها وأجر عملها وربح تجارتها ، وأجرة النوم فى السرير تأخذ عليه ١٥ فى المائة وكذلك ثمن الطعام فى المطعم وأجر الركوب فى السيارة وأكثر من هذا من يركب من بلادها بحراً أو برّاً أو جواً فانها تأخذمنه «باصاً» بنسبة تزيدعن سابقه ، بل إن من يخرُج من حدوداليونان لاينبغى أن يحمل درخمة معه ، والذاهبون إليها لكى يعودوا غير خالين ، يجب أن يعلموا « الجمرك » حين وصولهم بما معهم من المال كيلا يرجعوا بأكثر منه . واضطردت الحكومة على هذه الوتيرة فحرمت على رعيّتها أن تسيح فى خارج البلاد ، واليوم لايخرج يونانىّ من وطنه إلا إذا كان مريضاً أو خارجاً لا إلى عودة ، واتفق أن كنافى كيفسيا فدفعنا (باص) الحكومة وتعريفة البلديّة ورسماً لجمعية هناك قيل إنها من جمعيّات البرّ ، وكل هذه الرسوم الاضافيّة تتقاضاها الفنادق والمشارب فوق أجرها الأصلى ، أما البقشيش وقدره ١٠ فى المائة فرسم واجب الدفع لاشكر عليه ولا «مرسى» فمن يرد أن يزاد إكراماً نفّل البقشيش أضعافاً ، ولذلك يحسن بالزائر أن يقاول على مطلوبه بما يدخله الباص والبقشيش ، فانهم يذكرون الأصل مع أن الفرع ليس بقليل . ورسوم المتاحف تقدّر لأبناء

البلد غير ما تقدّر للسائحين ، فاليونانى يدفع عشرة دراخم حين يدفع السائح ٥٠ درخمة اذا دخل المتحف مثلا أو الاكروبول ، ولقد قطعنا تذاكرنا من الاسكندرية ذهاباً وإياباً فلما أردنا الرجوع أبوا أن يؤشروا إلا إن دفعنا باص الرجوع . وبعد إقامة ثلاثين يوماً يجب الاستئذان عما نزيد عنها برسم يناسبه ، وكذلك يستأذن البوليس للسفر برسم يناسبه أيضاً ، ولولا إحساسنا بضعف الدرخمة لضويقنا من ثقل هذه الرسوم ، وهى رسوم تجبى كلها للخزينة وتحصّل بمنتهى السهولة ، وألطف مارأيته فيها أن علبة الكبريت بدرخمة ونصف درخمة تأخذ الحكومة منها كما تأخذ من الدخان ولكن على كل علبة ورقة دمغة إذا رفعها الشارى وفتح العلبة وجدها ملأى ، وهى طريقة أضمن مما عندنا ، فعلب الكبريت هنا أكثرها حبالى بالورق المهمل ، ولو جبي الرسم على العلبة المتموغة لكان أضمن للشارى وأقطع لغشّ البائع . أما الدخان الذى يصدر للخارج فحكمه غير هذا الحكم لتسهيل الإصدار ، ولكن هيهات أن يحصل عليه ابن البلد هناك ، ولقد أردت أن أشترى دخاناً فرطا من معامل قواله فقامت لى عقبات لم أستطع تذليلها ، إذ يحتاج لذلك استئذان الداخليّة والخارجيّة والماليّة إلى آخر هذا السلك الطويل ، وبعد هذا قيل إن الدخان الذى آخذه من معامله ورق غير مفروم ، والمعامل شغلها الوحيد فى الدخان إنما هو فرز أوراقه وتنويع جنسه وترزيم كل نوع

(١٨٤)

يا آخت أندلس عليك سلام

لما أعلنت الحرب البلقانية ذهب ناظم باشا وزير الحربيّة العثمانيّة إلى محطة الاستانة يودّع الضباط المسافرين إلى ميدان القتال فكان مما قاله لهم كلمته هذه الغرور : (ياحضرات الضباط لاتنسوا أن تأخذوا معكم كسى التشريفة لتلبسوها وأنتم داخلون صوفيا) فما كان جواب الضباط الآخرين إلا أن وصلوا بجيوشهم إلى شطلجة ، وهناك قعد ناظم باشا ينظم صكّ التنازل عن ذلك الملك العريض ويجيد للظافرين أنواع الطعام التركىّ حتى استخلص من قائد الأعداء كلمة الإعجاب والإقرار بتفوّق الطهى العثمانى على الطهى البلقانى . . . !

كذلك صنع من قبل علىّ بن عيسى بن ماهان قائد جيوش الأمين لما ذهب لمحاربة المأمون ، فقد كان فى متاعه قيد من الفضة أعدّه للمأمون حين يأخذه أسيراً ، فكان جواب طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون على هذا القيد الفضىّ أن أخذ رأس الأمين لسيّده بدلا من قيد ماهان

ومثل هذه العبرة جرت فى الحرب الأخيرة لما صرخ الأمبراطور غليوم فى وجه جيوشه : (أن دوسوا بأرجلكم جنود الكابتن فرنش الحقيرة) فأجابه القدر المقدّر بطرده من رقعة بلاده ، واحتوته الآن دار بعيدة عن الأوطان . وقديماً نظم العرب الحكماء هذه العبرة فى مثلهم السائر على وجه الدهر « من خاف سلِم ، ومن اغترّ ندِم »

إن الناظر إلى خريطة تركية أوربا قبل الحرب البلقانيّة ، يشبّهها

بطائر عبل الجثة غليظ العنق ، منقاره وعرفه يشرفان على بحر مرمرة ، والناظر إليها اليوم يجد الطائر بجسمه وعنقه ونصف رأسه قد أخذه أهل الجزيرة ، لم يبقوا منه للترك إلا نصف الرأس والمنقار ، وكانت معاهدة «سيفر» قد اقتطعت من هذا الباقى بقيته مع ولاية «أمونيا» المرحومة فضمّتها إلى اليونان ، ثم عادت معاهدة لوزان فأبقت الجسم الاناضولىّ على حاله وتركت للترك حرما حول القسطنطينية لا يردّ عنها قذائف المدفع يوم يركز خارج الحرم ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، فلا نعود إلى الذكرى الاولى يوم وقف الأتراك الأولون على أسوار فينا ، أو صعدوا شمالا إلى نهر الدنيبر ، أو نزلوا جنوباً إلى آخر حدود اليونان ، فقد ذهبت تلك الأحقاب بأهليها ، ولكنّا نذكر قليلا تلك البقاع التى اخترمت من جسم الدولة سنة ١٩١٢ م بعد ما ظلّت تحت راية الهلال خمسة قرون طبع فيها الهلال من مزاياه كثيراً ، ولذلك حين نزلنا من الطائرة «يؤنينا» فى مدينة سلانيك وهى عاصمة مقدونيا القديمة التى حكمت الدنيا قديماً ، لم نشعر فى هذه المدينة بإحساس يغيّر منظرها فى عينى ، فهى هى مدينة شرقية تركيّة كدت أنسى وأنا فيها حديث الحرب البلقانيّة لو لا أن أثراً من آثار الاسلام لم تره العين باقياً للإسلام ، وما أبى عليهم من آثاره أن يمحوه فقد غيّروه ، وبقى الأثر شاهداً على المؤثر – سلانيك هذه مقرّ الفيلق المقدونى التركى بقيت ثكناتها وميادين جيوشها وهيبة الفيلق التركىّ بها ظاهرة لليوم ، فالثكنات والبيمارستانات ومحالّ العرض تركيّة الظاهر يونانيّة الباطن ، وسرت منها فى الوابور ثمانى ساعات مشرّقا إلى بلدة

« سرس » ومنها ركبت الأتومبيل ساعتين جنوبا بشرق الى قواله فى بلاد وسهول ومحطات على منظر يكاد يكون واحداً . هو منظر ما عندنا فى الوجه البحرى ، والزمن كان صيفاً بعد الحصاد فجذور القمح وأشجار الصفصاف والجوز والزيتون ، ثم انحدار الماء فى الأخوار ، ونبت الدخان كأنه نبات الفول فى صباه ، وقيام العزب والكفور ، وانسراب القطعان من الأنعام فى مسارب النبت ومسارح الخضرة ، كل أولئك غلب على ذكر التاريخ وكاد ينسينى الحقيقة وأني أسير فى بلاد سبق أن رثاها المرحوم شوقى بمرثيته الخالدة التى مطلعها هذا العنوان :

يا أخت أندلس عليك سلام

المقامة البشرية والطائرة يونينا

لما قتَل بشر بن عوانة الأسد « داذاً » فى طريق خزاعة ، أخذ يهتف بفخره فى قصيدته الرّنانة يخاطب بها حبيبته فاطمة :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

فما إن كاد بشر يفرغ من شعره حتى طلع له أمرد كشقّ القمر على فرسه مدجّجاً يقول : يابشر ، أن قتلت بهيمة تملأ ماضغيك فخراً ؟ الى آخر مافى المقامة البشرّية من براعة كاتب الزمان الهمذانى

وفى رحلتى هذا العام تمثّلت هذه المقامة مرّة أخرى مع كاتب الزمان الأستاذ الشيخ البشرى ، فقد قرأت له وأنا هناك مقالين أبدع فيهما وأعجب ، يقصّ حديثه وقد ركب الطيارة لاول ما ركبها فى حياته .

فقلت يا سبحان الله ، رجل في وطنه بين أهله ، يدعى ليركب الطيارة ساعة واحدة ينتقل بها في جوّ مصر من سماء المعزّ إلى سماء الاسكندر ، وما ركبها حتى سال لعاب دعاته على إجابته ، وملؤا أذنيه سحراً بتهوينهم شأن رحلته وبأمان ركوبته ، ثم لم يمتطها إلا بعد أن قتله صغيره بكلمته ، وبعد هذا وهذا يملأ أنهار الأهرام في يومين متتالين بقامه ومداده ؟

وكنت اعتزمت السفر إلى شرقيّ اليونان ، والوصول إلى قواله في قطار البر وسيارته يقتضي اثنتين وعشرين ساعة وكذلك إن سافرت لها بحراً ، فعلمت أن هذا الطريق يختصر من أثينا إلى سلانيك في ساعتين ولم أتردد وأنا في بلاد الغربة ، وبين من لا أعرفهم ، ولا أكالمهم ، ولا رفيق ولا أنيس . ولا داعي ، ولا مدلل ، ولا تجربة ، ولا ثقة بمن جرّب ، وما هي إلا عزمة فإذا بي في الطيارة بمطار أثينا ، ثم إذا بي في الطيارة بمطار سلانيك ، وعدت كذلك في لمح الساعتين ذاهباً في الطيارة « يؤنينا » وعائداً في الطيارة « سلانيك » ذهاب وعودة لست أدري كيف استنبط الكاتب الفحل مقالتيه البليغتين من ساعة واحدة ركبها ذاهباً بين عاصمتي بلاده ؟

وأعجب من هذا أن كان ركوبي هذا حديثاً أسأل عنه . بل حديثاً قال لي قنصلنا هناك : لم يبق إنسان في أثينا إلا عرفه وأكبر صاحبه ؟ فعجبت ، لم كل هذا وركوب الطيارة لاشيء فيه ، فما هي إلا جلسة بها قوم قعود ، على كراسي وثيرة في غرفة نضرة ، ما إن تكون بأرض حتى تحل بأخرى ، لم نحس لها صعوداً ولا هبوطاً ولا استواء ، بل إنما هي

غرفتنا التى نحن فيها ومجلسنا الذى كنا به ، فمنّا القارىء ، ومنّا المتكلّم ، ومنّا المتفرّج ، ولطُف قائد الطيارة ففرّق علينا الحلوى و « البسكوت »

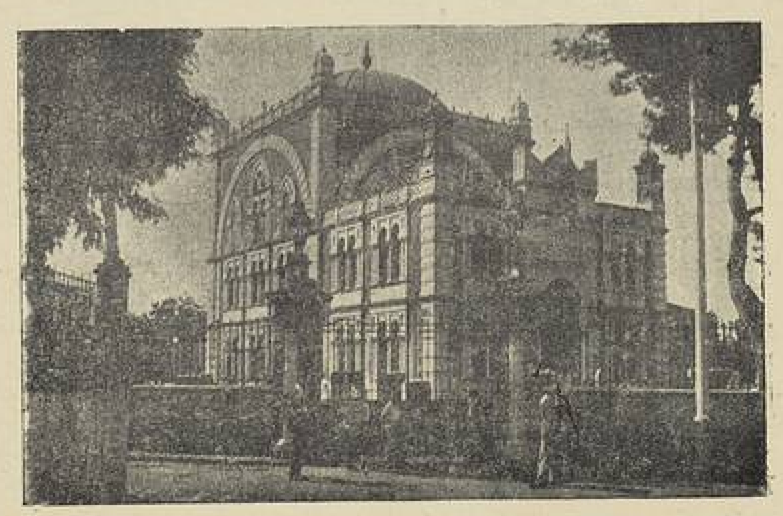
تقف الطيارة فى عريشها وقفة الطير على فننه ، أو كأنما هى الزرافة خلق الله يديها أطول من رجليها ، فالراكب فيها حينذاك كالراكب على عنق فرس ، فاذا ما استقلّت بأحوذيّها أخذت تصعد فى الجو كأنها تمشى مستقيمة على طريق مستقيم لسعة الجو ومواتاة لطفه لها حيث لا مانع من تطويل الخط لها طولا مرتفعاً على درج « السناتيم » لا تحسّ له صعوداً ، وهى إذ ذاك ترفع زِمكّها وتعلو به علواً لا يلبث الركاب أن يشعر وافيه باستوائهم ، وأنها كلما ارتفعت أعلت الزمكّ بنسبة الارتفاع محافظة على الاستواء فلا يحسّون أنهم صاعدون وكذلك لا يحسّون وهم هابطون ، فقد حفظ العلم استقامتهم ووضع سرّه فى الطيارة فأدّت أمانته للراكبين آمنين مطمئنين

كان صبحاً سعيداً حين جاءت سيارة الطيارة إلى فندق الأكروبول فى الرابعة صباحا ، وكنت قد صحوت لها فى الثالثة ، وكان أهل الفندق جميعاً يتظننون عنى ، ويتساءلون ماذا يفعل ، ورزمت جرامېزى فى رزمة خفيفة طلع بها الخادم ، فما كدت أجلس على كرسىّ السيارة والدلجة قائمة حتّى سمعت لسانا عربيّا يستفتح على سمعى بهذه الكلمة السعيدة (صباح الخير يا أستاذ) فامتلأ قلبى فألا وفرحا ، وعلمت والسيارة تدرج بركّاب الطيارة أن ستحتلّ مصر من طيّارة اليونان نصف كراسيها ، فقد حملت اثنى عشر راكبا ، غير أربعة من عمّالها ، الكمسارى والقائد والسائقين وكان نصف الركوب عُرُسا أى كان معنا ثلاث عرائس وثلاثة عرس

أربعة من مصر ، وآخران من غير مصر ؛ والشهر للأزواج شهر العسل. وكنا أربعة من الدقهلية ، أنا وعروسان وأخوها ؛ والعروسان الآخران من الاسكندرية ، فارتفع بذلك « بنط » مصر والعربيّة فى اليونان ، والشيخ المسلم المعمّم وحده كان صاحب هـذا القلم ؛ وهو وحده كان محط أنظار الجميع ومحلّ إكبارهم ، وقائد الطيارة « يؤنينا » زاد به الفرح فأخذ يتفنّن فى إدخال السرور علىّ فيرينى المدائن والثغور ، ويرتفع إلى ١٥٠٠ متر ثم يهبط إلى سطوح الدور ، وكانت الشمس تشرق حينذاك فى منتصف السابعة فركبنا عقب الفجر بعد أن صلّيت الصبح فى محطّة المطار ، وأخذت السّماء تسفر لنا رويداً رويداً عن وجه ذكاء ، والدنيا تمر تحتنا مرّ السحاب فوقنا ، فمن سهل الى جبل الى زرع وشجر ، وأرض وبحر ، ومدن وبوادى وبالاختصار ضع خريطة منمقة على ظهر مكتبك ، ومن فوقها لوح من البلّور بمساحته ، وانظرها من فوقه وقد هلهل البلّور منظرها ، تتمثل ماكنا نرى به دنيا اليونان من شبّاك الطيارة ، أما أزيزها فكان كأزّ البكر حجبه عنا قطعة من قطن مندوف وضعناها فى الصماخين ، ثم ألفت الأذن الأزيز فعريت له طبلتها ، وكنت أتمشّى فى الطائرة الى مخزنها ومرجلها كأنى أتفرّج على غرفة عروس ، وتكشّفت لنا السماء عن صباح أغرّ ، وشمس طالعتنا بنورها كما يطلع نور المسرح ، أقل : فقليلا ، فأكثر ، فكثيراً ؛ وما إن ذاب طلّ الشجر ورفعت عن وجهها برقع الخفر حتى قيل لنا : سلانيك ، ونصبت السلّم على أرض المطار فاستوت عليه ، وقيل الحمد لله رب العالمين

سلانيـــك

أربعمائة مسجد قيل لى انها كانت بهذه المدينة لم يبق منها اليوم مسجد . أما ما كان أصله كنيسة فقد عاد الى أصله ، وأما ما أنشىء مسجداً فقد ذهب الأصل وما أنشىء له ، ونخصّ بالذكر ثلاثة أمكنة من هذه المعابد رأيتها : كنيسة سان جورج وكانت مسجدا ، لم أزُرْها ولكن دللت عليها بمئذنتها التى جدَعوها فبقيت ظاهرة بها . ومسجد « جامى إكرام » أى جامع إكرام وهو مسجد اسلامى إصالة ، باق بشكله وبنائه إلا مئذنته فقد هدموا ظاهرها ، وإلا قبلة فقد بنوا جوفها وسوّوها بالجدار ، وهو اليوم مخصّص لقبور وآثار من الأحجار جمعوها فيه ، فهو فُرجة ومشهد ودار آثار



دار الآثار الآن فى سلانيك

أما جامع البلد الأعظم فقد كان كنيستها العظمى ، وعاد اليوم كنيسة

كما بدأ ، أعنى به مسجد « أيا صوفيا » . ذهبت اليه فوجدت على بابه رخامة منقوشاً عليها بالذهب هذان الرقمان (١٤٤٣ — ١٩١٢) اشارة الى السنة التى دخل فيها الترك سلانيك ، والسنة التى خرجوا منها وتركوا الكنيسة — ومسجد أيا صوفيا هذا أنشىء قبل جامع أيا صوفيا فى استامبول بخمسين سنة ، وأخذه الترك قبل أخيه بعشر سنين ، ونظامهما على مايقال واحد لم يزد الترك فيه شيئاً الا سجفاً وضعوه على بابه بطول الواجهة فوق أعمدة رخامية تشرف على فناء مسوّر فى وسطه ميضئة بنوها ، وعلى ركنه مئذنة جدعت الى مستوى السقف : على مربعها اليوم ناقوس يدقّ مكان دائرة المؤذّن فى زمن الترك . وأنشأوا فى محرابه قبلة لم يرفعها اليونان ولكن سدلوا عليها ستاراً يحجُبُها ، كما جمعوا ألواح الرخام التى كتبها الترك بالقرآن كومة واحدة بجوار بئر محفورة فى رُكن مزوى أرانيها الشمّاس تزهر ببريقها ، ما كسرت ولا ذهب منها حرف ، والصور التى بداخل الكنيسة يبين عليها القدم فما أدرى إن كانت هى الصور الاولى أم صورا أنشئت

وقطعت سلانيك من جنباتها الأربع ، فأما حيّها الذى يطلّ على البحر فحديثٌ منشأ ، وأما باقى البلد فكأنه جهة باب الخلق ، ولفت نظرى فيها حمام تركىّ لا يزال مستعملاً إلى يومنا هذا ، دخلته أتفرج عليه فقرأت على بابه لوح رخام باسم منشئه « السلطان محمد بن بايزيد » وهو بناء شرقىّ بديع بثلاث قباب متتالية فى الحجم تبدو للناظر شاهقة

وعلى منحنى الميناء بناء آخر كأنّه « ناظورة » بشكل اسطوانة طويلة

قامت على محيطها وارتفعت إلى علوّ واضح ، دخلناها فاذا بسلّمها عريض، حلزوني يدور صعداً مع البناء كانّما أعدّ لمطلع الدوابّ وهى تشدّ المدافع لتركز على قمته ، وفى جوف السلّم غرف ذات طبقات اتخذها القوم اليوم لمنافعهم ، وأعلى غرفة فيها وجدناها مكتباً لكشّافة سلانيك ، وينسبون بناء هذه الناظورة هناك للسلطان عبد العزيز خان ويجعلها أهل سلانيك رمزاً لبلدتهم ، فهم يمثلونها كالدمى فى أمثال لطيفة بالخشب المخفّف ويبيعونها تحفا توضع فى الأواوين زينة لها وعليها علم اليونان الآن يخفق

وأكثر أهل سلانيك من اليهود ويقال انّ بها ستين الفا منهم هم أصحاب التجارة والمال فيها ، والزائر الغريب يتحسّس روح البغضاء بين اليهود واليونان وهى بغضاء لايسترها فريق دون فريق . وكنا هناك أيام أن ترامت للعالم أخبار الألمان فى اليهود فكدت أخشى أن تحقّق هذه الوقائع فى اليونان

ورأيت فى سلانيك قوس النصر التى بنيت للامبراطور « جورليس » أشبه شيء بباب



المؤلف ورفيقه رئيس ادارة الاسكندرية تحت ناظورة سلانيك

النصر القائم فى القاهرة ، لولا أن قوس الامبراطور مستقلة البناء يمرّ
الناس من تحتها وعلى جانبيها ، وباب النصر هنا عريض متصل بالسور
لا يتميّز عن سائره

فى سهل مقدونيا

مقدونيا تلك المملكة القديمة التى أخرجت « فيلبس » الأول وابنه
« اسكندر الأكبر » والتى نازعت اليونان سيادتها ويروى التاريخ عن
« فيلبس » ماعرضه على أثينا فى معاهدةٍ من يقرأها ير « اللورد ملنر »
كأنّه نسخها لمصر فى معاهدته المشهورة . فالرجلان فيها ينسجان فى العرض
على منوال واحد ، قول حرّ ومعنى مرّ ، أو كلام على رأى المثل العامىّ « اقرأ
تفرح جرّب تحزن » . وضرب الدهر ضرباته وطويت اليوم دولة مقدونيا فى
علم أثينا وأصبح سكان تلك المنطقة يونانيين أكثر من اليونانيين — ولقد
ركبت من « سرس » الى « قواله » ومعى رجال من أهل تلك الناحية فسمعتهم
يتحدثون بحماسة يونانية تقطر سمًّا على البلغار ، والبلغار اليوم الشريك المشاكس
فى البلقان ، والخلاف بينها وبين اليونان هو على هذه الرقعة من مقدونيا . كانت
عقب الحرب البلقانيّة غنيمة للبلغار أشرفوا منها على البحر الأبيض المتوسّط
وتوطّنوا قواله فأطلّوا على ذاك الزاخر الزمردى ، ثم جاءت الحرب
العظمى فعاقبهم الحلفاء بنزع هذا الملك من أيديهم وضمّوه الى دولة سلانيك
التى أقاموها أثناء الحرب على تمنّيات فنزيلوس . لم تقطّع المعاهدات تلك
الوشائج والأمانىّ بسهولة : فإنا مررنا بين سرس وقواله على بلدة تدعى
« دكساتو » رأينا بها نصباً أقامه اليونان ذكرى لموقعتهم مع البلغار وقد

تدلّوا عليهم من جبل « أوراس » وهنا أخذ جارى المتحمّس يصف لمن معه كيف كانت شدّة هذه المذبحة وما فعله هو فيها ، واليوم قبع البلغار وراء ذلك الجبل محصورين به دون البحر ، لكنّهم لم يسكر عليهم أبواب الأمل ، وهذا نفثٌ مما فى عقد البلقان

ولم يبق من آثار « فيلبس » مقدونيا إلا رسوم قصره على أبواب قواله ، تفرّجت عليها ، وقد كشف عن تعاريجها وكوّمت فوقها أنقاضه وسط غرفاته ، فلا يبين ولا تبين ولا تسرّ الناظرين ، ومررنا على « درامة » بلد « الدرملّى باشا » وعلى قرى أخرى سمّيَت لى ، نُسِب اليها كثير من العظماء الذين تخطر أسماؤهم بأذهان القراء . ثم مضينا مقبلين فى ذلك السهل وجبل أجيون يشارفه من اليمين ، فإذا تقدّمنا إلى القبلة تقدّم منعطفا علينا ، كأنه يحيد عن البحر ، الى أن وطئنا عنقه وهو يتلوّى به إلى جبل أوراس الذى يحدّ الحدود بين المملكتين ، ومن هذا العنق تتدلّى الى قواله ، وهى فى لحفه على ساحل البحر فى منظر جميل

قوالـــــه

إذا علوت عنق الجبل كما قلنا ، بدت لك قواله من قسمها الجديد يمثل فى بنائه حرف (S) اللاتينى مبنيًا على نخذى الخور فى مسيل الوادى. فالتفاف الدور على حافتيه يكوّر زاوية الحرف ، والمنحنى الثالث يصل بك إلى قواله القديمة وهى شرقى هذا القسم ، وأصلها فى ربوة جبلية نتأت فى البحر مستديرة ، ثم صعدت فى الجوّ هرميّة ، وتعلّقت بها الدور على محيطاتها متتالية فى الضيق إلى القمّة أشبه بعمامة التركىّ الأصيلة ، وامتدّ من خلف هذا الناتىء جديد البلد مشرّقا فى سفح الجبل ، فإذا قدمت الى

قواله من البحر وكان الوقت ليلا والبلد منير ، بدت لك من بعيد سلاسل أنوارها كعقد الريفيّة الذهبيّ عندنا ، طوق يحيط بالعنق ، تتدلّى منه أسلاك فى شكل إهليلجيّ ، كالتى يسمّونها عند الصاغة باللبّة . والبلد القديم مسور بسور لايزال قائما ، وأعلاها قلعة بقيت فى ملك الخاصة الملكية إلى اليوم . ومحمد على ابنها البكر ظلّ يسقيها من مائه وقد ساقه إليها من عيون بالجبل فى قناة بنى لها قناطر تشبه قناطر الخليج عندنا ، إلى أن جاء بعض بنيه فحفر لهم آباراً ارتوازيّة فى منبع العيون ، وأعدّ لها وابوراً يسحب الماء منها ليمجّه فى أنابيب الحديد واصلة إلى الدور والميادين على ضبط الصنابير ، وشبّت الحرب وهذه المعدّات عندهم فلما هدأت استغلّوها ، فالقوم فى قواله يسقون الماء من نبع أصابع العزّة المصرية

وفى قواله معامل الدخان ، وعملها كما قلنا لايتجاوز تنظيف شجيراته ، وتنويع ورقاتها ، وترزيم كل نوع ، وهى صنعة كانت تدرّ الخير على أولئك الأهالى فزاحمتهم فيها بلغاريا وتركيا ، فلا شغل اليوم لعمال الدخان بقواله إلا الهم والغم وتململ نفوسهم بسأم العيش ، نازعين إلى وهم البلشفية . وقيل لى وأنا هناك لما اعتصب عمال الدخان وهم ألوف وهدّدوا الأمن ، قيل لى إن حاكم البلد ويسمونه «نومرخى» كان يريد حصرهم فى معاملهم وتسليط الغاز الخانق عليهم

وبيوت قواله القديمة هى البيوت التركيّة النظيفة ، وأقدمها مبنى بالخشب ، أما المدينة الجديدة أو المبانى الجديدة فهى حجريّة مسقوفة بالقرميد ، وفى بلد ميادين ومتنزّهات ، ولكنّ روح المدنيّة الحديثة البالغة لم تصاها ، فهم يكادون يكونون من أبناء البنادر المتحضّرة النظيفة ليس غ

محمد على الكبير
وضح نسبته .. واصل نشأته

بحث تاريخى طريف

هو الخلاق الباقى

مرحوم ومغفور

يول أغاسى على أغانك

أوغلو إبراهيم أغا

قوه له لى مرحومون روحنه

بحرمة الفاتحة

سنة ١٢٠٥

ن

صورة المكتوب على شاهد القبر الرسمى للمرحوم والد « جنتمكان »
محمد على باشا الجدّ الأكبر للعائلة الملكية المصرية بمدينة قوالة

تقرير مرفوع

لحضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية المصرية

من محمد سليمان

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سافرت هذا العام إلى مدينة قواله وزُرت الضريح المقام على قبر

المرحوم والد جنتمكان محمد على باشا الجدّ الأكبر للعائلة الملكيّة السعيدة وهو مزار تحت إشراف الخاصّة الملكيّة وله خدم بمرتبات تصلهم من الخاصّة تحت إمرة مأمور أوقاف الخاصة الملكية المقيم هناك ، وفوق الضريح قبة كتب على بابها تاريخ إنشائها (سنة ١٢٩١ هـ) وحوله حديقة غنّاء على ميناء قواله ، وهذا القبر شيد خاصة دون باقى قبور المقبرة التى اندرست ولم يبق منها إلا أثران لقبرين لزق حائط القبّة عليهما أسماء أصحابهما ، والمسطر أعلاه هو صورة ما كُتِب على شاهد القبر ، نقلته حرفياً بترتيب السطور وفهمته صحيحاً وفق ما عرّفنيه الثقة فى اللغة التركية . فبدت لى من هذا أمور جديرة بالنظر والاعتبار ، لأن منها ما يغيّر قولة شائعة فى التاريخ ، ومنها ما يوضّح حقيقة مدغمة عن أصل نسبة الجد الأعلى للعائلة الملكية وبيان اسم جده وأصل نشأة هذا العظيم . ولما كان هذا البحث من الخطورة بمكان فقد رأيت أن أرفعه لمعاليكم لعلى أكون قد قمت بخدمة تاريخية صحيحة لهذا الوطن العزيز

فى كتاب (تاريخ مصر الابتدائى ج ٣) وهو الذى تدرسه وزارة لمعارف للسنة الرابعة الابتدائية (ص ٣٨ — ٣٩) ذكر تاريخ محمد على وأن أباه توفّى وسنه اربع سنين فكفله عمه طوسون ثم حاكم قواله الخ . وهذه القصة ينقضها التاريخ المنقوش على شاهد القبر ، كما أن توضيح هذه الأسماء عليه ينير لنا بقية المتروك من هذا النسب العظيم

بيان ذلك

إن تاريخ ميلاد محمد على مذكور فى كتب التاريخ أنه سنة ١٧٦٩ م

وقد قارن اللواء المصرى (محمد مختار باشا) فى كتابه « التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية » هذه السنة بسنة ١١٨٣ هـ وكتب تحت توقيعاتها الهجرية ما يأتى (فيها كانت ولادة نابليون الاول . والمارشال أنى . والحاج محمد على باشا صاحب مصر) وفى تاريخ الجبرتى ج ٣ أن العلماء بايعوا محمد على فى صفر سنة ١٢٢٠ هـ وفى ربيع الثانى من هذه السنة ورد المرسوم السلطانى مؤذناً بها من عشرين ربيع الأول ، إذن تكون سن محمد على حين تولى مصر حول ٣٧ سنة هـ ، فاذا كان أبوه «إبراهيم» قد توفى سنة ١٢٠٥ هـ أى قبل ولايته مصر بـ ١٥ سنة فتكون هذه الوفاة حصلت وسن محمد على (٢٢ سنة) ـ لا أربع سنين كما يقول الكتاب ـ وبناء عليه لا يكون هناك سبب يقتضى أن يكفله أحد ؛ بل بمراجعة تاريخ كلوت بك يعلم أن محمد على فى ذلك الوقت كان قد تزوج وولد له إبنه البكر إبراهيم باشا العظيم ـ ومن جهة الاسم فقد عرف أن كلمة (على) المضافة إلى اسم (محمد على) ملموح بها اسم جده (على) مع الجنوح إلى جواز أن يكون الاسم الكامل للجد هو (محمد على) وجرى ذكره باسم (على) على ما هو معروف فى مثل هـذا من تضمن الاسم المشهور اسماً آخر مضموما إليه أبرزه والد محمد على فى اسم إبنه كاملا حينما سماه باسم أبيه (أى جده محمد على) ، بل قد رؤى فى بعض المنظومات التى رفعت إلى محمد على باشا فى مناسبات الاكتفاء فى اسمه (بعلى باشا) وبذلك يحسن فى كتب التاريخ وهى تذكر لنا هذا العظيم أن ترفعه إلى جده هذا الذى كان من أرباب الوظائف الأمنية التى لها قيمتها وقد

وضّحها شاهد القبر المكتوب

من هـــذا يتبيّن :

١ — أن ذ كر الكفالة على محمد علي باشا إنما هى حكاية منقوضة

٢ — أن اسم جدّه هو (علي)

٣ — أن اسم محمد على ماموح فيه اسم جده

تحقيـــق

وينبغى للتأ كدّ من هـذا (أولا) التثبّت من شاهد القبر (ثانيا) جولان النظر فيما يتوارد عليه كتّاب أمثال هذه التواريخ

فأما عن شاهد القبر فمعلوم أنّ هذا القبر موضوع تحت عناية وادارة الخاصة الملكيّة ، وأن إقامة هذا القبر وإقامة قبّة عليه من دون باقى المقبرة إنما هو عمل من يهمّه هذا الأمر ، وبمراجعة تاريخ هذه العمارة يرى أنه سنة ١٢٩١ هـ . وهذه السنة واقعة فى حكم جنتمكان إسماعيل باشا حفيد محمد على ، وهو الخديو العظيم الذى شملت عنايته مصر وساكنيها وفروع الحياة فيها ، فلا ريب كان من مقتضى طبعه الكريم العنـاية بأثر جدّه الأعلى ـ ولد الخديو سنة ١٨٣٠ م فى آخر ديسمبر (١٦ رجب سنة ١٢٤٦) وتولّى الأريكة فى ١٨٦٣/١/١ (١٠ رجب سنة ١٢٧٩ هـ) وظلّ حاكما إلى ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ ـ أى ان هذا الضريح شيد قبل مغادرته الولاية بخمس سنين ، واذا قابلنا تاريخ ميلاد إسماعيـل باشا بتاريخ وفاة جدّه محمد على باشا تكون سنـه حينها ١٩ سنة وهى سنّ تسمح لمثله فى

نبوغه وعبقريته أن يكون متأكداً تماماً من حقيقة الاسم الكريم وسلسلة نسبه العظيم وتاريخ الوفيات على وجه التحقيق

فمن هذا البيان وفى وضع الضريح تحت النظر الخاص ما يعزز صحة المكتوب على شاهد القبر ، وهو ماينطق بحقيقة الأسماء وتاريخ انتقالها وصحة الأعمار فى سلسلتها خصوصاً أنه يصل بالدقة فى التواريخ إلى ذكر اسم الشهر الذى حصلت فيه الوفاة ؛ فإن المعروف فى الوثائق القديمة أنها ترمز بحرف (ن) الى رمضان [١]

وأما عن توارد ماذكره المؤرخون فى قصة الكفالة وموت أبيه صغيراً فيخيل إلى أنهم وقعوا على كتاب (لمحة عامة إلى مصر تأليف ا . ب كلوت بك) وفى ص ٩٨ منه ذكر مولد محمد على بقوله وأن والده توفى وهو صغير السن فكفله أحد الأغوات الخ . وتلبست عليهم

---

(١) نشر المقطم لأحد الكتاب فى ٨ / ٢ / ١٩٣٤ نقلا عن كتاب الحركة القومية ج ٢ ص ٣١١ (أن محمد على مات أبوه وكانت سنه لا تتجاوز الرابعة عشرة) فهذه عشر سنين زادت عما فى الكتاب المبحوث

ونشر أستاذ مطلع فى مقطم ١٨ / ٢ / ١٩٣٤ نقلا عن كتاب مصر الحديثة المطبوع بالفرنسوية فى باريس ١٨٤٨ م لمؤلفيه بعض علماء الحملة الفرنسية (أن محمد على عند وفاة أبيه كان فى شرخ الشباب) ومن يراجع ما كشف عنه فضيلة المؤلف من حقيقة السنة التى ولد فيها محمد على وأنها سنة ١١٨٤ هـ ويقابلها بالسنة المكتوبة على شاهد القبر تاريخا لوفاة أبيه وهى سنة ١٢٠٥ هـ يرى أن الفرق حوالى عشرين سنة وهى سن محمد على وهى السن التى عبر عنها علماء الحملة الفرنسية بسن (شرخ الشباب) وإذاً تكون هذه النقول تعزيزا قويا لصحة المكتوب على شاهد القبر — الناشر

الحقيقة بالنسبة لمركز كلوت بك من الباشا المرحوم وأنّه قدّم الكتاب له ، وأنه كان يعرف الحقيقة من خدمته إياه ، ولكنّ كلوت بك ذاته ذكر فى تقدمته أنه صنّف كتابه مستقلاّ بنفسه فى ذكر مافيه ، وأنه بتقدمته إنما يلتمس نعمة الرعاية عليه وتشريفه بالعطف والقبول ثم عاد فكرّر فى تمهيده (أن هذا الكتاب لم يوص بتصنيفه أحد ولم يهيمن على تدوينه أحد) ؛ إذاً لا يمكن رفع هذا الكتاب إلى مستوى الاستقاء الرسمى لمعلوماته من مصادره العليمة بالحقيقة ؛ ويكون شاهد القبر المرعيّ الرسميّ أقرب إلى ذكر الحقيقة على وجهها مما دون فيه ، اللّهم إلا أن تكون هناك مراجع أخرى لاعلم لى بها ، وفوق كلّ ذى علم عليم

لهـــذا

يكون لى الشرف اذا تكرّمتم معاليكم بقراءة هذا التقرير وأمرتم باجراء مايلزم نحو تقرير الحقيقة فى هذا الموضوع الهامّ

وتفضلوا بقبول احتراماتى

رجب سنة ١٣٥٢ هـ

تقرير ملحق

سبق أن رفعت الى معاليكم تقريراً فى رجب الماضى بخصوص ما شاهدته مكتوباً على شاهد القبر الرسمى بمدينة قواله للمرحوم والد « جنتمكان » محمد على الجد الأكبر للعائلة المالكة المصرية مما لا يتفق مع مافى بعض الكتب التاريخية التى تدرسها الوزارة فى مدارسها ورجوت

فى ختامه أن تتفضلوا بإجراء ما يلزم نحو تقرير الحقيقة فى هذا الموضوع الهام

واليوم ألحق بتقريرى ذاك هذا البيان المقرر لرسمية القبر، لعل فيه مايساعد على ظهور الحقيقة

أمكن الاهتداء الى ثلاثة أوامر كريمة صدرت من لدن الخديو العظيم المغفور له اسماعيل باشا فى هذا الصدد

(١) فى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ صدر تصريح بصرف ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف قرش لبناء قبة على مقابر آباء وأمهات ساكنى الجنان الجدّين المدفونين بقواله وعمل سور حولها وتعيين خادم ضريح بمرتب ٥٠ خمسين قرشاً (٢٢ سائرة ص ٣٥)

(٢) فى ربيع الأول سنة ١٢٩١ هـ اعتماد صرف مبلغ ١٧٠٠٠ سبعة عشر ألف قرش علاوة على المبلغ المصرح به المنصرف فى بناء القبة الكائنة على قبور آباء وأجداد ساكن الجنان جدّى (٣٣ سائرة ص ٤٣)

(٣) وهناك أمر كريم فى شعبان سنة ١٢٩٢ بترميم قبر والدة جد الجناب العالى المدفونة بقواله وعمل تابوت من الرخام ينقش عليه نفس التاريخ المحرر على الشاهد واستحضار الشاهدين من استامبول وعمل سور حديدى حول القبر وبناء قبة فوقه (٢ سائرة ص ٥٨)

وأرجو أن تتفضلوا بقبول تحياتى

تنبيه — نقلت هذه الاوامر من دفتر فى المحفوظات الرسمية بعنوان دفتر (وارد قواله نمرة ٣) — والمنقول هنا هو نص مافى الدفتر

تحقيق السنة
التي ولد فيها محمد على باشا الكبير





مدالية القناطر الخيرية التي سكت وكتبت بأمر محمد على باشا الكبير ، رسمتها وترجمتها مصلحة المساحة المصرية في صحيفة (اذن ١ ــ ٥٨٢ ــ ٣٠) أعارنيها سعادة العالم أحمد زكي باشا

بيك يوز سكسان درت سنه
هجريه سنده قواله ده دنيايه
كلش وخطهٔ مصر ده مدت
حكمى بووقته قدر قرق أوچ سنه
يه بالغ اولمش اولان محمد على نفعاً
للعموم اشبو ايكى قنطره يه بيك
ايكيوز التمش اوچ سنه سى ربيع
ثانيسنك يكرمى اوچنجى جمعه
كونى كندى يديله وضع أساس
ايتمشدر

في يوم الجمعة الثالث والعشرين
من ربيع الثاني سنة ثلاث وستين
ومائتين وألف من الهجرة وضع
بيده محمد على المولود في قوالهسنة
أربع وثمانين ومائة وألف أساس
القناطر الخيرية لتقدم البلاد ونفعها
بعد أن تولى حكم مصر ثلاثاً
وأربعين سنة

تقرير مرفوع — إلى حضرة صاحب المعالى وزير المعارف
أثناء اشتغالى بمباحث التقرير الأول المرفوع الى معاليكم عن وفاة

والد محمد على الكبير وسنّ ولده محمد على إذ ذاك : عثرت على وثيقة أخرى بخصوص السنة التى ولد فيها نفس المغفور له محمد على باشا رأيت أن أرفع هذا البيان عنها الى معاليكم لتتكرموا بأجراء ما يلزم نحو تقرير الحقيقة فيها ، لأنها تخالف مايدرس فى مدارسنا أيضاً . ومعاليكم صاحب الولاية على صحّة ما يعدّ للتعليم والتلقين .

فى كتاب تاريخ مصر الابتدائى الذى يدرس فى المدارس الابتدائية عن محمد على باشا الكبير أنه (ولد سنة ١٧٦٩ م وهى نفس السنة التى ولد فيها نابليون) الخ

وبمقارنة هذه السنة من كتاب التوفيقات الالهامية وجدأنها تبتدئ من ٢٣ شعبان سنة ١١٨٢ وتنتهى فى ٢ رمضان من تلك السنة أى أن ذلك الميلاد وقع فيما بين سنتى ١١٨٢ و ١١٨٣ هـ

غير أن الوثيقة التى وفقت اليها تخالف هذا التاريخ وتؤخّره سنة أو ماحولها

ففى دار الكتب الملكية بالقاهرة « المدالية » التى صنعت لتوضع فى أساس القناطر الخيرية ، وهى من البرونز على أحد وجهيها صورة القناطر وعلى الوجه الثانى سنة وضعها ١٢٦٢ هـ وهى السنة الثالثة والأربعون من حكم محمد على للقطر المصرى ، وفيها أنه ولد بقواله سنة ١١٨٤ هـ

وهذه المدالية ولاشك أقرب للحقيقة فى ذكر سنة الميلاد من غيرها خصوصاً إذا تكرمتم وراجعتم الأوامر الصادرة بإنشاء القناطر وبسك

هذه المدالية (١) ولعلكم تجدون فيها صيغة المكتوب عليها مما ينبغى معه أخذ تاريخ الميلاد منها ومجانبة غيره ، إلا إن كان أقوى منها رسمية أو أصح منها سنداً

وتفضلوا بقبول تحياتنا

---

(١) نشر حضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون فى مقطم ٢٢/٤/١٩٣٤ نصين فى هذا الخصوص أحدهما : صورة افادة صادرة من المعية السنية الى ديوان ملكى مصر (محافظة مصر) بتاريخ ١٠ ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ رقم ٢١ وهى تركية العبارة أخذت من واقع الوارد بدفتر قيد الافادات الصادرة الى الدواوين والاقاليم عن المدة من ١٩ رمضان سنة ١٢٦٢ الى ٢٤ رجب سنة ١٢٦٣ والمحفوظ تحت نمرة ٤١٢ بدار المحفوظات بالقلعة فى القسم التركى بالصفحة رقم ٢٦٧ منه ترجمتها

«ولد محمد على فى مدينة قواله سنة ١١٨٤ هجرية - وفى السنة الثالثة والاربعين من مدة حكمه للقطر المصرى نفعا للعموم حضر هو بنفسه ووضع بيديه أساس هاتين القنطرتين فى يوم . . ربيع الثانى سنة ١٢٦٣

اقتضت الارادة السنية كتابة ماتوضح بعاليه على المدالية التى ستوضع على القنطرة وأن تعمل مدالية أخرى أيضا ويتحرر عليها مثال ماتوضح باللغة العربية ويلزم الاستفسار من موجيل بك عما هو اليوم - المتروك محله على بياض

بناء عليه تحرر هذا اليكم لاجراء مقتضاه كما هو المعهود فى همتكم » اه

ثم قال سموه :وهذان النصان يؤيدان رأى صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان من أن محمد على ولد سنة ١١٨٤ ﻫ الخ — الناشر

بيت محمد علي

فى واسطة العقد من محيط الدور العليا على ذروة قراله الأولى ، يتمهد الجبل لدار «جنتمكان» والد محمد على الكبير ، حيث مهبط العز العلوىّ الذى أنبت غرس الحكم والاستقلال فى أرض النيل . لا تزال دار «يول أغاسى على أغانك أوغلو إبراهيم أغا» قائمة بمكانها ، وعلى نظامها وعادّة بنيانها ، هى دار خشبيّة فى عرشها وفرشها وجدارها ، وفق ما كان النظام فى دور تلك الايام ، وقد حوفظ (١) عليها فى مادّتها وفى هيئتها ، وكأنما بقيت بروح منشئها فيها . تدخلها فتحس النظام والنظافة وروح التنسيق والتوفيق ، كأنما هذا المغنى المنظّم المهندم كان أصلح نباتاً لتلك النفس التى ولدت فيه فشبّت على التنظيم والتنسيق بل على خلق النظام وحسن الرعاية فى الأحكام



المؤلف ومأمور اوقاف الخاصة الملكية بقواله وخاشيوزا امام منزل محمد على باشا من جهته الشمالية

(١) وجد فى دفتر ٣ وارد قواله نمرة ٢٢ سايرة ص ٤٧ فى ١٠ المحرم سنة ١٢٩٢ ما يأتى : (بخصوص منزل جدّ الجناب العالى الكائن بمدينة قواله وموافقة على تعيين خفير بمرتب مائة قرش لتنظيف المنزل ليكون دليلا للزوّار الذين يقصدون زيارته ، وإخطار بضرورة بقاء المنزل فى حالة منتظمة)

تطل الدار على البحر الأبيض من واجهتها القبليـة مباشرة . ومن واجهتها الغربية يتوسط بينها وبين البحر ميدان أعد لإقامة تمثال محمد على الذى يرمز يونانيو مصر بإقامته الآن على شكرهم لمصر ومولاها . أما حدها الشمالى فينحدر إلى شارع مستقيم إلى الميناء ، ويمر على تـكية « غازى الحاج محمد على باشا » وهو شارع فتح حديثاً ليمر منه موكب الملك فؤاد حين يشرف قواله لرفع الستار عن تمثال جده العظيم ، وفى هذا الشارع الباب الـكبير للدار ، ولها باب آخر فى واجهتها الغربية ، أما حدها الشرقى فحديقة منها منظمة تزهر بالنجم والريحان ، وفيها باب ينزل إلى البحر شرع حديثاً لدخول الخدم والعناية بالحديقة والدار



المؤلف ومأمور الاوقاف امام منزل محمد على باشا من جهته الجنوبية

إذا دخلت الدار من الباب الشمالى وجدت دهليزاً على يسارك يصل بك الى فناء الدار تفتح عليه حجرتان ، إحداهما للخدم ، والثانية « ميراخور » وفى واجهة الباب فتحة ملئت بصندوق لولبي أعد لتنويل

مايوضع فيه اذا دار لواجهة الجدار الأخرى ، وهي ردهة يفتح عليها الباب الغربى « باب الرجال » ، وفيها بيت الماء ، ومنه كان يدخل الرجال إلى سلم صاعد الى « سلاملك رجالى » هو فسحة وقاعة كبيرة للاستقبال وفيها معدّات الاستقبال . أما « الحرملك » الذى وصفناه ففى فنائه سلّم آخر يصعد الى القسم المعدّ لسكن السيدات . فالدار طبقان وفى العلو ثلاث غرف للحريم فوق الغرفتين السفليين . ومن فسحته يطل شنف على البحر بطول واجهة الدار ، ولا تزال فى قاعة النوم معدات التدفئة الأولى ، والقاعة التى ولد فيها محمد على الكبير باقية بشكلها . والخاصة الملكية قائمة بحفظ الدار والعناية بها ، وإعداد الخدم لها . وفى سلاملك الرجال دفتر كبير يوقع فيه الزوار من أعاظم الأقطار . ومن أحسن ما تفاءلت به أنى وأنا على وجه الباب الكبير رأيت القمر فى أول مطلعه من أشهر الهلال ، كما تحسن الاشارة الى ذكر أنموذج مصغّر لهذه الدار بغرفها وحديقتها وسلالمها ، يمثّلها على نمنمته أتم تمثيل . صنعه مهندس رومىّ كما صنع أنموذجين آخرين للمشهدين القائمين على قبور أبوى العاهل العظيم محمد على الكبير ، رأيت الآخرين هناك فرأيتهما لم يغادرا صغيرة ولا كبيرة من الأصل إلا مثّلاها ، أما النموذج الأول فيقال إنه الآن فى قصر عابدين

المصرى فى اليونان

أظن أنه لا يكاد يوجد بلد فى الأرض يُزهى فيه المصرى ويمشى فى شوارعه العِرَضْنى مثل مايزهى ويمشى فى بلاد اليونان

اليونانيون الذين علّمناهم فى القدم زرع الكرم والحنطة والزيتون واستخراج الزيت ، وبنينا لهم قلعة أثينا وما حولها من المنازل والميادين وسننّا لهم نظام الحكم وشرائع الدولة ، وعرّفناهم حكومة البلاد وكل أولئك على يد مواطننا « ككرُبس » المصرىّ العظيم وهم يذكرونه للآن وينطقون اسمه بالتاء الأولى بدل الكاف . ثم تلاه ذاناؤس المصرىّ فأسّس لهم مدينة أرغوس فى قسم المورة وأدخل فيها ما شاء من الصناعات . وجاءنا أبناؤهم أيام الزهو الأول فزدناهم علماً ولقّناهم حكمة وفهما . هذا « أفلاطون » أشهر فلاسفة اليونان تلميذ من تلاميذى الكهنة فى عين شمس حضر عليهم وأخذ عنهم علم مصر القديمة وكانت تضرب فى جميع شِعَب العلوم

وهذا « بطليموس » أبو الفلك والجغرافيا هو ولد من أبناء الاسكندريّة تعدّه جامعتها القديمة من بين أعلامها الذين استفادوا وأفادوا ، و « فيثاغورس » الفيلسوف المشرّع ، والحاسب المهندس ، الذى رفعه تلميذوه إلى مصاف الآلهة وقالوا إنه ابن الإله « أبولون » رزق به من عذراء لم تطمَث هو كذلك من ورّاد شرعة الوادى ومستظل براية مصر و « بلوتينوس » مؤسّس الفلسفة التى تعرف باسمه وهى التى تقول بحرّية

الارادة ، والايمان بالله ، والترفع عن المادة واخضاع الجسد ، صاحب الامبراطور « جورديان » وأستاذ الامبراطور « جاليانوس » وزوجته ومشهورى علماء رومية وأعضاء مجلس الشيوخ فيها ، والذى سما بنفسه فوق محيط هذه الحياة الوحشيّة التى غذاؤها اللحم والدم فكان لا يأكل لحماً ولا يكثر نوماً ويحيي معظم الليل فى العبادة ووجهه حنيف الى الله أبداً ، كذلك هو مصرىّ صعيدىّ ولد فى أسيوط ، ومن أسيوط درج وفى جامعة الاسكندرية تخرّج ، وغيرهم وغيرهم ممن لا يحصر التاريخ عدّهم ، عيال علينا ويكادون يعدون منّا وان كان الاسم اليونانى طواهم فى سياقه لفظاً ومعنى [1]

هذا فى القديم البعيد ، أما فى القديم الحديث فاليونانيون يعرفون المصريّين ويذكرونهم فى بطائح المورة وجبال كريد ، يعرفون عنهم أنهم الموفون ذماراً والقاطعون بتّاراً ، والذين قالوا وفعلوا ، وأقدموا وما نكلوا ، هم الذين نوّلوا زمام موره بأيدى قائدهم البطل « ابراهيم باشا » ومهّدوها ملكا ذلولا للسلطان حين كان السلطان عنهم عاجزاً وحسيراً — فاذا استَنْصروا عليهم لم يكْفِ لمصر دولة ولا دولتان بل جاءتهم ثلاث دول هنَّ دول الدنيا العظام انكلترا وفرنسا وروسيا ينسربن الى المصريين فى البحر ، ثم لم يستَطيعوا مع أسطول مصر أن يأخُذوه حرباً وقتالا ، وانما اختلَسوه ختلا واحتيالا ورابطوا بعد اغراقه على الساحل لا يقدرون

---

(١) يقابل هذا ما فى (نهاية الارب) من لطائف النويرى انه عد أشهر فلاسفة اليونان مصريين مولدا و وطنا

عليه صعوداً أو نزالا

أما التاريخ الحديث فاليونانىّ راكز فى مخّه أن ثرى هذا الوادى ذهب وأرضه كنز ، وأهله أعوان وأنصار ، وهذا اللفظ الثلاثىّ لمصر يساوى عندهم ويرادف اللفظ الحبيب المثلّث أيضاً لفظ «الذهب». وخيالهم هذا صحيح يغذّيه لديهم أمثال الخواجة (افيروف) وقد أعطاهم من مالنا بارجة هى زينة أسطولهم وحامية ساحلهم ثم بنى لهم « الاستوديوم » رمز عزّهم الأول ومجدهم الدارس، والخواجة « بناكو» أقام لهم متحفاً وبنى فى أثينا ملجأ وأنشأ بها مدرسة . ثلاث عظائم لاتقدر عليها إلا عظائم الدول. ولما مات الخواجة « كوتسيكا » ورثت حكومة اليونان من تركته شقصها حوالى مليون جنيه مصرى ونصف المليون فسندت وراثتها له ميزانية بلادها وكانت قد انهارت وتضعضعت ، حتى أتاها من مصر السند والمدد . وعشرات ألوف من اخواننا بنى اليونان هم فى ديار مصر أعزّ منهم فى ديارهم وأغنى وأقنى ، وجدوا منها الأخ المعين والجار الصالح ولدينا لهم مستراد ومسرح . حتى لقد علمت عن هؤلاء أنهم اذا انتسبوا تشدّدوا فى نسبتهم لنا وقالوا ــ وحقّ لهم أن يقولوا من (يونانيّ مصر) والوشائج المتعدّدة بين الطرَفين المتقابلين على جانبي البحر قائمة من فجر التاريخ قيام توصيل وتنويل من طرف الى طرف ، لم تتغير النسبة يوماً ، ولا ورد الصادر مرّة ، بل هم القابلون ونحن المجيبون ، وهم الصاحون ونحن اللاهون ، وهم الذين يتمنّى اليونانىّ فى داره أن يجىء مصر زمناً ليعود بسعده الدائم أزماناً . لذلك لم يكن بدعاً ونحن هناك أن نلقى ذلك

الإكرام والإعظام والبشر والسلام ، وتشممهم نوافح المسك من هاتيك الأردان وقولهم كلما لقونا (سلاماً سلاماً)

التمثال

إن كنّا قد أكثرنا فى مالنا عند القوم فليس هذا من باب المنّ ولكن من نوع العلم ، وهو علم نشكره لليونان فإنهم شكروه قبلنا وعرفوا به حقنا وتمسّكوا منه بحبالنا ، ورأيناهم هناك إخواناً وخلاّناً ورأينا اليونانيين المصريين يشيدون فى بلادهم بذكرنا ويفخرون عليهم بوصلنا ولا ينسون أن مصر وطنهم لهمابلادهم ، وما لقيت يونانياً مصرياً إلا قال: «بلدى طنطا أو المنصورة أو ميت غمر » ويناديني بمواطنى ويجرى معى فى مضمارى .

ومع تسابق اخواننا اليونانيين المصريين فى ملاطفتهم لنا فانى ذاكر ثلاثة اسماء بقيت فى الذاكرة منهم بالارتياح والسرور مسيو كاستانى المحامى باسكندرية ومسيو نيقولا كاسماتس التاجر ورئيس جمعية الكشافة اليونانية بالقاهرة . والذين هناك أكثرهم متّصل بمن هنا فعلاقتهم واصلة بنا ويدهم مفتوحة للسلام علينا ؛ ومنهم من أقام بمصر ثم عاد لليونان فهو إذا رآنى رآنى بشوق ولقينى بحنان ، وكثيراً ماكنت أمرّ فى الشوارع فيخرج إلىّ ناس ينادوننى « يا أستاذ يا أستاذ » فأقف للمنادى فاذا به يأخذنى بالسلام التام والسرور البادى يسألنى عن « مصر . والنيل . والملك » ويعرّفنى أنه كان عندنا وتركنا منذ زمن كذا ، وهو فى تلهّف على العودة وشوق الى السفر وحنين متواصل لذلك البرّ المتواصل بالإنعام ، ولذا فإنه ما كاد

يرانى حتى تحرّكت به شجونه وهرول إلىّ يسلّم علىّ ويسألنى عن الأحباب ،واليونان الذين كانوا مثلنا هناك للاصطياف أكرمونا وأفادونا وكانوا صلة حبّ وسلام بيننا وبين قومهم بل كانوا كلما رأونا نظروا اليهم بنا ، كأنّهم يفخرون بمجيئنا ويدلّونهم منّا على أشكال مساكنهم ولطف مواطنهم . وفى يوم وأنا ماش بلوتراكى سمعت من جمع مشرف على البحر فى الليل أصواتاً مصريّة عذبة « شرّفت بلادنا يابك . نوّرتنا..... الخ » وطالما قابلنى الأطفال والأحداث من أولاد نزلائنا بتحيّاتهم المحبّبة « سعيدة — أهلا وسهلا — سلام عليكم » الى آخر هذه المظاهر التى لم تنقطع ونحن فى اليونان . مابين بادئ بالتحيّة ومتقدّم للخدمة ومتدخل لحلّ مشكلة وقائم بالترجمة حتى لقد دخلت مطعماً فى أثينا فلمّا رآنى رجال « الأركستر » وفى كلّ مطعم كبير أركستر ، وقّعوا لى دوراً مصرياً ذاك الذى يسمّى « سميحة » وقعدت للطعام فعادوا للتوقيع بدور عربىّ آخر ، وعندهم أغانٍ كثيرة على تواقيع عربيّة كالمواليا وغناء الافراح ولحن العراق فكانوا إذا رأوا مصريين أداروا لهم الفونوغراف على هذه الاسطوانات . إذاً فاليونان شاكرون لمصر وحافظون جميلها وذاكرون تاريخها وعاملون على توثيق الودّ معها ، والذين أقاموا تمثال محمد على بميدان قواله أمام داره رمزوا به لهذا الشكر رمزاً يحمل جميع معانى الوضوح بل نزيد عن الوضوح بما سقناه فى المقال الماضى فهو إذا كان حقيقة «وهو حقيقة» فان الشكر معها يتضمّن الإقرار بالفضل لأهله فنحن إذاً نقول لهم فى جوابنا عليه : إنما يعرف الفضل من الناس ذووه

يقوم التمثال على قاعدة رخامية نصبت أمام الباب الغربى لدار محمد على ، وامتطى الباشا جواده وهو شاهر سيفه ينظر به إلى البحر كأنه يقول « هنا مجال فخرى » ولكن عدلت الفكرة أخيراً ، فوجه الفارس إلى باب الدار وقد أغمد سيفه فى قرابه رمزاً للسلام ، كأنه يقول قد أديت مهمتى ، ومهمتى هى السلام

وهذا التمثال اكتتب فيه يونانيو مصر ، ووضعه حفار يونانى فى باريس ، وسيتم قيامه قريباً حيث يتوجه حفيد الفارس العظيم إلى قواله يوم احتفالهم به فيزيح عن وجهه الستار للنظار ، وهى سفرة يرقبها من هناك ارتقاب الغيث من خلل السحاب وبزوغ البدر من دامس الإهاب



المؤلف ومأمور الاوقاف أمام منزل محمد على من واجهته الغربية المطلة على التمثال وترى فيه قاعدة التمثال والعمل جار فيها

وقد مهد للتمثال ميدان مستدير يشرف على البحر فى ثغر صالح لوضع السلم عليه من مرسى المركب . وشرع له طريق جديد هو أفخم شوارع قواله يمر إلى الأسكلة بين أملاك الخاصة ومبانى التكية ، ووضعت عنده معدات للرصد والميقات كما هيئت فيه مجالس الفرجة للمتنزهين

التكية والمشهدان

للآن وإلى المستقبل الذى يحدّه ربّ المستقبل يفخر أبناء قواله بالقوللى العظيم أزكى غراس تلك البقاع وأثمر نبات هاتيك البوادى اللاتى نبت من سهولها أرباب الأسماء العظام أصحاب عظائم التاريخ وكبريات الأحداث ذلك هو (محمد على بن إبراهيم أغا ابن يول أغاسى على أغا القوللى) : والاعتزاز بهذا البطل لايزال نعرة أهل مقدونيا وسكان قواله ، وأكبر مظاهر هذه النعرة حينما يرون مصريًا أو يجيئون إلى مجال الفخر فانهم يذكرون اسم « محمد على » فى أعلى قوائم الفخار ، وفى دور قواله ومقاهيها وفنادقها تعلّق صورة محمد على فى صدور التعاليق . كذلك لم ينس هذا الرجل البارّ مسقط رأسه، فهناك على فرضة قواله يشاهد بناء ضخم كأنه قلعة ذات أبراج على واجهته لوح من الرخام نقرفيه منظومة تركيّة باسم بانى البناء (غازى الحاج محمد على) وفيها اسم صاحب الوقت (السلطان محمود) وتاريخ البناء ١٢٣٦ ﻫ أى أنه بنى بعد ست عشرة سنة خلت من ولاية العاهل العظيم على بلاد النيل والاهرام



المؤلف ومأمور الاوقاف أمام التكية
(عمارثـى)

هذا البناء هو تكيّة محمد على

أو مايطلق عليه هناك اسم (عمارت سى) . ولبنائه قصة أرويها من أوثق المصادر وأصدق الرواة ، فقد شاء هذا الملك الكريم أن يزور بلده الأول بعد عزه الجديد فلما لقيه أبناء قواله تمنوا عليه وهو على استعداد لاجابة أمانيهم وكان ظنه انهم يطلبون بناء الميناء فإذا بهم يطلبون إقامة تكية لشيوخهم وملجأ لعجائزهم فكان ما أرادوا وشاده مرمراً سقفت قبابه بالرصاص ـ مدرسة ابتدائية ، ومكتب أولى ، ومسجد، ودرسخانه ، وميضئة وبيوت للمشايخ ، وقاعات للطلاب ، ودار فيها مخبز ومطبخ ومخازن للأقوات ، يضم هذه العمارة نظام واحد وشمل جامع حول حديقة باسقة الاشجار ، والتكية تغرف من سيف البحر صاعدة إلى مستوى الشارع ثم تفرع الجو بدورها الأعلى وقبابها المعلاة

أما المشهدان فهما لأبوى محمد على ، المشهد الأول وفيه قبر أبيه ويسمى المدفن الكبير ، وأصله قرافة الرجال هناك سويت حديقة وسورت بحائط يضم الآن الحديقة والغرف المبنية لخدمها وخدم المدفن ، وهى تشرف على البحر قبالة متنزه البلدية ، وحديقتها زاهية كأنها معدة لاجتلاء أعظم عين تراها ، وهكذا



المؤلف ومأمور الاوقاف فى الشارع الجديد بقواله أمام محلات العمارة الجديدة

جميع مبانى ومشاهد الخاصة بقواله على استعداد دائم لأن تطرق فى أى وقت فيراها الطارق نظيفة ظريفة ، وذلك من حسن الإدارة وعناية المأمور . وقد سبق أن وصفنا هذا المشهد فلا حاجة إلى التكرار

أمّا المشهد الثانى فهو على قبر أمّ محمد على، وكان فى القرافة الصغرى أو قرافة الحريم، وقد سوّيت أيضاً حديقة وسوّرت بسور يضمها والمشهد القائم على قبر « زينب خاتون » وهو مثل مشهد إبراهيم أغا ، قبر تعلوه قبّة له شاهد هذا نصّ المكتوب عليه سطراً سطراً :

هو الخلاق الباقى

مرحومه ومغفوره الحاج

حسين أغانك كريمه سى زينب خاتون

قواله لى روحنه وجميع مؤمنين

ومؤمناته رحمة إيليه بحرمة الفاتحة

سنة ١٢١٠

ومن هذا الشاهد يرى أن والدة محمد على توفيت بعد أبيه بخمس سنين وأن هذا الرجل العظيم سمّى ولدين من أبنائه بأسماء أبويه ، فالبطل ابراهيم باشا على اسم أبيه ، وله بنت تسمّى زينب على اسم أمه ، وزينب هذه هى صاحبة القصر الألفى ، وهو القصر الذى كان لمحمّد بك الألفى على شاطىء بركة الأزبكية واختص به محمد على نفسه بعد أن صفا له ملك الديار المصرية فأعطاه لابنته سميّة أمه « زينب خانم » ومكانه الآن تلك البقعة الذهبيّة تحت مبانى شبرد والشركة البلجيكية وما إلى هذه

الرقعة من ميدان الألفى الباقى باسمه للآن ، مما يتردَّد ذكره لتقلب هذه الرقعة على أسماع المحاكم والقرّاء — وبمثل هذه النزعة فى المرحوم محمد على سمى ّ باسم جدّه أيضاً ولده الشهير بمحمّد على الصغير ، وهـذا الاسم الظاهر فى ولده محمد على الصغير هذا يرجّح ما ظنناه فى اسم جدّه المكتوب على شاهد قبر الأب ، فان اسمه هناك «على» وقلنا بجواز طىّ اسم «محمد» تحته أى « محمد على » فظهور الاسمين من الأب والابن بمحمّد علىّ كاملا رجّح كثيراً أن اسم الجدّ كذلك ، أى « محمَّد على » والله أعلم بحقائق الأشياء عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال

طاشيـــــوز

طاشيوز جزيرة فى جنوب قواله على بعد ساعة ونصف ساعة فى البحر بسير المركب البخارى ، تبلغ مساحتها ١٩٢ كيلو متر مربع ، كانت من أملاك الحكومة المصرية لها مدير مصرى وقاض شرعي وعمّال مصريون إلى أن انتصرت الدولة العثمانية على اليونان منذ أربعين سنة فى حرب تساليا ، ففى ذلك الوقت عملت الدولة على أن تديرها هى بعد أن كانت إقطاعا لمحمد على من السلطان محمود جزاء ماقدمه الوالى للسلطان من الخدمات

وطاشيوز لقربها من قواله مسقط رأس محمد على كانت جزاء مطلوبا لهذا الابن البار ، فلما أخذها وقفها على التكيّة التى بناها فى موطنه لأهل وطنه ، ومع تمحك الدولة فيها أخيراً فان تملك الاسرة لها ظلّ محفوظاً فيها ، وبقيت إلى حروب البلقان الأخيرة لها مأمورية خاصة

يعيّن لها موظّف من قبل صاحب مصر بعنوان « مدير أوقاف قواله وطاشيوز » ، حتى اذا ضمت أملاك الدولة فى هـذه المنطقة إلى البلغار وورثها فيها اليونان بعـد الحرب الكبرى الأخيرة جاء اليونان الآن يقولون فى هـذه الإقطاعية إنها قاصرة على ماكان يملك السلطان التنازل عنه ، وهو الخراج دون الرقبة ، وينازعون الخاصة فى ملكيّة

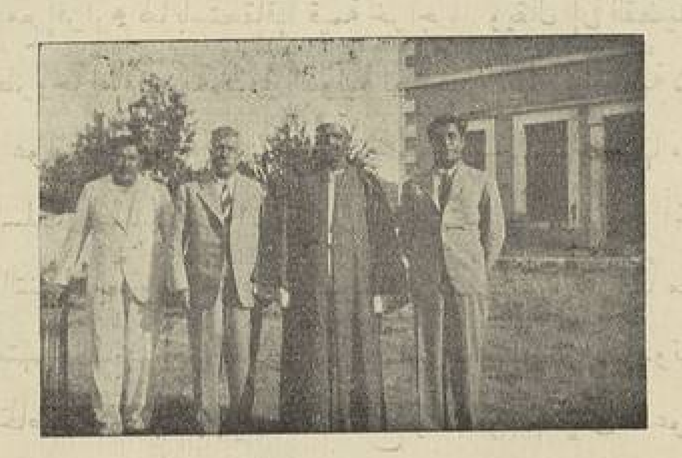


المؤلف والمأمور أمام سراى الادارة بجزيرة طاشيوز

الجزيرة مع إقرارهم لها باستحقاقها قيمة خراجها . ويقال إن القضيّة بهذا النزاع مطروحة أمام محكمة الهاى الدوليّة لمّا يفصل فيها . والخاصّة لا تدفع الآن عوائد عن أملاكها فى الجزيرة بحجّة أن الجزيرة وما فيها ملكها لتنازل السلطان عنها لأبيهم الأول ، واليونان يقولون إن مقدار الخراج فى زمن التنازل معروف فما زاد عنه فهو لهم ، كما أن الجزيرة أيضاً ملكهم وحكومتهم لذلك تجبى من أملاك السكّان فيها ما تراه لخزينتها ، وتركت أملاك الخاصة الآن بلا جباية قطعاً للنزاع وانتظاراً للحكم فى الدعوى

قضيت يوما من أروح أيّام الفسحة فى طاشيوز وصاحبى فيها الرجل الفاضل حسين افندى فهمى مأمور أوقاف الخاصة الملكيّة هناك ،

وله مكانة فى تلك المنطقة ترفع رأس المصرىّ عزة واغتباطا ، فما إن دخلنا الجزيرة بعد سفر ظريف فى زورق بخارى أعدّ للتنقّل بين الجزيرة والشاطىء حتى كانت مبانى الخاصة هى التى رأيناها مشارف البحر ، دار المديرية ، المحكمة ، المنازل الاخرى ، معصرة الزيت الكبرى ، وهى معصرة أقيمت من ربع قرن وفيها أحد عشر مكبسا وكانت النية أن يعصَر فيها زيت الجزيرة كله على أن تمدّ خطوط حديدية يجلب الزيتون فى «عرباتها» إلى المعصرة فلا يشق على الأهالى استخراج زيتهم ويضمن بذلك ربح العمل ، ولكنّ الحرب الكبرى لم تتمّ المشروع وقامت معاصر فى بعض القرى كفت ماحولها ، وبقيت المعصرة مع هذا هى الوحيدة فى الجزيرة سعة ونظافة ، ولها مهندس من ترك اليونان الجالين . وهواء طاشيوز



المؤلف أمام معصرة الزيتون بطاشيوز ومعه مأمور الاوقاف وولده ومهندسها

من أنق وأجود ماترتاح اليه النفوس ، والنقلة من قواله الى طاشيوز تبين الفرق الهائل بين الجوّين حتى أسفت أنى لم أقم أيامى كلها بطاشيوز فهى مصطاف لانظير له فيما رأيت من حيث جودة الهواء ، وتفتّح الشهيّة ،

وجمال المنظر ، والجفاف الطلق الذى أحسسناه هناك . ولولا صعوبة السفر إليها لما فضّلت عليها مكانا آخر

مصطاف الشرق

مصطاف الشرق اليوم لبنان ، ولبنانُ منه فى سرّته ومركز دائرته وهو الواشج الى بنى الشرق وطنا ولغة، والواصل بهم خلقا وعادة، والنازلوه ينزلون منه سهلا ويجدون به أهلا ، فلا ريب أن يجعله اللبنانيّون مصطاف إخوانهم ومِرْبَد جيرانهم ، فيه الراحة والهناء لهم والسكن والطمأنينة بهم . ولكنّ اليونان بدأوا يزاحمونه ، فاتخذوا من بلادهم مصايف للمشارقة يعملون اليوم لجلبهم إليها واستدراجهم لها واصطيافهم فيها . وظنّى أن مصر هى مدار المنافسة . فبقيّة الشرق الأدنى لا يعدل اليونان بلبنان لقرب الدار وسهولة المزار ، ومصر لها خطرها فى ترجيح الميزان ولا يستغنى عنها اليونان ولا لبنان . وهذا العام شاهدى على شدة المنافسة ونفع الترجيح بمصر بين الكفتين . وأقول إن لبنان لا بد أن يعتبر بهذه المنافسة ويعمل لبلده ما ينفع بلده بعد أن يزن أثر المنافسة ، ويعرف منها سرّ الاقبال والسبب فى ترجيح أحد النظيرين

أما مزاحمة اليونان للبنان فليست جديدة منهم ولا طارئة عليهم ، إنما هى شنشنة عرفوا بها من القدم . لقد كانت فينيقيا « لبنان وساحله » سيدة البحار فيما مضى ركبته بالفلك الذى صنعته ، ومخرت فيه بالنوء الذى اكتشفته ، وتقلّبت بين أمواجه بتجارتها صدراً وإيراداً ، فاغتنت واستفادت ، حتى اذا عرف لها اليونان هذه الميزة حفزتهم الغيرة فدفعهم

حب البقاء والتنازع عليه الى ركوب البحر ومغالبة الفينيقيين فيه ، واخترعت « كورنثوس » سفائنها ذوات الصفوف الثلاثة من المجاديف ، فسهّلوا بها لاخوانهم السفر إلى أطراف البحار وسخروها فى التجارة وانتحال الفنون والصناعات ، فبدأ طبع التنافس بين الفريقين من ذلك اليوم ، وتعمّق حبّ الغلب فى نفوسهم حتى ذكر التاريخ فى قصّة الحروب المادية الثانية أن « كورسيوز » الفارسى لما سيّر جيوشه على اليونان واستولى عليهم وحرق مدينة أثينا ، كان السبب فى تغيير ريح النصر وردّها عليه يونانيو آسيا والمصريّون ، وذلك أن أسطوله وعدده ينيف على الألفين كان من فرق ثلاث : المصريون ، وهمّهم كان فى هزيمته لعل بلادهم الواقعة تحت حكمه إذ ذاك تتخلص منه . ويونانيو آسيا ، وهمهم كان مع اخوانهم أهل البلاد المغزيّة . والفينيقيّون ، وهم هم الذين صدقوه وحاربوا معه بحكم المزاحمة التى توجب عليهم خضد شوكة اليونان وضربهم الضربة التى لايقومون بعدها حتى يخلو وجه البحر لهم ، فلما وقعت وقعة « سلاميس » تخلّى الفريقان الأوّلان فلم تغن الفينيقيين حماستهم ، وانقضّت سفن اليونانيين ألفاً أو تزيد على هذه الشرذمة المتحمّسة لكرسيوز وكان على عرشه يشرف على الوقعة من أكمة على الساحل ، فرأى أسطوله العظيم يولّى الأدبار ورجاله يتساقطون فى قاع البحار ، إذ ذاك اضطر الى الهزيمة وترك دار الانتصار إلى الإبحار على قارب صيّاد يعبر به البوغاز الذى اجتازه قبل ذلك بستة أشهر وهو فى أبّهة الملك وعزّ السلطان باسم قاهر الشعوب وحاكم البر والبحر . وسبحان مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ويعزّ من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير

نظرات عامـــــة

١ — الجو

الجوّ هناك متقلّب من برد إلى حرّ، من صحو إلى كدر، من تقشع الى مطر، ومن العجب أن تنقل الجوّ فى أطواره تنقل مفاجىء حتى لينسى من فيه سابق طوره، تمطر السماء مطراً لا إرهاص له ثم تمسك إمساكاً لامقدمة فيه وتسطَع الشمس سطوعاً كأن لم تعقب مطراً ولا كان قبلها سحاب، وهكذا تثور العاصفة فيهزم الرعد وتصفر الريح ويثور الغبار حتى يسد المنافس ويكحل العيون ويظنّ من بالبلد الظنون ثم إذا بك نجأة وقد هدأت العاصفة بل فقدت وراحت كأنها التى يسمونها « ريح العفريت » فترى الحال غير الحال والبال بلا بلبال والجوّ على أحسن منوال ثم لاتلبث إلا قليلا حتى تصير الى تنقال وينزل بك طور لايدوم، وهكذا دواليك. بدت لى وأنا فى بلاد اليونان من هذا الجوّ المتنقّل فكرة عن طبيعة اليونان، وتاريخُهم حافل فى حياتهم الشخصيّة بأمثال هذه النقَل الجوية والتغيّر فيها من وجه الى وجه، وفى سيرهم وقصصهم شواهد وأمثال تسدّد هذه الفكرة وتصححها، هى أن مانقرؤه عنهم فيما فعلوا ومايفعلون برجالهم وعظمائهم ومنشئ تاريخهم راجع الى أصل طبعهم هذا، وطبعهم مغروز فيهم من جوّهم، فهم بينما يرفعون الرجل عندهم الى صفّ الآلهة إذا بهم يدوسونه فى الوحل ويدسّونه فى التراب، ثم لايلبثون أن يعيدوه الى صفّه مرة أخرى لايأمن فيها أن ينزلوه منه

ويفعلوا معه ما فعلوا من قبل . وكذلك فى سياستهم واتجاه حياتهم هم مشرقون مغربون ، ومغربون مشرقون ، وصادرون واردون ومقبلو ن وصادفون ، من أقدم أزمنتهم إلى زماننا هذا حالهم فى تغيّرهم لم يتغيّر ، وعملهم مع رجالهم وفى سيرهم لم يتبدّل وكله تبدّل ، وعذرهم واضح ودليلهم قائم ، هم أبناء الطبيعة وطبيعتهم متنقلة وماكان بالطبع لايتحوّل

٢ - الحالة الاجتماعية

ويناسب هذا ماعلمته هناك فى نظامهم وفى سياسة حكمهم وأنا كما قلت لا أكتب فى سياسة البلدان التى أزورها ، ولكن ماأرويه هو عن ساكن فيها ومتعرّف حالها ، حدّثنى أن القوم فى اليونان شيَع ثلاث : شيعة اليونان الأصيله وهم سكّان اليونان قبل حروب البلقان . وأصحاب هذه الشيعة يحسبون أنفسهم سادة البلاد وأصحابها وأحقّ بحكمها . وشيعة اليونان الدخيلة وهم أهل البلاد التى ضمّت لهم من تركيا عقب تلك الحروب وهؤلاء يقيسون أنفسهم بإخوانهم فيرون أنهم أعلى منهم مكانة وأسمى منهم عرفانا ، وذلك أنهم كانوا وهم تحت حكم الترك قد عمدوا إلى العلوم فتزوّدوها وتسلحوا بها ليدفعوا عنهم الترك ويعملوا على التفلّت منهم ، فلما نالوا بغيتهم نفخت فى أنفسهم حين نظروا أهل اليونان الأصيلة أضعف منهم فى هذا الشوط وأعجز ، ونظروهم مع هذا يحبّون أن يتطاولوا عليهم ويعدونهم ممن ضمّ إليهم ضمّ متبوع إلى تابع ، فنشأ من هذين النظرين ميل عند هؤلاء يخالف ميـل أولئك ، واضطرد الميلان

فى الازدياد وظهر الاوّلون بمظهر الملكيّين والثانون بمظهر الجمهوريّين ، والتطاحنُ بينهم عامل على تفريج ما بينهم وتنمية الخلف فيهم ، والخلاف فى اليونان يعلق بالنفس ويورث عن المورّث ، فلذلك لاينتظر الناظر له زوالا أو اضمحلالا إلا بأعجوبة تشغلهم عموما فينصرفون عنه عامة . أما الشيعة الثالثة فهم شيعة اليونان النزيلة وهم الذين جلبوا من تركية آسيا وبودل بهم ترك اليونان فحلّ كلّ محلّ أخيه فى دار غير داره وجار ليس من جيرانه ، وأمر هذه الشيعة أعسر وحالهم أخل وهم يبغضون الشيعتين والشيعتان تبغضهم . وعلمت وأنا هنالك أن اليونان النزيلة لايعامل أفرادها غير أفرادها وأن إخوانهم ينظرون اليهم نظر الرجل إلى مزاحمه ، فقد جاءوا اليونان وهم أهل صناعات وعمل والبلاد فقيرة ورزقها لايفيض عن أبنائها فكيف بالمشارك فيه والعامل على اقتطاعه من أبنائه لنفسه ، ومن هنا نشأت مشكلة لاتفتأ تكبر وقد نفثت الأزمة الحاضرة فى عقدها ومكّنت من فتلها وعلم العاقبة عند ربها والليالى من الزمان حبالى

٣ – الجوالى

نعم ، أين من ينظر هؤلاء الجوالى وقد احتازوا من بلدان اليونان أحياء ، ومن نواحى مدنها ضواحى ، وتكوّف منهم كل فريق فى مقعده يفكّر مرتين فى هذا العمل الذى جاز على عصبة الأمم حتى أجازته ؟؟ ورأى أنه مادام هذا الجيل ، فإن حسرته لاتزول وألمه لاينقضى ، فقد كان هؤلاء الجوالى فى ديارهم ، ودار الانسان وإن جارت عليه عزيزة

عنده ، فأخرجوا منها إلى ديار لم يألفوها ، وكانوا يوم نزحوا قد أعطوا عوض ما كان لهم فى بلادهم فأخذوا ينفقون هذا العوض حتى نفد ، ثم ذهبوا يبحثون عن رزق فوجدوه ضيّقاً ووجدوا أهليه عليه أشداء وبه أشحاء ، فهم لهذا فى حسرة يقلبون أكفهم على ما أنفقوا ويصعدون الزفرات على مافقدوا . وما أدرى حال الذين نزحوا من اليونان إلى الترك كحال النازحين من الترك هم ؟ أم لقوا أهلا بأهل وإخوانا بإخوان ؟ لقد مرّت آلاف السنين على اليونانيين فى آسيا فبعيدٌ على عشرات السنين أن تمحو آلافها وأن تنشىء القوم خلقاً جديداً إلا أن يشاء ربّ الخلق فهو وحده يعلم ما كان وما يكون وكلّ شىء عنده بمقدار

٤ — الزبيون

الزبيون هو المعرض ، والمعرض الذى دخلناه بأثينا يعطي زائره فكرة قاطعة عن بلاد اليونان أنها لو سوّرت بجدار لايدخلها داخل ولا يخرج منها خارج لعاشت وحييت وصحّت . هذا المعرض فيه من كل شىء ، الزراعة والصناعة والتجارة ، فأدوات الحياة المعروضة فيه من صنعهم حتى اسطوانات الفنوغرافات ومعدّات الحرب وآلات الهلاك وصناعة البحر والجوّ ، كل شىء من هذا له غرفة معروض فيها عمل القوم يدلّون بمعرضهم على أنهم مستقلون فى أنفسهم قادرون على الاستقلال والدفاع عن الاستقلال والاكتفاء بالاستقلال . وفى المعرض مناظر تمثّل أطوارهم الاجتماعية ورقيّهم فى سلّم الحضارة حتى وصلوا إلى حالهم الظاهر فيهم ،

فترى دورهم القديمة أيام الترك وعيشة أهل الريف وتغيّر الحال إلى المدنية والاستقلال مصوّراً على جدران القاعة يراه الرائى من عيون ناظرة فى الجدار المقابل على قدر عين المبصر من عدسة البلّور

وهذا المعرض فى أثينا ثابت قائم فى بناء ضخم يظهر أنه لايغلق ولا ينقضى . أما سلانيك ففيها معرض آخر موسمه عندهم شهر سبتمبر وإليه تشد الرحال من أنحاء اليونان ، وقد خطر ببالى وأنا أتخطّر فناء هذا المعرض وأرى كل مافيه من صنع اليونان ولا صنع لغير اليونان ، خطر علىّ ما أراه فى معرض الجزيرة عندنا ، والذى يعرض فيه من صنعنا لايساوى صنع غيرنا ، فعجبت لهذا الفرق البعيد ، وعجبت لتباعد مابين عنه معرض اليونان ومعرض الجزيرة من المعانى الواضحة ، فالقوم يقولون بلسان معرضهم (نحن لاغير) أما لسان معرضنا فلا يستطيع أن يقول (نحن) خالصا . فليت شعرى ماذا يقصد أصحابنا إذاً من عرض ماللناس مع أن فكرة المعارض فكرة فوق التجارة ؟ إنما هى فكرة العزّة للوطن ، والاستحثاث عليها ، وإقامة الدليل بمنتجاتها على إمكان الزيادة فيها للبلوغ بها غاية الكمال ...

٥ – فى الملبس والمطعم

ورأيت الحشمة فى ملابس اليونان نساء ورجالا ، فالشوارع لابهرجة فيها ولا تبرّج ، والبساطة فى الملبس هى الشائعة ، وان يكن هذا من قلّة مافى اليد ولكن حسن اختياره وجمال تنسيقه يملأ العين بما تريد العين أن ترى.

ويكاد يخيّل إلىّ أن أهل اليونان لايطبخون فى دورهم ، فإن الجموع العظيمة اللاتى تفد على المطاعم العامّة للغداء وللعشاء لايتصوّر أن تكون بعدها بقيّة تخلّفت فى دورها ؛ ولعلّ هذا قصد أيضا ؛ فإنا كنّا نشاهد العائلة بجمعها على المائدة فى المطعم ، وهو فى الغالب على طراز حسن، وهناك مطاعم تسع فوق ألف تقدّم للطاعمين فى وقت واحد مايطلبون ، والخدمة على تمام الاستعداد فى نظافة لاغبار عليها . أما بالليل فالغالب عليهم الإقلال من العشاء إلا مايخفّ من الطعام فى المقاهى والمجتمعات، وكنّا فى الفنادق نتناول العشاء بعد التاسعة وهى تُكثر فيه عن الغداء ؛ وكنت أتضايق من تأخير وقت العشاء فقيل لى إن أهل اليونان لايتعشون فى الصيف إلا بعد هذه الساعة ؛ لأنهم يبدأون سمَرهم فى منتصف الليل لحرارة الجوّ ، وهو لايلطُف عندهم إلا قريباً منه ، ثم يظلّون بعده يستروحون إلى الهزيع الأخير منه ، ومع هذا هم يصحون مبكّرين لأن جفاف الجو يضاعف ساعات النوم بركة ولذة ؛ فقليل الوقت للنوم فى الجفاف أبرك من كثيره ولا جفاف

والتعامل فى بلاد اليونان كالتعامل فى بلادنا لاتكاد تحسّ فرقا فى إجراءاته ، والمصرى لايحسب نفسه غريبا هناك ، فالأخلاق متقاربة والتشابك لم ينقطع ، والقوم على كل حال ناس طيّبون

٦ – المسلمون فى اليونان

لم يبق فى بلاد اليونان مسلمون إلّا من بقى منهم فى « تراقيا » حيث يكثر عددهم فى « كوملجنه » و « اسكيجه » و « ياقوه » والأولى مركز ولاية والأخريان مركزان فى الدرجة الثالثة ، وللمسلمين فى كل جهة من هذه الجهات الثلاث هيئة طائفية تقوم بشؤونهم الدينيّة وتشرف على الأوقاف والتعليم الاسلامى ، وقد بقى هؤلاء فى بلاد اليونان بعد أن أجلى إخوانهم منها مقابل الأروام الذين بقوا فى مدينة القسطنطينية عند الترك بقية من صفقة التقايض التى أجرتها الدولتان فى هذه الأجسام البشرية بلا رغبة من المقايَض عليهم ولا اختيار !! وحين كنت فى قواله قيل لى إن إخوانك فى الشرق منك على ساعتين بالاتومبيل ، ولولا ضيق الوقت لزرتهم وسلّمت عليهم وتروّحت منهم بشاشة هذا الدين فى أوربا وقد أرز منها بفعل الزمان وعاديات الخطوب ، ولكنى تعرّفت عنهم ، فعلمت أنهم مستقلّون بشؤونهم الدينيّة ، وأن اليونان لايتدخّلون فيها بسوء يمسسهم إلا ما ظهر من بوادره بعد أن تفاهم الترك واليونان فى السياسة تفاهماً يخشى أن يساء معه الدين ، فحكومة الترك اليوم « وهى لادين رسمياً لها » لم تعد ترهب فى أهلها من هذه الناحية ، فسمعت [1] وأنا هناك أن اليونان بعد أن كانت تتمسك فيمن يلى أمر المسلمين بأن

(١) كذلك كتبت مجلة الفتح الاسلامية فى العدد ٣٦٨

يكون عدلا دينا صارت تغضى الطرف عن هذا الى الذين يدعون فى مسلمى اليونان بدعوة الترك فى شعبهم من لبس البرنيطة وتعليم أبناء المسلمين الحروف اللاتينيّة بدلا من الحروف العربية والسير على طريقة الكماليّين فى أنقرة مما يؤول حتما إلى نسخ ظلال الإسلام من تلك الآكام . والمسلمون هناك متبرّمون بهذه الوافدة النازلة . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم

٧– البلقان الآن

بفندق قوالة كان ينزل معنا « النومرخى » وهو رجل قيل لى إنه من الحزب الملكى ، ومعه عشير من رجال السياسة تكلّموا معى فى حديث البلقان فسمعت منهما ما تحقّق ويتحقق صدقه عن سياسة البلقان ونظر ممالك البلقان الآن لأوروبا وللبلقان نفسه ، قيل لى إن البلقان الآن لم يعد مطيّة أوروبا ، وأن أوروبا فيما مضى قد جعلته الأضحية لتنفيذ سياستها ، واليوم لا يرى أهل البلقان إلا أنفسهم ، فهم لهذا قد رجعوا الى التعارف والتآلف وأن يشد بعضهم بعضا ، قالوا ولا شية فى سماء البلقان إلا خلاف ما بين البلغار واليونان على منطقة الحدود ، فاذا سوى هذا الخلاف فقد تمّ السلام ، ولم أعجب من نظر البلقانيين لأوربا وهى التى عملت لهم الأعاجيب ضدّ الدولة التى أخرجتهم من حكمها ، لأنّ ابن آدم هكذا خلق ، والطبع لا يسرق ولا يسترق »[1]

(١) وردت التلغرافات العمومية بعد نشر هذه الرسالة بمدّة مصدّقة لكلام المؤلف ، وقد عقد حلف بلقانى لم يدخله البلغار — (الناشر)

٨ - مساجد قواله ومسلموها

سبحانك ياداُم ، لم يبق فى قواله كلّها من أهل الاسلام إلا ثلاثة أو أربعة من المسلمين ، مصرىّ هو مأمور الأوقاف الخاصّة ، وحاجبان بالمأمورية ألبانيان ، وامرأة مسلمة تنتسب للأسرة اليكنية بمصر معها ابنها يسكنان هناك فى طلب عقار تقول إنه اغتصب منها ابّان الحرب والحرب قد وضعت أوزارها من بضع عشرة سنة ومدّعاها لم تنله وقد نقل من أيدى الساسة الى ساح المحاكم ، زارتنى بالفندق تستصرخ بى على حقها وتقول فى حجتها : عندنا بمصر عشرات الألوف من اليونان حُفِظوا فى أنفسهم وأموالهم ، مأمونون على مالهم من عقار ومنقول ، وامرأة واحدة من مصر مسلمة هكذا محرجة مشرّدة لاتنال فى بلاد القوم حقّا ولا تصل الى مُحق ؟ ألا ترى حكومة الإغريق أن تقايض الحكومة المصريه ماتقوم به لألوفها فتبرم لامرأة من مصر أمرها كى تدلّل على أن الحقّ فى بلادها مثله فى بلاد مصر يصل اليه صاحبه عندها كما يصل أصحابه إليه فى بلاد المصريين . . . . . ؟؟

أما مساجد قواله فلم يبق منها إلاّ مسجد واحد مخبّأ فى دار التكية لاتقام به إلا صلاة العيد مرة أو مرتين فى العام للأربعة المسلمين ومَن قد يكون وصل إليهم من إخوانهم فى تراقيا اليونانية ، وبقيّة المساجد وكانت تعدّ بالمئات أتى عليها الذى أتى على مساجد سلانيك ، وسبحان الحىّ الدائم بلا تغيّر ولا فناء - دخلت مسجد قواله الجامع وهو اليوم

كنيستها الجامعة كما كانت قبل دخول الاسلام فرأيت حاله كحال أخيه « مسجد أيا صوفيا » بسلانيك أصله كنيسة حوّلها المسلمون مسجداً وطبعوه بحلية الاسلام وزادوا فيه طنفاً وبيت ماء ، شغل هذا البيت بدكاكين التجار ورجع مكان العبادة للربّ باسم الأب ، وكان الترك قد كتبوا على جدرانه آيات من القرآن وأسماء من أعيان الاسلام ، فعلى باب الكنيسة كتبوا قوله تعالى (والله يدعو الى دار السلام) برسمين متقابلين فوقهما (اللهم افتح باب رحمتك) وفى دائرة القبلة نقشوا سورة الفتح بتمامها على محيطها الأعلى وتحتها على متّسع الدائرة وضعوا أسماء (الله — محمد — أبو بكر الخ) فترك اليونان جميع ماكتب من الآية والسورة إلا الاسماء الخاصّة بالاسلام فمحوها وأبقوا على اسم الجلالة لم يمحوه ، وجميع هذا المكتوب بالخطّ العربى الجميل باق ظاهر يشهد للقدر بما يظهره من قضائه على عبيده وإلى الله ترجع الامور

٩ — معرض كورنثوس

وقبل أن ألقى القلم لابد من كلمة خاطفة عن متحف كورنثوس الذى أقامته الأمريكية المفتونة بآثار اليونان فى عصر كورنثوس . وهو فى الحقيقة معرض رومانى به تماثيل وأحجار عن عهدهم فى بلاد اليونان بعد أن دخلوها وبقيت بأيديهم إلى أن انتزعها الترك منهم . وأهم ما لفت نظرى تمثال (نيرون) الذى يصوّره التاريخ جبّاراً مجنوناً ، فهو فى تمثاله الرخامى بمنظر « عسكرىّ بحرىّ » فى شكل جميل عليه قلنسوة البحريّة

رداؤها كما تراه اليوم من أولئك الشباب المتموج شبابهم على ديباجة الوجه ، والناظر إليه لا يتصوّر فى صاحب هذه التقاسيم ما يرويه التاريخ عن شذوذه فى الاثم والعدوان . وصورة رخاميّة ليوليوس قيصر ، عريان عليه ملاءة لا تستره وعورته بادية ؛ وهى صورة تصدّق ما حكى عنه (أنه كان فى روما زوج كلّ امرأة وزوج كلّ رجل) . وتماثيل أخرى للامبراطورة أوجست ، وبربلان ؛ والمشرّع كراكله وديونيس ، وعلى باب الغرفة وقف تمثالان عاريان أحدهما لهوميروس صاحب الالياذة التى يقتبس منها أطفال الآداب ويزعمون فى كلّ جديد أنهم يستخرجون من رميمها كلّ جديد ، والثانى لاكبرهم (زفس) أو إله أوربّا (جوبتير)

١٠ — دور الجوالى

رأيت القسم الجديد فى قواله دوراً بيضاء سقفها قرمدىّ بشكل هندسىّ والجدّة تبين عليها فعلمت أنها دور الجوالى ، بنيت كلّ دار طبقتين بترتيب حسن ونظام صحّى ، وقيل إن الحكومة اليونانيّة اقترضت من أمريكا ما بنتها به وأسكنت فيها اللاجئين على أن تقاضى منهم الأثمان مقسّطة ، ولكن الأزمة الطارئة أعجزت المشترين فهجروها ، وهى اليوم خالية مثل خلاء أمثالها فى بقية البلدان التى مستها الضائقة ؛ فكان هذا القرض مما أعجز الدولة أن تفى أمريكا مالها من دين

السائحون منا ومنهم

نحن بنى مصر نسيح فى الأرض جمعاً أو وحداناً : فإذا نزلنا بساحة قوم سكنّا فنادقهم وغشينا مجامعهم وخالطنا عشائرهم فعرفناهم وتعرّفناهم ولقونا فاستفادوا منّا ما يرجوه صاحب الدار من الزائر الغريب . أما السائحون الذين يجيئون مصر فإنّهم يجيئون ويعودون وكأنهم ماجاءوا ولا دخلوا ، بل قد يعودون مزوّدين عن مصر شرّ زاد وأسوأ ذكرى. هنا تلقاهم شركة الفنادق من ميناء البحر فتشحن بهم قطاراً أو تحملهم على باخرة ؛ فإذا نزلوا بفنادقها نزلوا بمنازل لامصرية فيها ولا مصريّين . ثم تطوف بهم آثار القاهرة وتذهب بهم إلى مشاهد الصعيد وتحوطهم بعمّالها على نظامها ، حتى إذا قضى السائح منهم لباناته أعادته إلى الباخرة كما أخذته منها ، لم نلقهم نزلوا فنادق مصريّة : ولا تحسّسوا أنفسا مصرية ولا اختلطوا بمصريّين خلطة تعارف أو خلطة تعامل كما يفعل المصرىّ فى بلاد الغربة ، بل إن كان معهم أحد منا فهو الترجمان الببّغاء الذى يطبع زيّه فى عيونهم ويصبّ جهله فى عقولهم ويعودون من مصر به وحده لا شىء معهم ممّا عندنا خاصّاً بنا أو شرحا لحالنا : فتراهم لذلك إن تكلموا عنّا لم يعدوا سطوع الشمس وشكل الهرم وصمت أبى الهول ، هذا إذا ذكرونا بخير ، وقليل منهم الذاكرون ، ومن شاء منهم أن يكتب أو يقول عمّا رسمه خياله عنّا ، كتب وقال ما ننفر منه ونغضب له لأن الحقّ على خلاف ما روى والباطل طىّ ما حدّث ، وأنا والحق يقال أعذر القائل

المخرّف إذا كتب أو قال . عندنا الآن جيل يتكلّم اللغات الاوربية ، وشباب عاطل بلا عمل يطلبه إلاّ المنصب والوظيفة، ولنا لجنة تزعم أنها تدعو للسياحة وترغب السائحين ، ونحن والحمد لله أغنياء فى المال والرجال ولكنّا فقراء الى الإفصاح عما بنا من حال وما نرقبه من مآل ، فهلاّ لحظ اللاحظون منّا هذا الجانب العظيم الخطر من جوانب حياتنا الاجتماعية فتكون لنا فنادق مصريّة يعمل فيها مصريّون ، ويكون منّا رجال بهم من الجرأة لوطنهم ماشاهدناه فى الغربة من أهل تلك الأوطان ، فإنّ أحدهم يتقدّم للغريب يسأله هناك عمّا يطلب ويقوم له بما يحب ويشرح له ما رغب، نزعة فيهم أشهد ضدّها هنا ، فنحن ننظر السائح كأنّه عجب نرى نفحصه بالنظر من القمّة إلى القدم ، ثم لا نكلّمه ولا نكشفه أو نتكشّف له ، فلماذا تعلّمنا الألسن وحذقنا اللغات ؟ وما هذه الاوربيّة التى نزعمها فإذا حان حينها خفنا أن نخوض بحرها ونعمل عمل أهلها ؟ ولماذا لا يتولّى أولو الأمر فينا قيادة هذه الناحية ما دام الشعب مقصّراً ولهم من أدواتها وأسباب رواجها ما لا يملكه الفرد اليوم . حتى إذا نشب فينا هذا العرق وغاظ تركوا الأمر للدارجين السالكين ، انى لأعتب عليهم فى هذا التقصير ويزيد عجبى أن الميزانيّة قد أنشأت فندقاً فى مرسى مطروح تمشيّاً مع هذه الخطة التى أدعو لها ، ولكنها أعطته لأجنبىّ من أصحاب فندق «سسل» بالاسكندرية ، أعطته البناء والأثاث والماء والنور على أن تأخذ منه خُمْس الأجر للنزول : وفى العام الأسبق كان قدره خمسين قرشاً لو دقّق الحساب فى هذه الحسبة لما كانت من الرابحين . رغبة وطنية

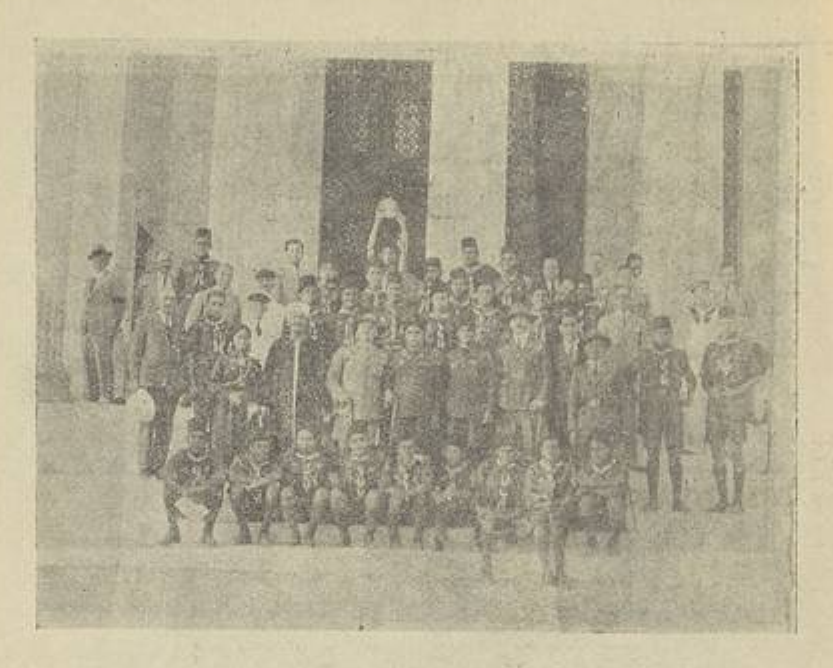
أودعها « رسائلى » عسى جماعة من السامعين أن يقوموا لها مستجيبين فيكونوا لوطنهم من الناصحين العاملين . ولأضرب مثلا بحكومة سورية فقد أنشأت فى « الزبدانى » من أرباض دمشق فندقا يكاد يكون صرحا على أحدث نظام أبدعته هندسة الفنادق ، وها هى تلك تجعله مستغلاً وطنياً أى مستغلّ مادّة ولسان دعوة . وكذلك صنعت حكومة اليونان فى هذا العام فإنها أنشأت ببلادها لجنة تكاد تكون وزارة للسياحة وتنظيمها والدعاء إلى بلادها. ورأينا ونحن هناك أن الحكومة لما علمت بمقدم الوزير الكبير وكيل مجلس شيوخنا المصرى « أحمد ذى الفقار باشا » قامت واستقبلته ثم أطابت اقامته وعادت تقلده أكبر نياشينها فشرحت بذلك صدر اخوانه المصريين . وهذا « موسولينى » قام بنفسه داعياً لوطنه دعوة لبّاها أكثر من مليونين ونصف مليون من أمم الأرض سيزيدون فى العام المقبل لأن الداعى وضع اسس النجاح لدعوته فى بلاده إذ سهلها للواغلين والمدعوّين ، فتح أبوابها وقال هيْت لكم ، وهم ينزلونها فيرون فيها إيطاليا رخيصة الأجر فى النقل ، مأمونة الجانب فى المتع ، مؤتية أكلها لكل زائر ، دانية قطوفها لكل نائل ، فالملايين التى زارتها العام لا بدّ أن تسمّع إذا عادت فى بلادها ليعود لها العام المقبل أضعافهم وهذه تجارة لا تبور . أخلق بحكومتنا صاحبة الوطن القديم ، صاحبة مصر أمّ الشمس والنيل والكرنك والاهرام والمسلّات والهياكل ، وصاحبة قبر « توت عنخ آمون » وما أدراك ما قبر توت عنخ آمون ثم ما أدراك ما طيبة ووادى الملوك وما قصر أنس الوجود ومعبد السرابيوم ، إن مصر

بنفسها هى دعوة قائمة تدعو الشعوب لها، فليس على أصحابها إلا أن يساعدوها فى تبليغ صوتها وفى تمهيد السبل لزوارها وتفتيح أبوابها وتسهيلها والعمل على الدخول بهم فى مداخلها والجوس بهم خلالها حتى يعودوا منها بنبئها اليقين، وتعود منهم بزاد المسافرين، وبدون هذا فما يبذل للدعوة إنما هو بذل زخرف أو بذل قشر لا يغنى عن الجوهر ولا يفيد فى الصميم

وقبل أن ألقى القلم لا بد من ذكر ملاحظة عجب يراها كلّ مصرى خرج من بلاده، فإنّ ابن الوطن مايكاد يضع رجله خارج الأميال الثلاثة من الحدود حتى تلبسه عزّته ويظهر بطابع المصرىّ الذى ننشده فى وطنه، ووفودنا اللائى دخلت أوربا لشهود مؤتمراتها ؛ وبعوثنا اللاتى تذهب لمشاركة ماتنظّمه الممالك من المحافل ؛ وطلبتنا الذين يطلبون العلم فى الخارج، وسائحونا الذين يجوبون البلاد ؛ هؤلاء وهؤلاء هم فى غير بلادهم أظهر وأميز مايكونون هناك . وأيّان تجمّع المصريّون فى مكان بدوا بجمعهم فى أسمى وأحلى مايبدو به أبناء الأمم العريقة فى الأصالة والقدم، وندر أن لم يعد مصرىّ إلى بلاده إلاّ وهو رافع الرأس موفور الكرامة حتى إذا دخلنا حدودنا وقبعنا فى أعقار دورنا كنّا هنا وفى وطننا وبين جنسنا أقل وأنزل مانكون خارج الحدود وفى جماعات الأمم ؛ فما السرّ فى هذا ياترى أظن السرّ واضحا، وهو أننا حينما نرى المساواة نظهر ؛ فإذا لمع سيف الامتياز وحواشى الامتياز وحواشى الحواشى نقبع ونضمر حتى يكاد يصدق فينا عنوان الشيخ جاويش رحمة الله عليه ؛ أى عنوانه المعروف (غرباء فى بلادنا) ؛ والله المسؤول أن يعود بالغريب إلى وطنه ؛ ولكلّ أمّة أجل

كشافة مصر في اليونان

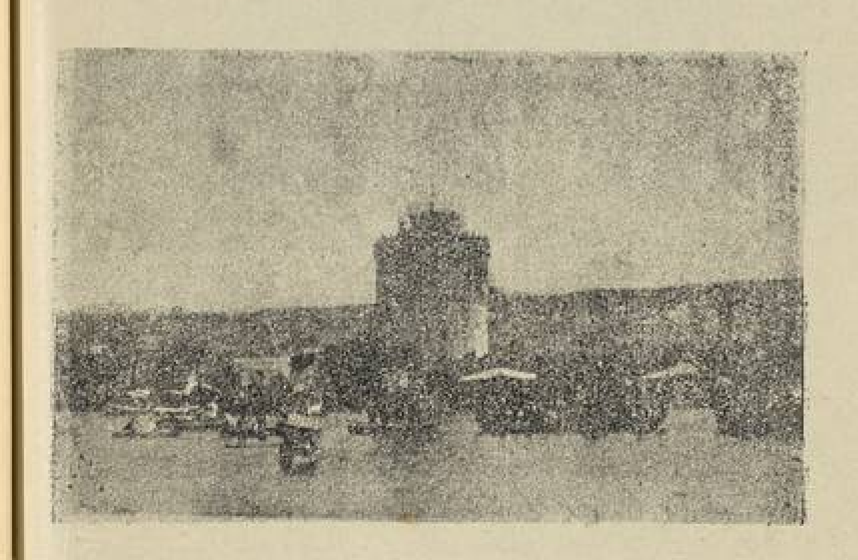
يحلو لى أن أنفج هذه الرسائل بمسك الختام عن كشّافة مصر .
وقد جاءوا اليونان ونحن هناك فى عودتهم من الرحلة التى قاموا بها فى أوربا
للمساهمة مع كشّافة العالم إذ تجمّعوا بمعسكرهم العام فى النمسا ، وقد
جاء البشير أن سنرى أغصان الحياة المصريّة تظلّل تلك البقاع فى زورة خاطفة
وضع برنامجها مكتب السياحة فى أثينا ، وكان فى الكشافة ولد أخى
الأكبر فما أن علمت ميعادهم حتى كنت معهم على قدَر راكباً ظهر
الطيارة من سلانيك إلى أثينا ، وهناك خفق القلب خفقة الحبّ والحنين
إلى الوطن ، وكأنّما سكّرت أبصارنا حين رأينا التيجان الحمر على الرءوس
الجعْد فوق الوجوه الأدْم تطلّ على القوام السمهرىّ وتخطر بخفّة
المصرىّ وجاذبيّة ابن النيل ، شنشنة عرفتها من أخزم ، وتجمعنا فى دار
المفوضيّة على دعوة السكرتير الأوّل ، فلا وأبيك ماهى كانت إلا قطعة
من مصر نقلت لأثينا ، ضيوف ومضيفون نحن جمع مصرىّ ، إن تفرّقت
الأجساد فهناك روح عام ملأ العاطفة وأفاض الشعور ، ورنّت فى الأسماع
أجراس العربيّة بحلاوتها ومخارج الضاد بطلاوتها ، وجرت لغة يعرب
ببلاغتها وذرابتها ، وللمصريّن طابع خاصّ أينما حلّوا ظهروا به وظهر
بهم ، فأذكر أنّا فى مجمع هنا بالقاهرة يجمع الشيب والشبان والأحداث
والكهول من طبقات مختلفات لا يربطها إلا العلم وذوق العلم وجمال الفن
وتجمّل الأدب ، وقائد الكشّافه كان الصديق خالد حسنين بك تحت



كشافة مصر امام الزبيون بأثينا

كنفه «مرشدة العرب» فتاته المحروسة بزىّ الكشّافة تمثّل من مصر روح بنتها الفاضلة أكمل مثال ، أما ناظمهم فالأستاذ عبد الله سلامه وقد شاع اسمه فى كشّافة العالم عنواناً على الترتيب والنظام ، وفى الفوج فرقة عزفت ألحان مصر الموسيقية بآلاتها الوترية . ووقّع منهم على بيانو المفوضية كشّاف بارع قطعاً أعربت فى بلاد العجمة عما ينتظر للشباب من الإعراب ، وقضينا معهم وقتاً اختلسناه هناك زاداً للغربة ، فطوّفنا بهم مشاهد البلد وذهبنا فى وداعهم الى « بيريه » ، وَفى الركب رجال مصر القائمون بالمفوضيّة وَالقنصليّة وَهم جدّ فرحين وَنحن بهم جدّ فخورين ،

والعلم الاخضر يرفّ على سارية السيّارة الأولى وَقد قدّمتها المفوضية ، وَقامت حكومة اليونان وَكشّافة اليونان لضيوفها بالإكرام والاحترام ، وَلقيهم الأهالي بالترحاب وَالإعظام ، فكان يوماً سموه هناك بحق يوم مصر ، وَإنه ليوم نخر يذكرنا بوافر الخير وَبارع الأثر . وَنعمّا هو الإعلان عن الوطن



ناظورة سلانيك وميناؤه

مقام العبرة – وكلمة الختام

كتبت هذه الرسائل عبرة لقومي وسلوة لنفسي . أنا رجل واضح رزقت نعمة الحسد أو رزئت به ، طائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية يجعلون حبّتي قبة ؛ ويتوهمون درهمي بدرة ، شغلوا بالظاهر المشعّ عليّ فى أعينهم ، وتركوا حقيقة الواقع أو باعدوها فى أوهمهم ولو نظروا لعلموا ما بى من أرزاء وما يهتاجني من أنواء ، إن هم أنصفوا بدّلوا حسدهم رثاء ، ورثاءهم ولاء ، على أنّي والحمد لله يعلم الله عنّى ما قمت به لجانبه وجاهدت فى سبيله ، وما اجتهدت وجهدت لبلدى وقومى حنيفا لوجهه محتسباً فى أجره ، فمن حقّ إذاً على من يحبّ الحق أن ينهضنى ولا يقعينى وأن يتحامانى ولا يقع فيّ ، إلاّ يكن لى فلنفسه ، فإنّ السعيد من شغل بنفسه عن الناس . من هذا ولهذا أحمد إلى قلمى حبيبي فهو الذى يواتينى ، أبثّه لواعجى وأعلم به ما فى نفسى ، من مقابلة نافعة إلى ملاحظة ظاهرة إلى انتهاز فرصة فيها أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو لفت إلى موعظة أو تذكرة بتبصرة ، نشراً للخير وأخذاً بالتى هى أقوم ، وبين شقّ قلمى أجد راحة نفسى ، أحدّثه حديثى ومنه يسيل على القرطاس نفعاً دائماً وهديا قائماً والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

هذه الرسائل وأمثالها مما أركن فيه إلى القلم أجدها سلوانة لنفس شبعت من الدنيا وأهلها وقرفت من مضايقتهم ومضايقتها ، فهى تساير القلم وتؤاخيه ، وتجد من لدنه حناناً عليها وعطفاً يحسّها دائماً أنها فى

عالمها : عالم الخير ومناجاة الروح الفاضل بعيداً عن الشغل بالشرّ والتناجى بالإثم ، وَمن ذلك أربح ربحاً ذا ثلاث شعب : سلّيت نفسى ، وَجنّبتها أذية غيرى ، وَصرفتها فى نفع قومى ، وَفى هذا بلاغ لقوم يعقلون

أما مكان العبرة من رسائلى هذه وَما كتبته فى الشام وَفلسطين . فهو ما يراه القرّاء فيها وَقد وَصفت حياة هؤلاء وهؤلاء بقدر ما علمنا ، وقومى ينزلون إخوانهم أولئك وَأولئك من نفوسهم منزلة معروفة عندنا ، فلو أنهم صدقوا أنفسهم فى إحساسها ، وَاعتزازهم بها فسيجدون أنهم مقصّرون فى حياتهم ، بعيدون عن أمكنة لائقة بهم ، وَمنازل فى العيش كانوا أحق بها وأهلها ، وأولى لهم ثم أولى أن يعملوا مع الفائزين

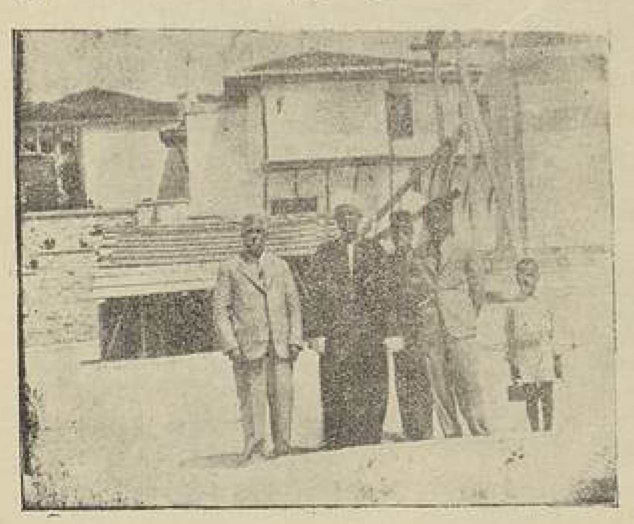
فإلى القراء رسائل كتبها أخ لهم ، يشغل بها الفارغ وَيفرغ بها المشغول ، فائدة لطلّاب العائدة ، وَغنية لمقتنى الفائدة ، وَصفحة مجلوّة عن علم خبىء وبحث مهجور ، أرجو أن يكتب الله ثوابها لكاتبها محفوظاً عنده فى كتابه يوم يجىء الناس لربّ العالمين وكل انسان ألزمه طائره فى عنقه وَأخرج له كتاباً يلقاه منشورا

أما كلمة الشكر فهى لجريدة « المقطم » وسعت صدرها لرسائلى ، وشجّعتنى على تحريرها وتجويدها ، وأن أمضى بها إلى خواتيمها لا أخاف مللا ولا سأما . والعاقبة للمتقين . وصلّى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم

الجيزة : ٩ مارس سنة ١٩٣٣ — محمد سليمان

بيان

هذه الرسائل اليونانية كنت أكتبها كما كان يحضرني وقت تحريرها وأكبر مذكّر لي هو المشاهدة واللقاء وطول الصحبة ، فلما أعدت قراءتها أثناء الطبع بدا لي ما كنت غافلاً عنه في كثير من المناسبات فألحقت ما أمكن نظمه في سلكها من غير أن يحوجني إلى إنشاء جديد أما ماعداه فقد تركته الى أن يقدر الله له وقتاً . إلا أني أحب أن أسجل هنا لوزيرنا المفوض في أثينا (علي سري عمر بك) ماله من حق على بلده فقد قام بتمثيله هناك خير قيام وكنا نلمس « وهو غائب مدة سياحتنا » ماله من مكانة مذكورة واسم دوّار وارد على ألسنة من نلقاهم ونغشى مجامعهم من أبناء الطبقات الراقية وذوي المراتب السامية مما يعد فخراً لمصر ويعتز به أبناء النيل كما رأوا وسمعوا ، كذلك أنسيت ذكر صديقنا المدير الهمام « أحمد عبد القادر بك » اذ يكاد لقاؤه هناك يكون للوداع وتابع السفر - وغيره ممن لم يرد ذكره عذري فيه ماذكرت ، وأني رجل قليل حفظ الأسماء على أن طبعي حفظ المودة والوفاء ، فاليهم جميعاً تحية وسلام ، وسبحان من تفرّد بالكمال



المؤلف في الميدان الجديد الذي اعد لتمثال محمد علي ومعه المأمور - وترى القاعدة قائمة يطل عليها منزل محمد علي

رسائل سائر

كلمة المقطم من افتتاحيته يوم ١٠ / ٣ / ١٩٣٣

لما كان المرحوم أمير الشعراء يطلب العلم فى باريس برعاية المغفور له الخديوى توفيق كتب اليه رئيس الديوان فى ذلك الحين مشجعاً ومنشطاً وطلب اليه أن يجدّ ويجتهد فى التحصيل « لتعود إلينا بقبس من مدينة النور » ويذهب كثيرون من المصريين فى كلّ صيف إلى مصايف أوربا ومصايف الشرق ويتمتّعون بطيب الهواء وحسن المناظر ، ويستريحون من التعب أو من البطالة ، ولكن قلّ بينهم من يعود إلينا بقبس من نور يزيد فى علمنا أو يوسّع دائرة نظرنا إلى الكون الذى نحن جزء منه ، ولكنّ الكاتب البليغ والباحث الاجتماعى القدير الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة العليا الشرعية أبى أن يسير فى هذا الطريق واختار أن يشرك قومه فى ما يتاح له فى أثناء الاصطياف من حقائق ومعلومات ووصف ، فلما زار سورية ولبنان وطاف فى مدنهما وربوعهما أنشأ فى المقطم طائفة من الرسائل أجمع الذين قرأوها على أنها ضمّت إلى حسن السبك وبلاغة التعبير صحّة النظر ودقّة الملاحظة والانصاف فى الحكم فكانت والحق أولى أن يقال من خير ما كتب عن تلك الأقطار فى هذا العصر كما شهد بذلك الذين تمتّعوا بمطالعتها وهم يعرفون تلك الربوع معرفة حسنة . وفى الصيف الماضى ذهب مصطافا وسائحاً فى بلاد اليونان وما كان يسمّى بلاد الروملّلى من قبل فأتحف قرّاء العربية بهذه الفصول البديعة التى طالعوها فى هذه

الجريدة والتى نشرنا خاتمتها البليغة أمس ناطقة بفضل كاتبها

ولم يقتصر الشيخ محمد سليمان على إيراد وصف ما تقع عليه عيناه وصفاً مجملاً بل عمد فى مناسبات شتّى إلى البحث والتحرى فاستخرج نظريات ونتائج تدلّ على ما توخّاه من قرن التسلية بالفائدة والانصراف إلى التحقيق العلمىّ فإن بحثه الخاص بمولد محمد على الكبير بحثاً خالف فيه ما قرّره المؤلفون والمؤرّخون من قبل أحدث ضجّة بين المؤرخين فانهالت رسائلهم على المقطم حتى ضقنا ذرعاً بها . وكتب سمو الأمير عمر مؤيّدا الشيخ محمداً . ورأى معالى وزير المعارف أن هذا البحث الذى فتح بابه من جديد بهذا التحرى الدقيق جدير بالدرس فألف لجنة خاصة له . ويسرنا أن حكومة اليونان والشعب اليونانى عرفا لهذا الباحث المصرى الكبير فضله وأعربا له عن حسن قدرها لإنصافه وهو ما كان ينتظر من حكومتى سورية ولبنان من قبل

وعسى أن يتمكن فضيلة الشيخ محمد سليمان من نظم هاتين الطائفتين من رسائله البليغة فى مجلّدين ، يتداولهما الناس ويسرّون بهما فى المستقبل سرور الذين طالعوها فى الحاضر . ونكرّر له الشكر على ما أسدى من خدمة إلى الأدب والتاريخ والاجتماع

عيد الجلوس الملكى

١٩٣٣ م

فى منبت العز

ملك مجده فى مجد شعبه

« كما بدأنا أول هذا الكتاب بطالعة الافتتاح الملوكى براعةَ استهلال له نختمه »
« بهذه الرسالة الملوكية التى أنشأناها فى عيد جلوس جلالته براعة انتهاء وختام مسك ، »
« ولها منه جميل المناسبة . »

على الذروة العلياء من مدينة « قواله » دار لاتزال مزدهرة برونقها حافظة شكلها وحال بنائها منذ ماشادها صاحبها الأول « يول أغاسى على أغانك أوغلو ابراهيم أغا » تطل من جانبها القبلى وجانبها الغربى على البحر الأبيض المتوسط حيث لاحاجز للناظر منها يحجبه أن يرى مصر أو يحجز همته أن يثمر فيها ذلك الغرس العالى وقد نبت فى منبت العز هناك . وفى تلك الدار ولد الرأس الأعلى لهذه الشجرة الباسقة شجرة محمد محمد على الذى نحتفل اليوم بذكرى جلوس أعلاها غصناً وأحلاها مذاقا وأظلها رواقا وأبعدها بسطة وعلاء ، أحمدفؤاد الأول أبى الفاروق المؤمل وابن اسماعيل المأمول . وهناك لاتزال بقايا تلك الدور التى عاصرت دار (ابراهيم بن على) ومن مقارنتها يظهر للرائى منبت العز المصرى وانه منبت خصب نامٍ زاهر ، وأصل عريق زاه تالد ، فالدار فى أعلى القمة حيث تتقاصر الدور دونها ، وفى مظهر الدار ماينم على رفعة الأصل فى هذا المظهر .

وتخير موقعها لتطل على البحر من ناحيتين خيرة مدت بسطة الا مل وبسطة الهمة فى نفوس الأشبال الذين درجوا من ذاك العرين . فحين يراها المصرى يرى أصل عزه ثابتاً ومنبت مجده ناميا وموضع الرأس منه موضعاً عاليا ومكانا ساميا ، بل لا نزال أعلى مكان فى بلاد الاغريق يقوم فوقه أضخم بناء فى منطقة البحر (قلعة قواله) ملكا مملوكا لرأس مصر ومالكها العظيم . وأنا إذ رأيت هذا العلاء حفزتنى نفس المصرى الوثابة أن أرقاه فصعدته فإذا بى وبلاد ماهنالك لاتملأ حدقة عينى، وإذا بقلبى يشحم بدهن السرور لابدهان الغرور، سرور أنى حيثما طوفت ازددت فخراً بآثار هذا الملك وآثار أجداده من قبل

من هذا لاعجب أن يكون الملك أحمد فؤاد الأول ، هو الملك أحمد فؤاد الأول ذلك النبع الفياض على مصر والشرق والاسلام والعرب يفيض مافى نفسه من فضل ونبل ، على أن أظهر مافى هذا الملك وأبين مايكتبه الكاتب فى تاريخه إذا كتب تاريخ الملوك، أن يقولها بالخط العريض عن الملك فؤاد « أنه وحده هو الملك الذى جعل مجده فى مجد شعبه »

فهنا فى مصر ، سِرْ بين واديها فسترى آثار ملوكها البواقى آثار ملوك لأشخاص الملوك : هرم الملك زوسر ـ مسلة الملكة حتاسو ـ طيبة مدينة الدنيا أو مدينة الملوك . أمنمحعت ، واحمس ، وتحوتمس ، وسيتى ـ معبد الكرنك لأول من بنى فيه الملك أسرتسن ، وآخر من رقشه رمسيس صاحب معبد الرمسيوم ـ جزيرة فيلا وبها قصر أنس الوجود أو قصر الملك بطليموس فيلادلف الخ آثار كلها لأشخاص من

شادوها ومجد من بنوها ، وثروات كانت بأيدى هؤلاء هى من ثروات شعوبهم ولكنهم جمعوها أحجاراً فى الصحراء ، أو بنوها مسلاتٍ فى الهواء ، أو رسموها صفحات خطّوا عليها تلك الأسماء ، فما فيها فهو لهم ، وما بقى منها فهو لذكرهم ، أما أحمد فؤاد الأول فمجده الذى ارتضاه لنفسه إنما هو لمجد شعبه ، مدارس بناها تعلمهم ومستشفيات أقامها تمرضهم — وكهارب مدها تنورهم — وجسور وقناطر ، وطرق ومعابر ، ومجامع ومعاهد لخير الشعب ، وترفيهه وتنويله السعادة فى معاشه من أسهل طرقها ، وأن يرقى به صعداً فى مدارج الحياة والانسانية رقياً تتوارثه الأجيال وتنهجه ، وتقفو أثره حتى يبلغ الوادى لبنيه مايضمن بقاءهم على أفضل وجوه البقاء وذلك لعمر الله هو المجد الباقى النافع (ومن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة)

لم يبق لمحمد على من مجده الذى يذكر باسمه إلا مسجده القائم على جبل المقطم ، أما مجده الوطنى فهو الذى ينعم به شعب ابنه ويذكر به أنعمه عليه ، من نظم سنّها ، ومدارس أقامها ، ومعاهد شادها ، ومصانع درّت نفعها على جيلها وعلى الطبقات من بعدهم ، وقامت قدوة لبنيه من بعده يستنون فى مضمار أبيهم ، حتى جاء هذا الملك المجلّى حفيده فؤاد فأكملها ، وأتم أنعم الله بها ، ومد يديه مبسوطتين فى وادى مصر ينفق بهما كيف يشاء نفقة الخير والاسعاد ، وإنها لنفقة تسجل له مجد الحقيقة فى نفع الوطن وانه مجد البقاء والدوام

***

لما زرت اليونان هذا العام دهشت مما رأيت أن تكون على ما رأيت، واستقلالها لما يمض عليه أكثر من مائة عام إلا قليلا ، قلت هذا ليونانى من أبنائها فأهطع لى وقال : ومصر هل تجاوزت عشر السنين على استقلالها الأخير إلا قليلا ؟ فماذا رأيناه فيها وقد كادت تتبدّل خلقا جديداً وتتصوّر حضارة طافرة ، وليس لها فى حياة الاستقلال معشار ما لنا فيها ، ولو عددنا خطواتها المدنية فيها ونسبناها إلى ما تستكثره علينا فى حياتنا لكنتم أنتم فى الحضارة السابقون كثيراً ونحن اللاحقون فيها بعدكم بكثير ثم قال بعد سكوت وتفكر . آه : لو أن اليونان ظفرت بملك مثل مليككم أحمد فؤاد الأول إذن لكنت تراها بعد هذه الأعوام المئة فى مصاف الدول العظام

هذه لعمرى شهادة من شهادات الغرب الناطق لملك الشرق الذى نحتفل بعيد جلوسه احتفال الشكر والوفاء واحتفال الإقرار والولاء

مدّ الله فى هذا العمر السعيد ، المسعد المفيد ، رحمة ورفقاً بالأنام ، على الدوام

محمد سليمان



المؤلف على أعلى قلعة قواله فى منارة الرابة

كلمة الناشر

منذ عشر سنين طلعت علينا الصحف المصرية بـ « رسائل سائر » كتبها صاحبها وهو يجوس خلال فلسطين ، ثم ظهرت مرة أخرى فى « رسائل الحج » وعادت فى العام الأسبق تجلو لنا فى مصر صفحات سوريا ولبنان . وفى هذه المرة كتب رسائله عن بلاد اليونان وإليها كانت رحلته .

ولقد تتبعت هذه الرسائل من بدء ظهورها ، فرأيتها تنال اعجاب القارئين بما تضمنته من دقة وصف ، ووضوح بيان وبحث تاريخ ، وتجلية حوادث انساق كاتبها إلى ذكرها فى مناسبات دعت إليها فجلّى بها غوامض من تاريخ طمست معالمه ، واستخرج من شق قلمه ظواهر تبثّ الخير فى نفوس الناشئة من جهة العلم الصحيح وجهة الوطنية الحقة. وهذا المنبسط من أرض الله وهو يملأ مابين بلاد العرب إلى بلاد الاغريق وقد ساحه الكاتب ، بدا للمصرى من قلم مبديه كأنه صفحة متمّمة لأرض الوطن ، فيها من آثار مصر وأيادى المصريين مايتيه المصرى به فخراً ويحنّ إليه شوقا .

إزاء هذا رأيت أن أجمع « رسائل سائر » فى كتاب يخلد بين أبناء الوطن خلود ذكر لصاحبه ، ووجه نفع لاخوانى ، تتجلى لهم فيه العربية الفصحى ، والانشاء البليغ ، والحديث الممتع ، والتاريخ النافع . وكل أولئك فواضل أقدمها لهم ، خدمة صالحة لوطنى أرجو أن تحوز الرضى والقبول

لما أخذ فضيلة القاضى الكبير ينشر رسائله عن سوريا ولبنان جعل توقيعها هذين الحرفين (م ـ س) وأخذت الرسائل تستحوذ على ألباب القراء فأخذت رسائلهم ترده بالثناء والاعجاب ، من عرف رمزه من القراء كتب إلى فضيلته ، ومن لم يعرف كتب إلى من يعرف . وألطف ما أرويه كتاب ورد من الهند أرسله عالم معروف بها إلى سعادة العالم زكى باشا يرجوه توصيله لفضيلة الكاتب ، ويقول للباشا إنه لابد يعرف صاحب الرسائل ؛ ومع كتابه جزء كبير من تاريخ شهير فى الهند أرسله العالم الهندى بمناسبة ما جاء فى الرسائل عن « ابن بطوطة » ، يريد كاتب الهند أن يناقش بتاريخه هذا فى رحلة «ابن بطوطة» ودخوله تلك البلاد فى العصر الخوالى ـ ولقد اطلعت على ماورد من هذه الرسائل ولو شئت أن أنشرها لعادلت الكتاب ولكنى أكتفى ببعض مما نشره «المقطم» الأغر لبعض الكتاب الكرام

وكما أخذت رسائل الشام مكانتها من الاعجاب فكذلك أخذت رسائل اليونان حظها من هذه المكانة حتى أن فضيلته لما عاد من رحلته الاخيرة بادره المراسلون يستميحونه الكتابة عنها . ونشر « المقطم » فى عدده الصادر بتاريخ ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٣ رسالة بليغة للاستاذ الفاضل محمد محمد الصفطاوى المدرس بالمدارس الثانوية الاميرية المصرية ضمنها كلمة قيمة عن فضيلته وتأثير كتابته والمامة من تاريخ حياته وفى آخرها يقول :ـ

(... ومن أجل هذا أعتقد أيها القاضى العادل ان سفرتك كانت

للعلم ومن أجل العلم وكانت للوطن ومن أجل الوطن ، فهلا تجود للعلم وأنت رافع رايته ؛ وتكتب لنا ما رأيته وقد ركبت الهواء ، وهلا تحدثنا عما اطلعت عليه فى تلك البلاد ذات التاريخ القديم ، حتى تكون أنت المبرز بعلمك ونبوغك فى حياتك الحافلة بالخير ، والأمل عظيم فى سند الصحافة الاستاذ « خليل بك ثابت » أن يفسح لنا من صحيفة المقطم ماننال به البغية وندرك به الطلبة ويكون الرسول الحكيم بيننا وبين القاضى الكريم)

وقفاه الأديب على عامر افندى بكلمة نشرها المقطم فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٣ وكانت الرسائل اليونانية قد بدأ نشرها ، فأخذ يصفها ، ويذكر تأثيرها ، وما احتوته من فائدتها وختمها بهذه الكلمة :ـ

(... كل مافى رسائلك السائرة جميل . ومن حق قرائك عليك أن تدفع اليهم هذا الفن كله دفعة واحدة ... هم يضنون برسائلك عن الشام أن تذهب مع الزمن . وهم يهتفون بك أن تجمعها بين دفتى كتاب واحد . لأنهم يؤمنون ان هذا السفر سيكون أسبق نظائره إلى الخلد . ولقد عرفنا فيك النأى عن مواطن القعود فهل يتاح لقرائك أن يستقبلوا هذا السفر المنشود فى يوم قريب ...

هى خطرة لا أنسى معها أن أحمد اليك الله الذى هيأ لك من أسباب التوفيق فى خطواتك ما أنت به خليق حقيق)

وعاد الكاتب فألقى محاضرة عنها فى دار « رابطة الادب العربى » يرى القراء ما كتبه المقطم عنها فيما بعد . وكذلك احتفى سعادة وزير اليونان بهذه

المقالات وأقام سعادة وزير مصر المفوض حفلة تعارف بينه وبين فضيلة الكاتب روى المقطم نبأها وصادف أن أقيمت فى اليوم الذى كانت خاتمة الرسائل منشورة فيه .

وكما أن الجرائد العربية كانت تتناقل رسائل الشام عن المقطم ، فكذلك صنعت جرائد اليونان التى تصدر هنا وفى أثينا فترجمتها الى لغتها وانتشرت هذه الرسائل البليغة عن العرب واليونان بلسان العرب ولسان اليونان ـ والله أرجو أن يعم نفعها إنه سميع قريب

وهذا ماوعدنا بنشره مما أمكن حفظه من اعداد المقطم فى أوقات متفاوتة متعلقا بهذه الرسائل :

فى حفلة شاى

وحفلة فضل وأدب

ليس أحب إلى القلب ولا أشهى للنفس من الانتظام فى حلقات أهل الفضل وأعلام الثقافة والأدب ، والاستماع إلى أحاديثهم الطريفة وآرائهم السديدة

ولقد شاء الاستاذ أحمد فهمى العمروسى بك ناظر مدرسة المعلمين العليا أن يحتفى بالقائد العربى الممتاز اللواء جمال باشا الغزى فأقام له حفلة تكريمية فى منزله بمصر الجديدة دعا اليها نخبة من فضلاء المصريين والشرقيين ، وهم سعادة شيخ العروبة أحمد زكى باشا وحضرات محمود بك أبو النصر والدكتور شهبندر والدكتور منصور فهمى والاستاذ أحمد ضيف والاستاذ وديع مرشاق

وكانت هذه الحفلة فريدة فى بابها لأنهـا تجرّدت عن جميع مظاهر

الجلبة والضوضاء ، واقتصرت على فئة خاصة من رجال الأدب تقاربت مشاربهم واتحدت نزعاتهم ، ولم تُلق فيها خطب وقصائد كما هو معتاد فى مثل هذه الحفلات ولكن تخللتها أحاديث نفيسة قد يكون من ورائها نتيجة عملية للفكرة العربية

وبعد أن انتظم عقد المدعوّين طاف بهم صاحب الدعوة فى قاعات منزله الجميل وهى مزدانة بمجموعات ثمينة من آثار الاباء ونفائس الأجداد ، فافتتن بها القوم أيما افتتان ووقف حيالها الدكتور منصور فهمى حائراً مبهوتاً وهو يقول : هذه هى حضارتنا وتلك آثار أجدادنا فلماذا لانعمل على إحياء ما درس منها

ثم توجه المدعوون الى غرفة الطعام وجلسوا حول مائدة جمعت مالذّ وطاب من أصناف الحلوى المصنوعة بأيد مصرية وطنية وقد نقش فوقها بحرف كوفى جميل اسم « الرمالى »

وقضى المدعوون ساعتين وهم يتحادثون ويتسامرون دون أن يشعروا بشئ من السآمة والضجر ، وكيف يسأم من كان يغذى جسمه بالحلوى الوطنية الفاخرة ويغـذى روحه بنوادر شيخ العروبة وقصص الدكتور شهبندر وبحوث الدكتور منصور فهمى

وماراعنا قبل انفضاض هذا الجمع إلا وقوف شيخ العروبة على حين غفلة ومفاجأتنا بقوله : لقد أسمعنا الدكتور شهبندر فى حفلة أقامها فى الأسبوع الماضى لتكريم شاعر المسلمين فى الهند اسطوانة جميلة تشتمل على نشيد الأحرار المعتقلين ، ومطلعه :

يا ظلام السجن خيّم * إننا نهوى الظلام

فهل لحضرة صاحب الدعوة (الاستاذ العمروسى بك) أن يشنف آذاننا باسطوانة مثلها ؟

وهنا وقف الاستاذ العمروسى وقال سمعاً وطاعة ثم أخرج من جيبه عدداً من أعداد المقطم وتلا على المجتمعين قطعة خالدة من « رسائل سائر » وهى المقالة الرابعة التى يمجد فيها أبطال العرب وسيفهم المسلول ويقابل بينها وبين نابليون فاستمع القوم اليها وأمارات الاعجاب ترتسم على أسارير وجوههم ، وبلغ من استحسانهم لها انهم كلفونى أن أنوب عنهم فى تبليغ الكاتب « المجهول » عن طريق المقطم شكرهم الزائد وتقديرهم العظيم ، وأن أدعوه وحضرة رئيس تحرير المقطم إلى الاجتماع المقبل الذى سينتظم عقده فى منزل الاستاذ وديع مرشاق يوم الأحد القادم ، وها أنا ذا أبادر لتأدية هذه الرسالة ، وما على الرسول إلا البلاغ

المقطم ١٩٣١/١٢/١٢

تيسير ظبيان
مدير مكتب العروبة

من فضل خالد

لى ربع قرن وأنا أكتب فى الصحف وأشدو لقومى بلسان عربى أخرج إيقاعه من وتر القلب ، ومرّت بى أسواق للحوادث كان قلمى فيها المجلّى . فأنا صاحب مقالات (عربى بسفح النوباء) التى هزّ «المؤيد» بها أبناء الدولة العليّة سنة ١٩٠٨ أيام الدستور العثمانى وخلع السلطان عبد الحميد . وفى سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١١ كانت مقالاتى افتتاحيات المؤيد عن «المؤتمر المصرى وحرب طرابلس» بامضاء : (مسلم يطلب الانصاف) ، و (أبو كوكب الصباح) كان هو الصدّاح المشجى فى سنى الثورة الوطنية . ومنذ أربع سنين ومقالات (أبو التلاميذ) تدوى فى القطر حتى صدرت من أجلها قوانين وانتفع بها عشرات ألوف من البنات والبنين إلى غير هذا كثير من المقالات والرسائل ذوات التواقيع المختلفة والرموز المتعدده لم أبغ عليها جزاء ولا شكورا ، ولا لقيت لها جزاء ولاشكوراً إلا من رب السماء وعالم السر وأخفى ، إلى أن ساقنى القلم إلى كتابة (رسائل سائح) ووصلت فيها إلى حمص فأسعدنى الطالع أن أكتب فى القائد الخالد سيدنا خالد بن الوليد بمناسبة زيارتى لقبره فى حمص ، فكان من فضل هذا الروح الكريم أن قرأت للأديب الأريب تيسير أفندى ظبيان تلك الكلمة التى تفضل المقطم بنشرها تزكية لمقالتى فى خالد بشهادة شيوخ الأدب والفضل شيخ العروبة زكى باشا ، وعالم مصر فهمى بك العمروسى ، وزعيم سوريا الدكتور شهبندر ، والقائد العظيم جمال الغزى باشا

وعلم الله ما سررت في حياتي سروري بمثل هذه الشهادة في كتابة لايعرف الشهود كاتبها ، وهي خير جزاء يلقاه كاتب مخلص ، وزادوا في كرمهم فدعوني على الغيب الى مأدبة الكرم العربي في دار الاستاذ وديع مرشاق ، وكان جزاء هذا الاحسان أن أتلقاه بالاجابة فزاد نفسي سروراً ذلك الحفل الحافل بالسراة والأكارم من أبناء العرب ، ولقيت « الذوق » الذي كتبت فيه رسالتين من رسائلي مجلواً في دار مرشاق فزودت العين والفم والأذن بزاد النضرة والنعيم . وقد تميزت سهرة الأمس بما عرفته بالخبر عن أبناء الشام أنهم « عرب قبل كل شيء » فهم يتغنون بالعربية ويعملون لها أسبق أبنائها وأبرهم بها . وهذه ظاهرة سيرد القول عنها في رسائلي . إنما أخص القول بالخطبة الأنيقة العذبة المرتبة التي ألقتها ربة الدار بحسن منطق وعذب أسلوب وبديع إلقاء حتى قلت للاستاذ العمروسي بك والله لهذه الخطبة أشهى عندي من هذه المائدة على بدعها وجمال الذوق في ترتيبها وفي صنعها لأني ما كنت أحلم أن أسمع خطيبة بمثل هذا الشأن حتى سمعت الليلة زين بنات غسان

فمن المقطم ناشر دعوتي أرجو نشر شكري هذا إلى مكتب العروبة وإلى دار مرشاق وإلى السادة الغطاريف الذين شرفوا الحفل وذكروني في ملئهم بخير ذكرهم الله في ملئه بالاحسان

المقطم ١٩٣١/١٢/١٦ (م - س)

فى رسائل سائر

حفلت دار « رابطة الأدب العربى » فى مساء الخميس الماضى بجمهرة ممتازة من المتأدبين لاستماع المحاضرة النفيسة التى قصرها الأديب النابه على أحمد عامر أفندى المحرر فى مجلة الإخاء على «رسائل سائر» التى يذيعها « المقطم » للعالم العامل حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا

وفى تمام الساعة التاسعة أخذ المحاضر مكانه على منصة الخطابة وتناول الحديث عن « رسائل سائر » بعد أن مهد له بمقدمة مستفيضة عن مواضع السمو فى أدب صاحبها العالم الجليل سواء من ناحية أسلوبه الأخاذ ، أم من ناحية آرائه النافعة ، وكان الحديث من جانب المحاضر عن هذه الرسائل الممتعة باعثاً على إعجاب المستمعين لأنه بسط لهم ـ فى أداء طلى وأسلوب أخاذ ـ ما فى تلك الرسائل من خصائص كلها فريد فى بابه ، طريف فى أسلوبه ، وكان اغتباط المستمعين باعلان المحاضر أن « رسائل سائر » ستكون بين أيديهم فى كتاب مستقل بعد أمد وجيز كان اغتباطهم بهذا النبأ اغتباط المشوق إلى تحقيق أمل منشود ، فقد قابلوه بحماسة أفصح عنها تصفيقهم المتواصل . . .

وقد عقب على المحاضرة بكلمات طيبة الأديبان الأستاذان كامل كيلانى سكرتير الرابطة ومحمد مصطفى حمام

وهكذا كان مساء الخميس فى دار « رابطة الأدب العربى » مثار

حديث شيق عن أدب الاستاذ العالم الشيخ محمد سليمان وعن موفور علمه وفضله

المقطم فى ٣٠ / ١٢ / ١٩٣٣

حفلة تعارف

أقام حضرة صاحب العزة على سرى عمر بك وزير مصر المفوض فى أثينا حفلة شائقة بفندق سميراميس قبل سفره لتعارف سعادة وزير اليونان المفوض فى مصر بفضيلة الشيخ محمد سليمان دعى اليها جماعة من الصحب لمناسبة ما نشره « المقطم » لفضيلته بعنوان « رسائل سائر »

وبعد شرب الشاى قدم سعادة الوزير لفضيلة القاضى مجموعة مناظر جميلة ونفيسة عن بلاد اليونان فى « ألبوم » مذهب فى جلد فاخر وقال له: « إن ما كتبته عن بلادنا سواء كان لنا أو علينا كله حق ، حرّره قلم قاض نزيه ، وإن أكبر الجرائد فى أثينا الآن تنشر ترجمة هذه الرسائل ، ودعا فضيلته إلى زيارة اليونان مرة أخرى . فشكره القاضى وقال له : إنه مستعد لتصحيح ماعسى أن يكون قد أخطأ فيه أثناء جمعه هذه الرسائل فى كتاب هو تحت الطبع الآن ، فكرر الوزير له شكره وانفض الحفل مسرورين شاكرين

المقطم فى ١٤ / ٩ / ١٩٣٤

تنبيه

هذا وقد بذل جهد غير قليل فى تصحيح الكتاب وشكل الكلمات اللاتى يعوزها الشكل فجاء بحمد الله ثقة بيّناً إلا أن الكمال لله وحده فقد وقعت غلطات مطبعية قليلة نشير اليها هنا

ظهرت بعض كلمات كان مضروباً عليها فتحذف وهى : يوشع س ١ ص ١٤٢ وأن س ١٤ ص ١٨١ و إن س ١٣ ص ١٩١ - و (حلقت رأسها) س ٨ ص ٦٤ ويوضع أصلها (قصت لمتها) و (للتريض) س ٧ ص ١٨٠ وأصلها (للرياضة) و (كسىّ) س ٣ ص ١٨٤ وأصلها (كُسا)

ويحذف شكل الكلمات الآتية :

(طِفِرت) س ٦ ص ٣١ و (عنَدر) س ١٦ ص ٥٩ و (تزِن) س ١٧ ص ٦٠ و (يتممّ) س ٢ ص ٦٣ و (تُبق) س ٧ ص ٦٤ و (مزدوَجه) س ٦ ص ١١٣ و (إصالة) س ٦ ص ١٩٠ و (شِعِب) س ١٤ ص ٢٠٩ و (أن) س ٦ ص ٢٣٨

وتوضع كلمة شليَات س ١٧ ص ٣٩ بين قوسين

ووقع رسم الهمزة على ألف فى بعض الكلمات وصوابها أن تكون مفردة أو على نبرة

وتصحح لضالة س ٢ ص ٦٩ بـ لضآلة

الرحيل س ٢ ص ٦٩ - الرحيق

قبلة س ٧ ص ١٩٠ قبلته

اضطرد س ١٩ ص ٢٢٤ اطرد

صدر س ١٠ ص ٢٣٦ صدور

السابقون س ٧ ص ٢٤٩ السابقين

شكر

وقبل أن نغادر المطبعة يجب أن نسجل شكرنا « بلسانى ولسان المؤلف » لصديقنا الاديب الاريب محب الدين افندى الخطيب صاحب المطبعة السلفية ومدير مجلة الفتح الاسلامية ، فقد بذل جهداً مشكوراً ، وأرانا خلقاً رضياً ومعاملة حسنة

والى حضرات المشتركين

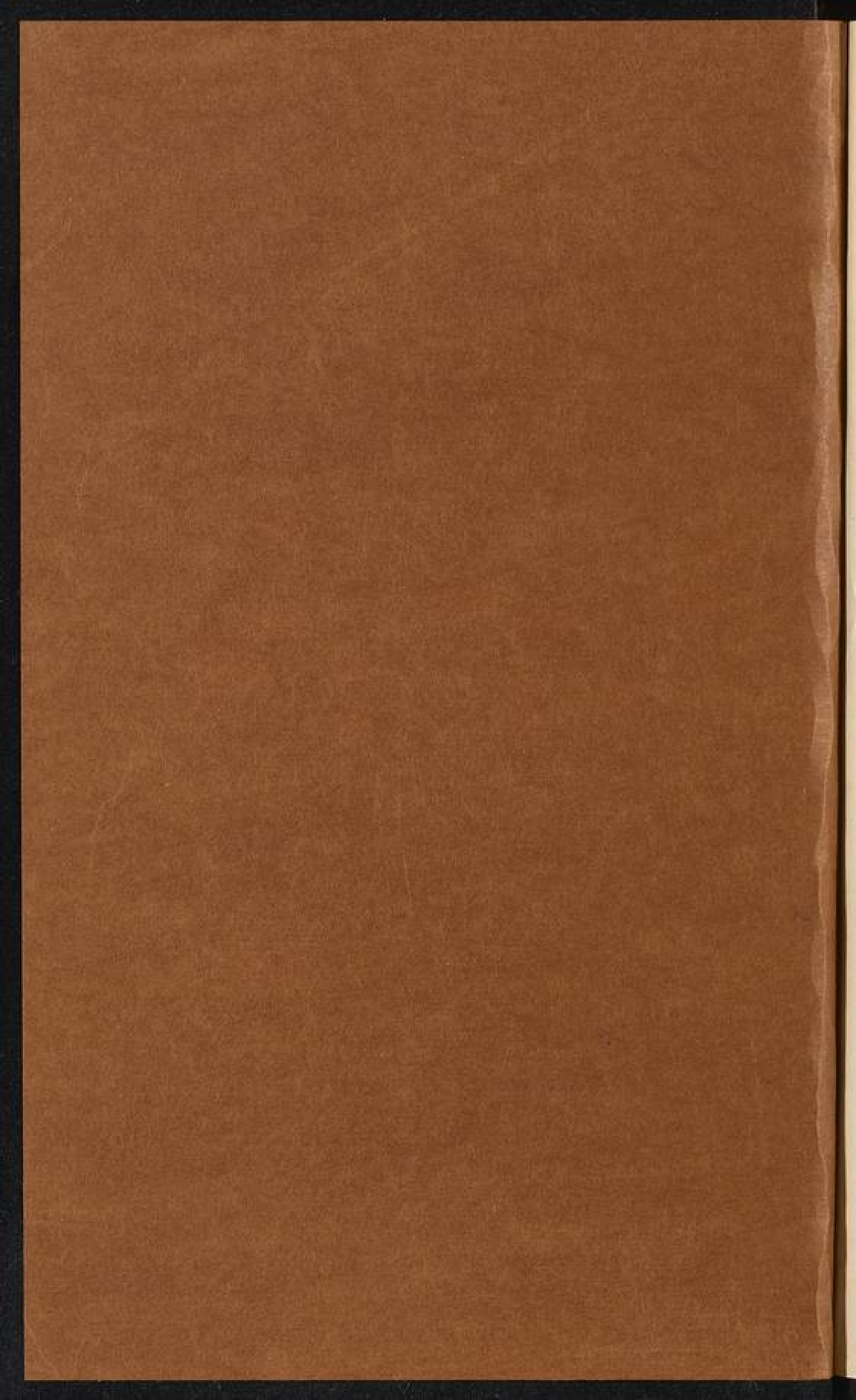
يجب أن نقدم خالص الشكر فقد بادروا الى الاشتراك فى هذا الكتاب بمجرد الاعلان عنه ، ولئن دلّ هذا على مكانة المؤلف فى عالم القلم فانه ليدل على روح قوىّ للعلم تجلى به حضرات المشتركين وظهر أكبر مشجع لخدام العلم والأدب فى هذا البلد الأمين . والحمد لله رب العالمين؟

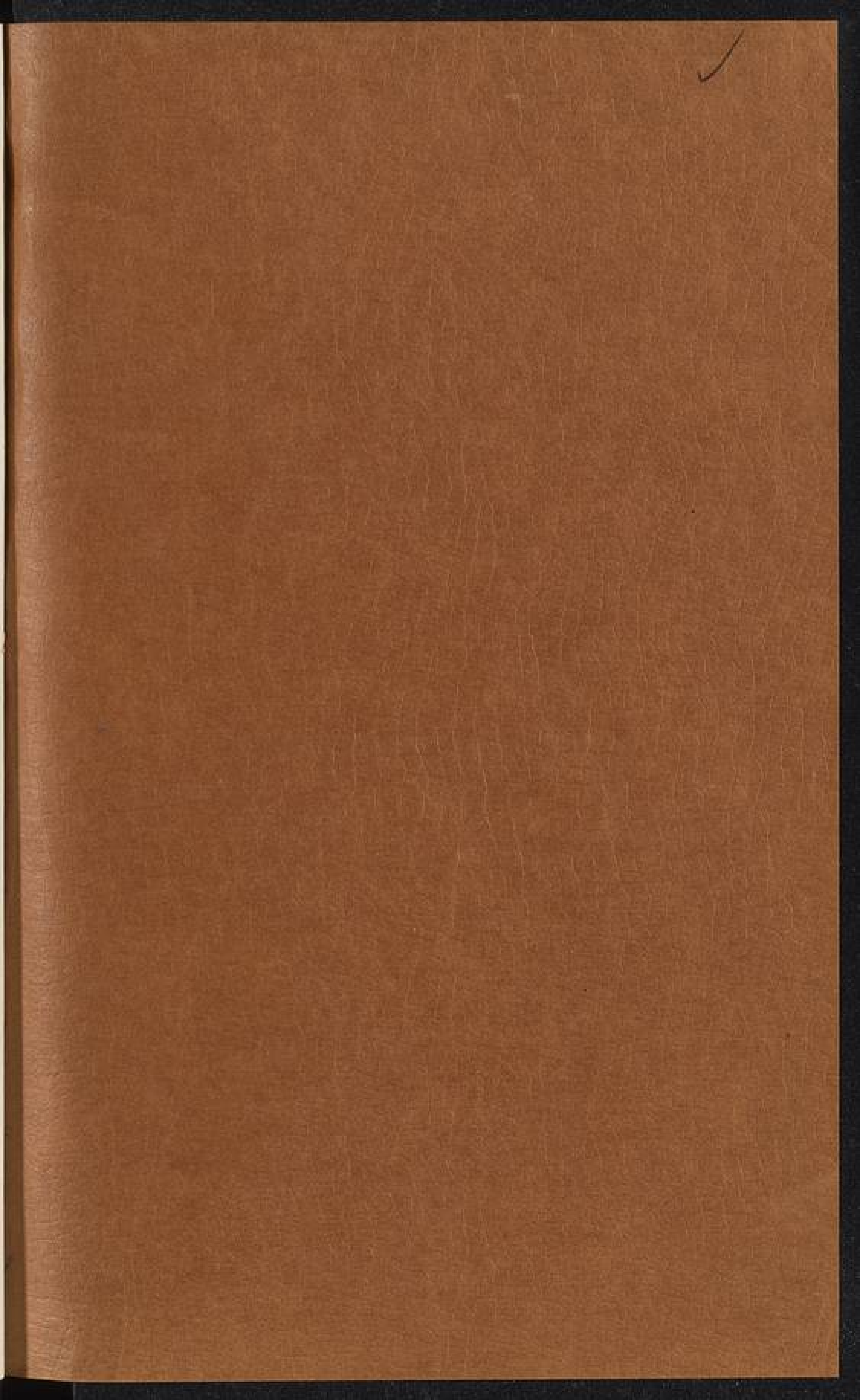
الناشر

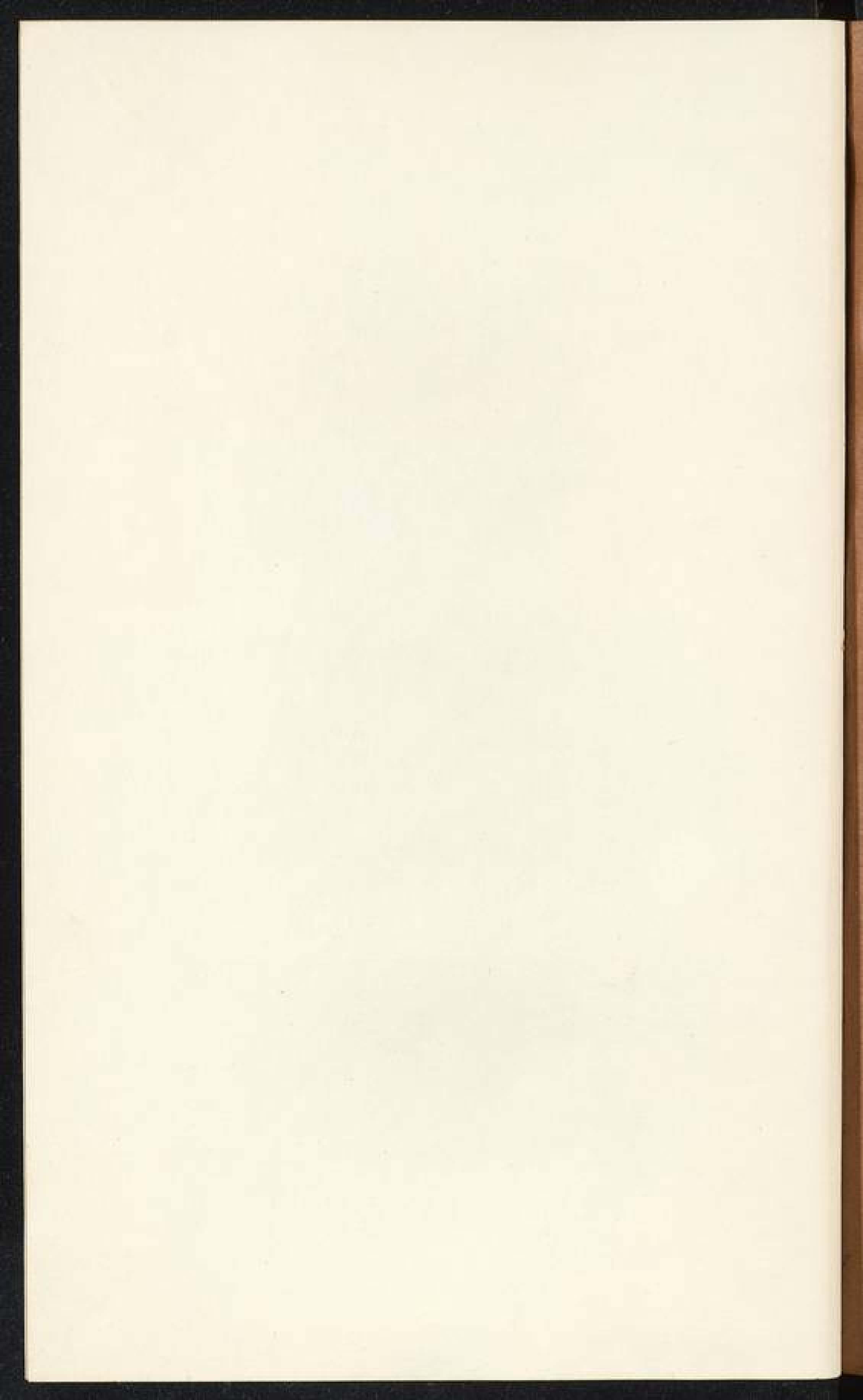
علي محمد ندي

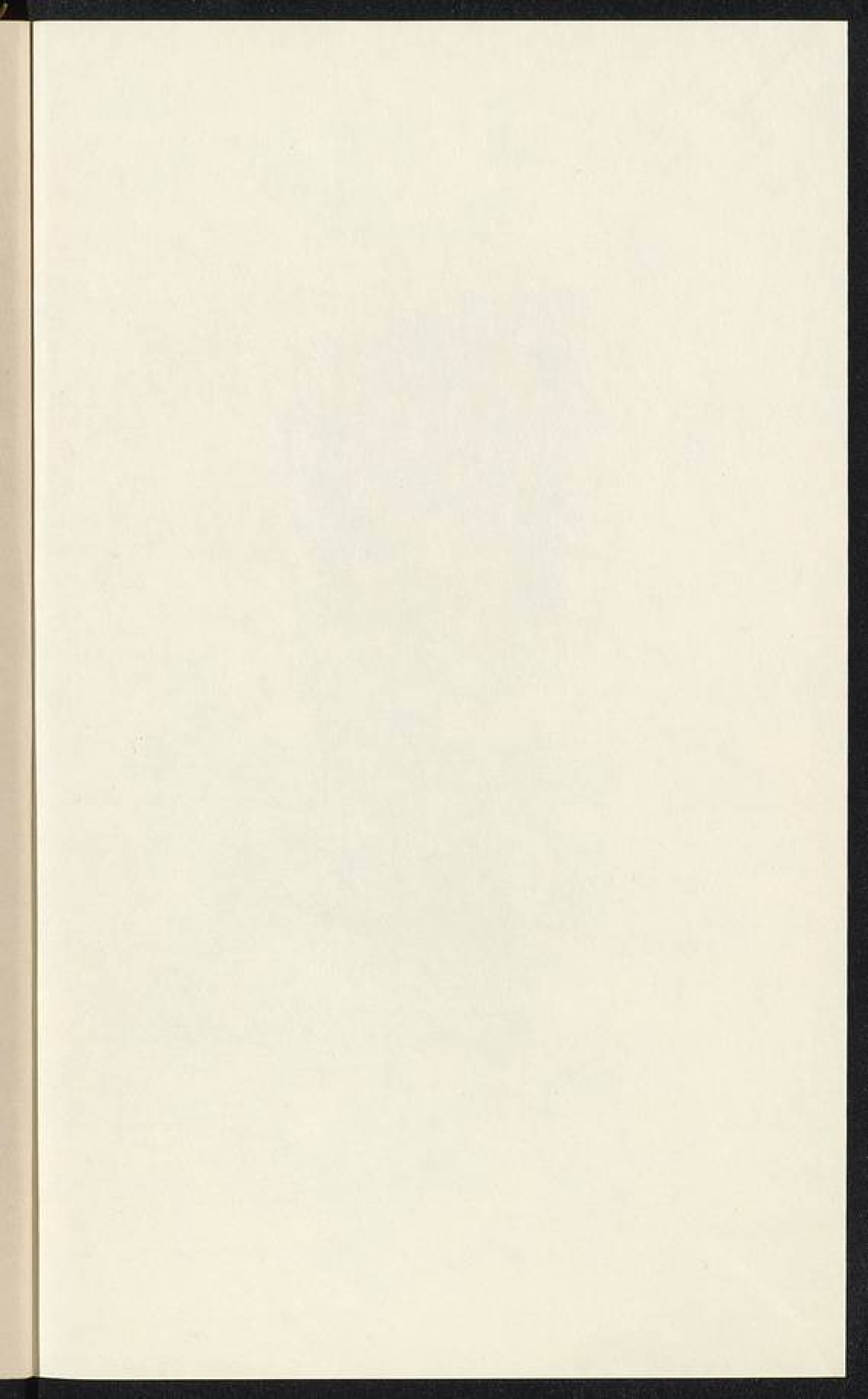
فهرست الكتاب

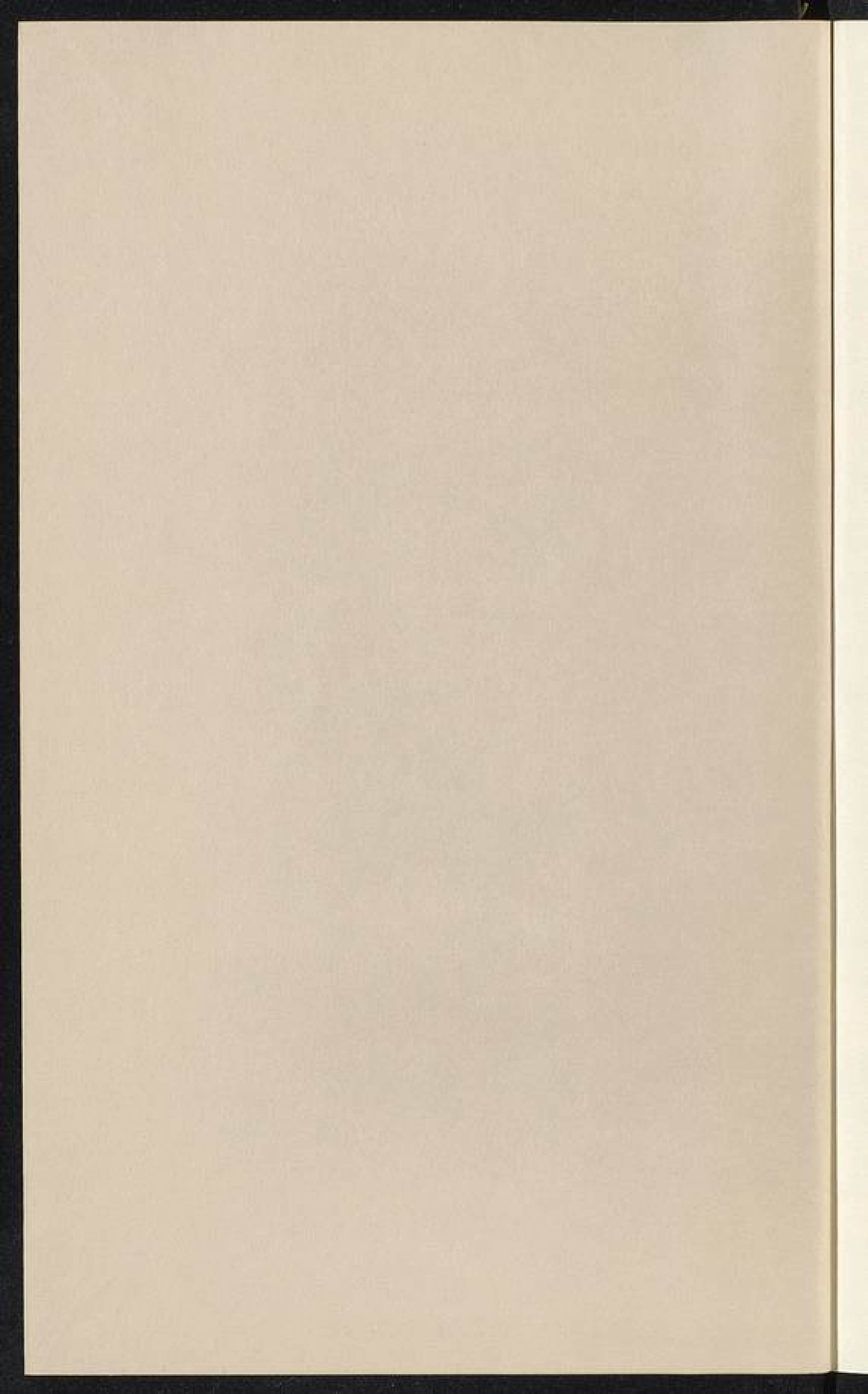
نظرات عامة

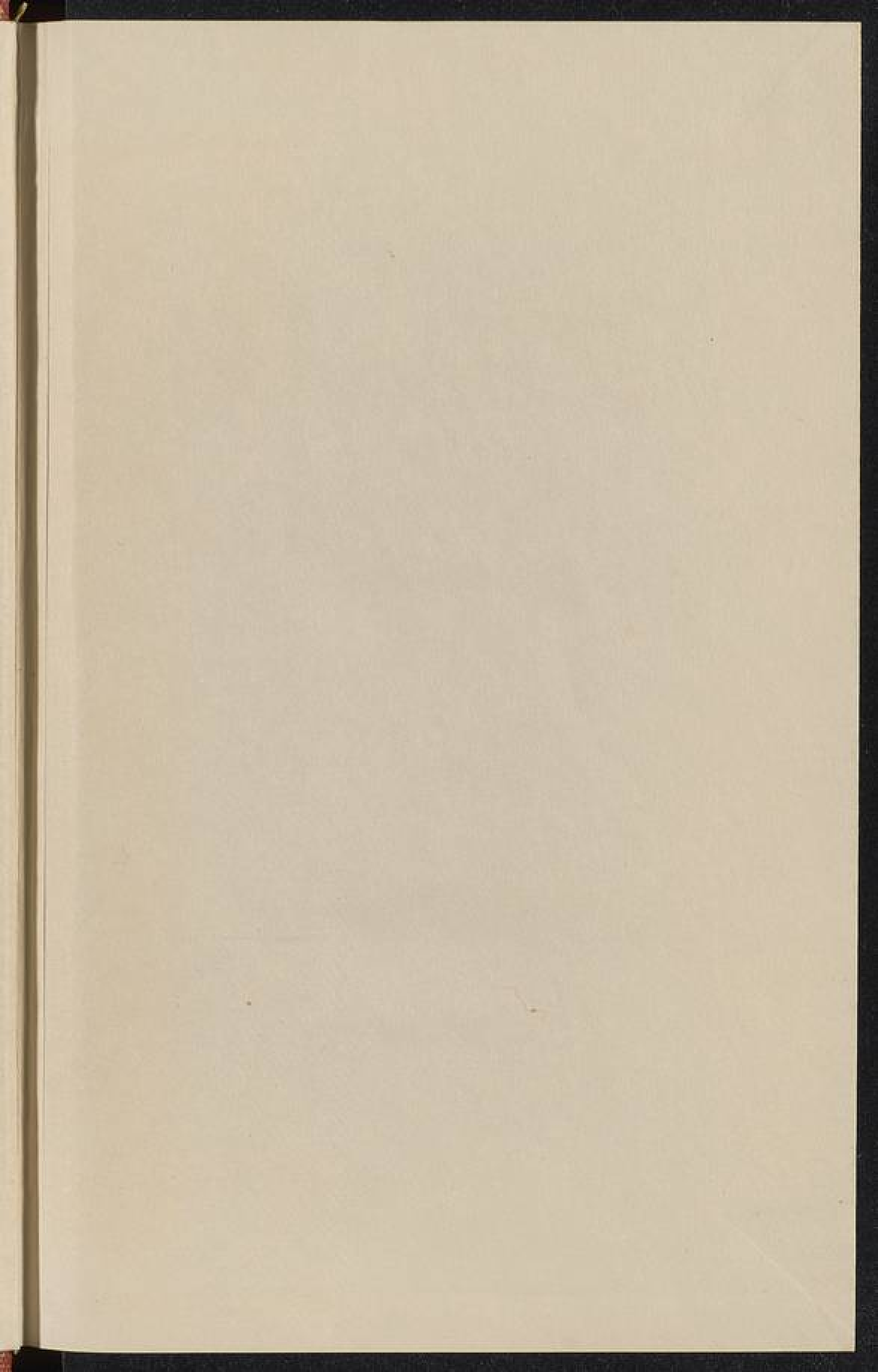













COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU52884163
DS49.7 .S84
Rasail sair min bila


RECAP